

الْفَضْلُ الثَّامِنُ
بحوث في
الإعجاز العلمي
في حاجة إلى مزيد
من التأصيل والدراسة

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

البحوث القاصرة في الإعجاز وآثارها السلبية

هناك بحوث في حاجة إلى مزيد من التأصيل والدراسة وهي بحوث لا تأخذ صفة الإعجاز العلمي إما لعدم ثبوت الوقائع المحال إليها في تلك البحوث بيقين، أو لعدم وضوح العلاقة بين القرآن والسنة الصحيحة وبين تلك الوقائع، أو للتكلف في إثبات تلك العلاقة، فالحقيقة العلمية قد تكون صحيحة، والآية الشرعية أو الحديث الصحيح لا خلاف فيهما، لكن الخلاف في دعوى الاتفاق والربط بين هذه الحقيقة العلمية وتلك الحقيقة الشرعية.

وهذه البحوث القاصرة غير المنضبطة بالضوابط العلمية، لها آثار سلبية كثيرة، وقصور أبحاث الإعجاز العلمي يكون من عدة جوانب منها:

١ - القصور من الناحية العلمية في دقة المعلومات العلمية، وهذا يسبب الاتهام بالسذاجة والاعتزال والجهل وعدم الثقة في البحث:

يقوم بعض من يريد تشويه الإسلام والإعجاز العلمي بوضع معلومات كاذبة وتلقاها المتتديات في الإنترنت وبعض الكتب وتقوم بنشرها على أنها إعجاز علمي وليست هي إلا خرافة، وأحياناً يقوم بعض الدعاة بنشرها على أنها إعجاز وبعد الفحص والتأكد نجد أن المعلومات غير صحيحة فهذا يخرج الداعية المتسرع في نقل تلك المعلومات.

نموذج للقصور من الناحية العلمية:

"جهاز تخطيط القلب يرسم اسم (الله)" هذه أكذوبة يساهم في نشرها بعض المسلمين بسبب عدم علمهم بأساليب المستهزئين، فقد انتشرت على المتتديات الكثير من "المعجزات الوهمية" التي أضرت كثيراً بالإعجاز العلمي. فتارة تأتي معلومة تقول إن القلب يصدر ترددات رسمت اسم (الله) على جهاز التخطيط، وتارة يقولون عثرنا على فتاة على أذنها اسم (الله) أو أنهم وجدوا اسم (الله) على غنمة أو نبتة أو ثمرة أو على سطح القمر أو غير ذلك.

وكل هذه الأشياء سواء كانت صحيحة أم خاطئة فالمؤمن في غنى عنها؛ لأن قدرة الله أكبر بكثير من ذلك، والله ﷻ قادر على أن يجعل اسمه على كل شيء، ولكن الله ﷻ أودع في كل ذرة وفي كل خلية وفي كل شيء من حولنا نظاماً محكماً يشهد على عظمة ووحدانية الخالق ﷻ.

فهذه المعلومات وأمثالها لا يمكن أن نتقبلها إلا بعد التأكد من مصدرها وإذا تم التأكد من المصدر نبحت حول هذه المسألة هل لا زالت قيد البحث ولا زالت نظرية علمية أم أنها وصلت إلى مرتبة الحقيقة العلمية ثم بعد ذلك نطبق قواعد الإعجاز العلمي على هذه المسألة وأمثالها.

٢- القصور في العلم الشرعي:

القصور في العلم الشرعي سواء في علوم الحديث أو اللغة العربية أو علم الأصول أو التفسير وبقية علوم الآلة يثمر التخرص والقول على الله ﷻ بغير علم بسبب الجهل. فهو يرى مسألة ما على أنها معجزة أو أنها تشير إلى دلالة معينة وإذا تم التأكد من هذه الدلالة وُجد أنها ليست في قواميس اللغة العربية، ولا قال بها أحد من السلف ويقول أنها المرادة في تفسير الآية أو الحديث وهو قول على الله بغير علم؛ لأن المتخصص في هذا الفن يفسر الآية أو يشرح الحديث أو يبين المعاني حسب الضوابط التي وضعها علماء الشريعة والمختصين في هذا الجانب.

نموذج للقصور في العلم الشرعي:

تحت عنوان "وقفة مع النطفة" كتب أحد الفضلاء في العدد السابع من مجلة "الإعجاز العلمي" التي تصدرها "الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة" ما يلي: «يُخْلَقُ الإنسان من كُلِّ من نطفتي الرجل والمرأة: روى الإمام مسلم بسنده أن يَهُودِيًّا مر بالنبي ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: «يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي»، فقال: «لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي»، فقال: «يا محمد مِمَّ يُخْلَقُ الإنسان؟»، فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي من كُلِّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة». فقال اليهودي: «هكذا كان يقول من قبلك». أي من الأنبياء.

هذه الحقيقة العلمية الدقيقة والتي ذكرها النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً لم تكن معلومة للأطباء في زمنه ولا بعد زمنه حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث كان يُعتقد لقرون أن الإنسان يخلق كقزم كامل من دم الحيض، وبعد اكتشاف البويضات قالوا إن الإنسان يخلق كاملاً فيها، وبعد اكتشاف الحوين المنوي قالوا: بل إن الجنين يخلق كاملاً في رأس الحوين المنوي.

وانقسم العلماء بين مؤيد لنظرية الخلق التام في البويضة أو الحوين المنوي ولم ينته الجدل بين الفريقين إلا في عام ١٧٧٥م عندما أثبت "سيلا نزاني" أهمية كل من الحوين المنوي والبويضة في عملية التخلق البشري، ولم يتوصلوا إلى حقيقة أن الإنسان يخلق من اختلاط أمشاج الذكر بأمشاج الأنثى إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عندما تمكن "هيرتوج" عام ١٨٧٥م من ملاحظة عملية تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، وتم تأكيد ذلك عام ١٨٨٣م عندما تمكن "فان بندين" من إثبات أن الحيوان والبويضة يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة». انتهى كلامه.

تعقيب:

إن الباحث قد بنى بحثه على أساس أن هذا الحديث صحيح - بل في "صحيح مسلم" - وبالتالي استنتج أن هذه الحقيقة العلمية الدقيقة قد ذكرها النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، ولكن عند البحث عن الحديث الذي استدلل به الباحث لا تجده في "صحيح مسلم" بل تجده في "مسند أحمد" و"معجم الطبراني الكبير" و"مسند الطبراني"، وقد ضعفه الهيثمي والألباني وأحمد شاكر والأرنؤوط، وبالحديث زيادة لم يذكرها الباحث وهي: «فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَنُطْفَةُ غَلِيظَةٍ، مِنْهَا الْعَظْمُ وَالْعَصْبُ، وَأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَنُطْفَةُ رَقِيْقَةٍ، مِنْهَا اللَّحْمُ وَالْدَّمُ».

وهذه الزيادة - مع كون الحديث ضعيفاً - تتعارض مع ظاهر القرآن، فإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون: ١٤) يدل على أن مجموع النطفتين يصير عظاماً.

وبالبحث خالف بذلك أحد ضوابط البحث في الإعجاز العلمي وهو ثبوت أن النص من السنة المطهرة الذي نستنبط منه الإعجاز العلمي، هو صحيح أو حسن، إذ لا يُعتمد في هذا المجال الأحاديث الضعيفة.

من الآثار السلبية لجوانب القصور هذه:

١- استفزاز أهل العلم الشرعي وفقدان الثقة في الإعجاز العلمي باعتراض علماء الشرع عليه: بل من علماء الشرع مَنْ أنكر الإعجاز العلمي أصلاً، والسبب في ذلك البحوث الناقصة والقاصرة والتي أساءت إليه بدلاً من أن يكون رافداً من روافد العلم المعاصر.

٢- استهزاء العلمانيين سواء بالبحوث القاصرة أو بالمعجزات الموثَّمة:

ومن أمثلة ذلك: سَرَتْ شائعة قوية عن فتاة عمانية تحولت إلى حيوان زاحف بسبب استهزائها بالقرآن الكريم، ووصل الأمر إلى حد توزيع منشورات لصورة الفتاة المزعومة في المدن والقرى المختلفة ونشرها في الصحف والمثير في الموضوع أن الإشاعة لم تقف حدودها عند دولة معينة بل أصبحت حديث الجماهير العربية في كل مكان.

ووصلت الأمور بعد ذلك إلى توزيع منشورات تروج على أنها معجزة إلهية بدأت الكتابة عن هذه القصة على أحد المنتديات في الإنترنت والمنتديات وأصحابه يكتبون بأسماء مستعارة ولا يأتون بمصادر كلامهم ورغم ذلك باتت مصادر تعتمد عليها وكالات الأنباء والمواقع الأخرى والصحف في نقل الأخبار والموضوعات.

وبدأت القصة عندما كتب أحد الذين يجهلون الإسلام وأخلاق المسلمين خبراً على أحد المنتديات مضمونه أن فتاة من عمان كانت تتابع قناة غنائية فضائية على الدش بينما كانت أمها تقرأ القرآن الكريم، وقالت لأُمها: «أزعجتينا بالقرآن، اذهبي إلى مكان آخر»، فأصرت الأم على البقاء في مكانها، فاندفعت الفتاة وأخذت المصحف ورمته به على الأرض، فذهبت الأم وحملت المصحف ووضعتته على صدرها، فسقطت ابنتها على الأرض ومسحها الله ﷻ على شكل حيوان زاحف يشبه القرد، وتوجد الفتاة بإحدى

مستشفيات مسقط. وقد أرفق كاتب القصة صورة شخصية للفتاة بعد مسحها وتناقلتها بقية المتدييات.

واتضح بعد ذلك أن الصور التي نُشرت وزعم أنها لفتاة عمانية مسخت ما هي إلا مجسمات لتخيلات علمية بتناسخ البشر مع الحيوانات باستخدام تقنيات الاستنساخ والتقنية الحيوية وهي منشورة علي مواقع معارض علي شبكة الإنترنت.

فهذه القصة وأمثالها أولاً: قبل نقلها ينبغي التحري منها وأمثالها معرفة مصدرها، ثانياً: لو ثبت مثل هذه القصة فليس هذا بشيء مستحيل على الله لكن ماذا نسمي هذا الشيء لا يمكن أن نسميه إعجازاً علمياً أو معجزة علمية ونحن نعرف أن لكل علم قواعد وأصول وللإعجاز العلمي قواعد اتفق عليها العلماء^(١).

فالعلمانيون ومن سار في طريقهم يفرحون عندما يجدون مثل هذه القصص ويتخذونها ذريعة للاستهزاء ويقولون: أين مصدر هذه القصة؟ وقد يكون أحدهم هو من وُضع تلك الصورة وتلك الكذبة والتي تلقفها بعض الجاهل وبعض المتدييات التي تعشق كل ما كان غريباً وعجيباً ولو كان كذباً.

٣- طعن الكفار في الإعجاز وجعله ذريعة لتكذيب الكتاب والسنة:

الإعجاز العلمي جاء ليثبت للعالم اليوم في عصر الأبحاث العلمية والمدارس والجامعات أن كل شيء جاء به الرسول ﷺ يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن محمداً رسول الله ﷺ، وأن ما جاء به من عند الله ﷻ، فإذا ما أخذنا بالأبحاث القاصرة أو التي لا تزال في مرحلة النظريات وأثبت العلم خلافها ستكون النتيجة هدم الأصل الذي جاء به الإعجاز العلمي وستكون وسيلة لتكذيب الكتاب والسنة.

(١) وقبل سنوات ظهرت شائعة مفادها أن إنساناً تحول إلى حية! وظهر منشور يقول: إذا أردت أن تسمع صوته اتصل على هذا الرقم! وإذا به شخص لديه دراسة عن سرعة تناقل الإشاعات بين الناس! وفعلاً وجد تهافت الناس وتسارعهم لنقل مثل هذه الخرافات بل وتصديقها!

نماذج من البحوث التي تحتاج إلى مزيد من التأصيل والدراسة

وهذه النماذج تفتقد ضابطاً أو أكثر من ضوابط البحث في الإعجاز العلمي، أو اعترض عليها بعض أهل العلم، وأنقلها هنا من وجهة نظر أصحابها باختصار وتصرف، مع تعليقات على بعضها.

انشقاق القمر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ۝١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (القمر: ١-٣).

ولقد كان كفار قريش يظنون أن كل معجزة من النبي ﷺ هو الذي يصنعها ويأتي بها، وليس الله ﷻ هو الذي يأتي بها، فأرادوا أن يتحدّوه فطلبوا منه آية سماوية. وقد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ وَفِرْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ لَنَا «اشْهَدُوا، اشْهَدُوا». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلِقَتَيْنِ فَسَرَّ الْجَبَلُ فَلِقَةً وَكَانَتْ فَلِقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». (رواه مسلم).

ردود:

هل من العقل والمنطق ألا ترى الدنيا بأسرها هذا الانشقاق! لأن القمر للدنيا كلها وليس لمكة وحدها، إن هذا حدث ضخم، وليس بالأمر الهين اليسير.

والجواب حادثة انشقاق القمر يجب أن يراها كل الناس لأن العلم اليوم أثبت بها لا يبقى لأحد أي شك في أن الأرض كروية، فإذا ثبت هذا كان لزاماً أن لا يرى كل الناس تلك الحادثة فإن الناس في الجهة المقابلة للقمر هم الذين سيرون تلك الحادثة دون غيرهم قطعاً ودون أي شك هذا بالإضافة إلى أنه ليس كل الناس كانوا متأهين وحاضرين في تلك الساعة فمنهم من هو نائم خاصة إذا علمنا أن الحادثة كانت في الليل وليس في النهار ولعدم وجود ما يجرحهم للسهر من كهرباء وغيرها كانوا ينامون مبكرين، فضلاً عن عدم وجود وسائل الإعلام كالتي نراها اليوم والتي نستطيع من خلالها إذاعة الخبر في كل الأرض.

فالأمر كان مقصوراً على بضعة من الجاحدين أرادوا تعجيز الرسول ﷺ، ثم لا يمنع من عدم رؤية جميع الناس لهذا الحدث أن الانشقاق لم يقع، فكم من الأمور التي يتلقاها الناس بالقبول مع أنهم لم يروها؛ ويكتفون بخبر من رآها دليلاً على تصديقها.

التوثيق التاريخي لانشقاق القمر:

سجل تاريخ الهند اسم ملك من ملوكهم هو: (جاكرواني فرماس) وأنه شاهد حادثة انشقاق القمر، فسجلت إحدى المخطوطات التاريخية الهندية ما يلي: «شاهد ملك ماجبار "مالابار" بالهند (جاكرواني فرماس) انشقاق القمر؛ الذي وقع لمحمد، وعلم عند استفساره عن انشقاق القمر بأن هناك نبوة عن مجيء رسول من جزيرة العرب، وحينها عين ابنه خليفة له، وانطلق لملاقاته. وقد اعتنق الإسلام على يد النبي، وعاد إلى وطنه - بناءً على توجيهات النبي - وتوفي في ميناء ظفار».

وهذه المعلومات في مخطوطة هندية محفوظة في مكتبة دائرة الهند تحتوي على عدة تفصيلات أخرى عن (جاكرواني فرماس).

الإعجاز العلمي:

في مقابلة تلفزيونية مع عالم الجيولوجيا المسلم الأستاذ الدكتور/ زغلول النجار، سأله مقدم البرنامج عن هذه الآية: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ هل فيها إعجاز قرآني علمي؟

فأجاب الدكتور زغلول قائلاً: هذه الآية لها معي قصة. فم منذ فترة كنت أحاضر في جامعة (كارديف) في غرب بريطانيا، وكان الحضور خليطاً من المسلمين وغير المسلمين، وكان هناك حوار حي للغاية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي أثناء هذا الحوار، وقف شاب من المسلمين وقال: «يا سيدي هل ترى في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟».

فأجابه الدكتور زغلول قائلاً: «لا؛ لأن الإعجاز العلمي يفسره العلم، أما المعجزات فلا يستطيع العلم أن يفسرها، فالمعجزة أمر خارق للعادة فلا تستطيع السنن أن تفسرها، وانشقاق القمر معجزة حدثت لرسول الله ﷺ تشهد له بالنبوة والرسالة، والمعجزات الحسية شهادة صدق على من رآها، ولولا ورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ما كان علينا نحن مسلمي هذا العصر أن نؤمن بها ولكننا نؤمن بها لورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ، ولأن الله تعالى قادر على كل شيء».

يقول الدكتور زغلول: «وبعد أن أتممت حديثي وقف شاب مسلم بريطاني عرف بنفسه وقال: «أنا داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني، ثم قال: «يا سيدي، هل تسمح لي بإضافة؟»، قلت له: «تفضل»، قال: «وأنا أبحث عن الأدیان- قبل أن يسلم-، أهداني أحد الطلاب المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم، فشكرته عليها وأخذتها إلى البيت، وحين فتحت هذه الترجمة، كانت أول سورة أطلع عليها سورة القمر، وقرأت: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، فقلت: هل يعقل هذا الكلام؟، هل يمكن للقمر أن ينشق ثم يلتحم، وأي قوة تستطيع عمل ذلك؟ يقول الرجل: فصدتني هذه الآية عن مواصلة القراءة، وانشغلتُ بأمور الحياة، لكن الله تعالى يعلم مدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة، فأجلسني ربي أمام التلفاز البريطاني وكان هناك حوار يدور بين معلق بريطاني وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين.

وكان هذا المذيع يعاتب هؤلاء العلماء على الإنفاق الشديد على رحلات الفضاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه الأرض بمشكلات الجوع والفقر والمرض

والتخلف، وكان يقول: «لو أن هذا المال أنفق على عمران الأرض لكان أجدى وأنفع». وجلس هؤلاء العلماء الثلاثة يدافعون عن وجهة نظرهم ويقولون: إن هذه التقنية تطبّق في نواح كثيرة في الحياة، حيث إنها تطبّق في الطب والصناعة والزراعة، فهذا المال ليس مالا مهذرا لكنه أعاننا على تطوير تقنيات متقدمة للغاية.

في خلال هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر باعتبار أنها أكثر رحلات الفضاء كلفة فقد تكلفت أكثر من مائة ألف مليون دولار، فصرخ فيهم المذيع البريطاني وقال: «أي سَفَه هذا؟ مائة ألف مليون دولار لكي تضعوا العلم الأمريكي على سطح القمر؟»، فقالوا: «لا، لم يكن الهدف وضع العلم الأمريكي فوق سطح القمر، كنا ندرس التركيب الداخلي للقمر، فوجدنا حقيقة لو أنفقنا أضعاف هذا المال لإقناع الناس بها ما صدّقنا أحد».

فقال لهم: «ما هذه الحقيقة؟»، قالوا: «هذا القمر انشق في يوم من الأيام ثم التحم». قال لهم: «كيف عرفتم ذلك؟». قالوا: «وجدنا حزاما من الصخور المتحوّلة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه، فاستشرنا علماء الأرض وعلماء الجيولوجيا، فقالوا: «لا يمكن أن يكون هذا قد حدث إلا إذا كان هذا القمر قد انشق ثم التحم». يقول الرجل المسلم (رئيس الحزب الإسلامي البريطاني): فقفزت من الكرسي الذي أجلس عليه وقلت: معجزة تحدّث لمحمد ﷺ قبل ألف وأربعمائة سنة، يسخر الله تعالى الأمريكيان لإنفاق أكثر من مائة ألف مليون دولار لإثباتها للمسلمين، لا بد أن يكون هذا الدين حقّا. يقول: فعدت إلى المصحف، وتلوت سورة القمر، وكانت مدخلي لقبول الإسلام ديناً».

تعقيب:

لا نشك أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، ولكن هل الإعجاز العلمي يثبت بهذه الطريقة؟ هل يثبت بمجرد حوار تليفزيوني قال شخص واحد أنه سمعه، ولا نعرف مدى صدق السامع أو صدق المتحاورين؟ وأين المصادر العلمية التي تثبت صحة هذا الكلام؟

أخفض منطقة على سطح الأرض:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الرُّوم: ٢-٥﴾.

تذكر المراجع التاريخية وقوع معركة بين مملكتي فارس وبين الإمبراطورية البيزنطية - وهي الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية - في منطقة بين أذرعات وبصرى قرب البحر الميت حيث انتصر فيها الفرس انتصاراً ساحقاً على الرومان، وكان ذلك سنة ٦١٩ م.

وقد خسر الروم البيزنطيون في هذه المعركة خسائر فادحة، وتوقع جميع المعاصرين لهم دماراً كاملاً للإمبراطوريتهم. لكن حدث ما لم يكن متوقعاً ففي شهر ديسمبر من عام ٦٢٧ م وقعت معركة حاسمة بين البيزنطيين وإمبراطورية الفرس بمنطقة "ناي نيفا" هزم فيها الروم الفرس. وبعد أشهر قليلة لجأ الفرس إلى إبرام اتفاقية مع بيزنطة تجبرهم على إعادة المناطق التي أخذوها منهم.

توضح المصورات الجغرافية مستوى المنخفضات الأرضية في العالم أن أخفض منطقة على سطح الأرض هي تلك المنطقة التي بقرب البحر الميت في فلسطين حيث تنخفض عن سطح البحر بعمق (٣٩٥) متراً. وقد أكدت ذلك صور وقياسات الأقمار الصناعية.

قررت هذه الآيات الكريمة حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، حيث أخبرت أن الروم خسروا المعركة مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض. وكلمة أدنى عند العرب تأتي بمعنيين أقرب وأخفض، فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ إنها تنخفض عن مستوى سطح البحر ١٣١٢ قدم (حوالي ٤٠٠ متر) وهي أخفض نقطة سجلتها الأقمار الصناعية على اليابسة، كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، والحقيقة التاريخية تشهد أن المعركة وقعت في أكثر مناطق العالم انخفاضاً في حوض البحر الميت

والتي لم تكن لتقاس في غياب تقنيات القياس الحديثة، لذلك كان من المستحيل أن يعرف أي شخص في ذلك الوقت أن هذه المنطقة هي أكثر المناطق انخفاضاً في العالم. إن الله ﷻ حدثنا في كتابه عن أخفض وأدنى بقعة في الأرض ذاكراً أنها البقعة التي وقعت فيها معركة بين الروم والفرس، فقال تعالى: ﴿الْمَ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ أين غلبت؟ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ في أدنى بقعة من الأرض تحت مستوى سطح البحر وهي المنطقة القريبة من بحيرة طبرية إحدى بقاع أغوار الأردن، والتي تنخفض عن سطح البحر ٣٩٥ م.

﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: في تلك البقعة المنخفضة. فكيف عرف محمد ﷺ ومن أخبره بذلك؟ إنه الله الذي خلق الأرض ويعلم حقائقها وأسرارها ﷻ. لقد فهم أكثر الأولين أن الأدنى هو الأقرب؛ لأن المعركة وقعت في منطقة متاخمة للجزيرة العربية، وهو فهم صحيح يحتمله النص لغةً وحدثاً إلا أن مكتسبات العلم الحديث أعطتنا معنى هو أكثر دقة في بيان دلالة اللفظ القرآني على موقع الحدث. وهو ما لم يكن من الأولين أن يدركوه في ضوء إمكاناتهم ومعارفهم.

إن أدنى الأرض أخفضها وأدناها عن مستوى سطح البحر، وهذا المعنى لم يكن معروفاً أو مكتشفاً من الناحية الجيولوجية، وعُرف حديثاً بعد أن رُصدت بقاع الأرض وأجريت الدراسات لمعرفة أعلى بقعة في العالم عن مستوى سطح البحر، وهي قمم جبال الهملايا بشرق آسيا، وأدنى نقطة في منطقة البحر الميت. وفي ضوء هذا المعنى يكون القرآن قد أخبرنا عن أدنى بقعة في الأرض وهي الأرض التي دارت فيها تلك المعركة. ويؤكد ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما فسرها بأرض الأردن وفلسطين، وهذه بعض شواهد الإعجاز في القرآن وهي كثيرة ومتجددة.

تعقيب:

١ - عند البحث عن ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما لم أجده مُسندًا إلا في تفسير "الطبري" عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾: «في طرف الشام».

وعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما، فالإسناد ضعيف.
وإن صح فإن ابن عباس رضي الله عنهما لم يقل إن الأرض التي دارت فيها تلك المعركة هي منطقة البحر الميت.

٢ - معنى الآية أن جيش الروم هُزِمَ في أقرب أرضهم إلى فارس، هذا ما ورد في كتب التفسير. وتفسير ﴿أَدْنَى﴾ في الآية بمعنى (أخفض)، لا يمكن الجزم به، فهل هذا المعنى مرادٌ من الآية؟ إذا كان نعم، فما الدليل؟ وإذا كان لا، فإن معنى هذا أن دلالة الآية على هذا الاكتشاف الذي يُقال بأنه حقيقة علمية دلالة احتمالية ظنية، وما دام دلالة احتمالية ظنية فأين مقام الإعجاز؟!

إن الإعجاز العلمي هو الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم من المعارضة الذي يتعلق ببحث قضية علمية وصل العلم فيها إلى سقف المعرفة، وكانت دلالة النص عليها دلالة ظاهرة، فاتفقت الحقيقة العلمية مع الدلالة الشرعية الظاهرة الواضحة في القرآن والسنة.

إنه لو جاز تفسير ﴿أَدْنَى﴾ بأنه (أخفض)، فإن هذا التفسير رأي واجتهاد واحتمال وظنٌّ، وليس تفسيرًا يقينياً بأن هذا المعنى مرادٌ من هذا اللفظ.

البعوضة وما فوقها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦).

ينتمي البعوض إلى رتبة الحشرات ذات الجناحين، التي تشتمل على ٣٠٠٠ نوع من البعوض. وينقل البعوض العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان، حيث تقوم بعوضة "الأنوفيلس" بنقل مرض الملاريا للإنسان في مناطق كثيرة من العالم وخاصة في إفريقيا، كما تقوم بعوضة "الكيولكس" بنقل العديد من الأمراض للإنسان مثل: الفيلاريا، حمى غرب النيل، التهاب الدماغ، كما تقوم بنقل مرض حمى الوادى المتصدع للحيوان ومنه للإنسان وأيضاً مرض اللسان الأزرق للحيوان. وتنقل بعوضة "الأيديس" مرض الحمى الصفراء خاصة في إفريقيا.

تتضمن دورة حياة البعوض أربعة أطوار: البيضة، اليرقة، العذراء والحشرة الكاملة. وتلعب الأنثى الدور الرئيس في نقل المرض للإنسان والحيوان. وتستطيع البعوضة الوصول لعوائلها عن طريق شعيرات حسية دقيقة توجد على أرجلها ورأسها. وترتبط البعوضة مع كثير من الكائنات الأكبر أو الصغر منها بعلاقات متميزة.

وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾:

إذا أخذنا معنى كلمتي ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ بأنه ما أدناها في الحجم أو ما أصغر منها، كما جاء في تفسير الطبري، فلقد وُجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات التي أصغر منها والتي تعيش داخل معدة البعوضة مثل: البكتريا، الفطريات، الفيروسات والأوليات. وجد أن بعض هذه الكائنات مفيدة وضرورية لحياة البعوضة، وبعضها ضار بها. وتساعد البكتريا الموجودة في معى البعوضة في تصنيع مضادات للفيروسات التي تهاجم البعوضة. إن السبب في قدرة البعوضة على نقل الأمراض تكمن في سر ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أى ما أصغر منها من كائنات، وهى البكتريا التي تعيش في معدة البعوضة.

إن هذه البكتريا تدافع عن البعوضة ضد المسببات المرضية المختلفة التي تدخل مع وجبة الدم التي تأخذها من إنسان أو حيوان مصاب بالمرض. تحاول البكتريا قتل المسببات المرضية ولكن إذا نجحت تلك المسببات في القضاء على

البكتريا المتعايشة مع البعوضة أو إضعافها، فإن تلك المسببات تتكاثر في العدد وتسبب الأمراض.

ولعل نتائج البحث قد كشفت عن بعض السر المعجز في التعبير القرآني ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾. إن هذه الكائنات تحمى البعوضة والشئ المعجز أنها تحمى الإنسان أيضًا عن طريق قتل المسببات المرضية التي تنتقل إليه إذا تغذت على البعوضة على دمه.

أما إذا أخذنا معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ على أنه فما فوق جسم البعوضة، فلقد وجدت كائنات دقيقة أصغر من البعوضة تعيش فوق جسمها من الخارج، تفرس البعوضة وتقتلها مثل: الحلم والفطريات. إذا أخذنا معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ بأنه ما أكبر منها في الحجم، فإننا سنجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات الأكبر منها وخاصة الإنسان والحيوان. فلقد وجد أن البعوضة تصيب الإنسان والحيوان بالعديد من الأمراض. ولكن كل المسببات المرضية التي تسبب هذه الأمراض تقع تحت التفسير الأول لمعنى بعوضة فما فوقها أى الكائنات الأصغر منها والتي سبق ذكرها.

أيضًا نجد أن البعوضة ترتبط مع معظم أفراد المملكة الحيوانية بعلاقات كثيرة. مثل الأسماك، الزواحف، البرمائيات والثدييات. ولقد عبر القرآن الكريم عن كل تلك العلاقات سواء التي بين الكائنات الأكبر من البعوضة أو الكائنات الأصغر منها (المسببات المرضية) في تعبير معجز ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾.

إن المعرفة بالبعوضة والأحياء الدقيقة دورها في نقلها وإحداث الأمراض يستحيل أن يدركها أحد قبل اكتشاف المجهر، فلم يُعرف دور البعوضة في نقل طفيل الملاريا مثلاً إلا قبيل بداية القرن العشرين، وكلمة "ملاريا" إيطالية الأصل وتعني الهواء الفاسد، وقد بقيت مستخدمة حالياً كمصطلح تاريخي يعكس الاعتقاد الخاطئ بأن المرض ينتقل للإنسان عن طرق الهواء الفاسد قبل أن يعرف دور البعوضة في نقل الطفيليات المجهرية التي تسببه، ولذا عندما يستنكر القرآن الكريم الاستهانة بالبعوضة دالاً على خطرهما ويُشرك ما فوقها ضالّةً معها في الحكم فإنه يسبق عصر

المعرفة العلمية بأكثر من عشرة قرون ويعلن أنه وحده هو كلمة الله الباقية للأمم خاصة أن دلالة العلمية تلك لا توجد في أي مدونة اليوم تنسب للوحي .

ومن عجيب البيان القرآني المعجز العدول باللفظ (بِعُوضَةٍ) والضمير (فَوْقَهَا) إلى الأفراد والتأنيث بدلا عن تغليب الذكر أو التعبير بالجمع الدال على تماثل الجنسين في الوصف، والحقيقة الراسخة أن أنثى البعوض وحدها هي التي تتغذى على الدم وتنقل الأمراض وليس للذكر أجزاء فَمَيَّة ثابتة للجلد، وهكذا يعدل القرآن باللفظ إلى صيغة تتفق مع الواقع قبل أن يكتشفها الزمان وتعاينها الأجيال، ونفي الاستحياء بدلا من الإثبات لبيان أهمية البعوضة وما يياثلها يتضمن استنكار الاستهانة بها وبيان الجهل بخطرهما عند التنزيل .

لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

جاء التحدي من الله تعالى للكافرين والمعاندين في مواطن كثيرة من كتابه تعالى، ومما تحدى الله تعالى به الكفار وآلهتهم المزعومة خلق ذبابة، أو أن يستنقذوا ما سلبه الذباب منهم، فلو اجتمع جميع ما يعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. فهم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئا من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها.

فهذه الآية الكريمة تشير إلى حقيقة علمية وهي استحالة استنقاذ ما أخذه الذباب، وهذا هو ما كشف عنه العلم الحديث في أيامنا هذه.

لقد أثبت العلم الحديث أن الذبابة تمد فمها من أسفل رأسها إلى السطح المقابل له، مكوّنة بذلك أنبوباً لامتنصاص الطعام، وإذا نظرت بدقة إلى الأنبوب الماص

لوجدت أن الطرف الملاصق لسطح الطعام متسع وكأنه مكنسة كهربائية، بعد ذلك تبدأ الذبابة بفرز عصارتها التي تمكنها من تحليل وامتصاص ولعق المواد الكربوهيدراتية وغيرها الموجودة في الطعام.

ثم تبدأ هذه المواد في التحلل إلى مواد بسيطة التركيب لمساعدتها على امتصاصها خلال الأنبوب؛ فالذباب لا يملك جهازاً هضمياً معقداً؛ لذلك يلجأ إلى الهضم الخارجي، وذلك من خلال إفراز عصارات هاضمة على المادة المراد التغذية عليها، ثم تدخل هذه المواد المهضومة خارج الجسم إلى الأنبوب الهضمي حتى يتم امتصاصها لتسير في الدورة الدموية إلى خلاياه، ويتحول جزء منها إلى طاقة تمكنه من الطيران، وجزء آخر إلى خلايا وأنسجة ومكونات عضوية، وجزء آخر إلى مخلفات يتخلص منها جسم الذباب.

فإن قام العلماء باستخراج ما يبطن الذبابة فإنه لن يكون هو نفسه الطعام الذي سلبته الذبابة؛ لأن الطعام الذي دخل في جوف الذبابة لم يعد نفسه الطعام الذي سلبته وإنما يحتاج إلى تجميع مركباته التي قد تفتت، فلهذا السبب لا نستطيع استنقاذه، والعجز يأتي من أن الطعام وحتى قبل دخوله إلى ماصة فم الذبابة طراً عليه التغيير، ولاحظ أنه لو أراد العلماء أخذ الطعام من فم الذبابة ولو من بداية دخوله الماصة، فإن ذلك لن يجدي شيئاً، وذلك أن الطعام قد تحول إلى مركبات مختلفة تماماً حتى قبل امتصاصه لذلك «لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» أبداً.

ففي الوقت الذي لا توجد فيه أبسط وسائل الاكتشاف للأمور الصغيرة والدقيقة، يأتي القرآن ليثبت أن للذباب قدرة على تحويل الطعام إلى شيء آخر وحالة مغايرة لتركيبته الأولى، وبعد هذا التغيير والتحويل فإنه يستحيل على البشر مجتمعين أن يعيدوه إلى حالته الأولى. وهذا ما أثبتته البحوث العلمية الحديثة بعد أن استخدمت في ذلك أحدث الوسائل العلمية.

وأنزلنا الحديد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥).

لم يتمكن الإنسان من معرفة حقيقة أن الحديد نزل من السماء إلى الأرض إلا بعد أن امتلك من الوسائل العلمية ما تمكن به من معرفة ما جرى ويجري في أعماق النجوم البعيدة لتكوين مادة الحديد.

وبعد أن تمكن من تحويل بعض العناصر الخفيفة إلى عناصر ثقيلة وحساب ما يحتاج إليه ذلك من طاقة، وعجزه عن تكوين مادة الحديد من مواد أخف منه إذ يتطلب ذلك طاقة تساوى أربعة أضعاف طاقة المجموعة الشمسية.

إن الدراسات العلمية تدل على أن الحديد لا يمكن أن يتشكل إلا في قلب النجوم الكبيرة ذات الحرارة العالية جداً، فتشكّل الحديد يحتاج لنجم يزيد عن كتلة الشمس بأكثر من ٢٦ ضعفاً. أي أن الحديد نزل من خارج المجموعة الشمسية ووصل إلى الأرض من خلال بلايين النيازك.

ويعتقد علماء الفلك حالياً أن النيازك والشهب ما هي إلا مقذوفات فلكية مختلفة الأحجام، وتتألف في معظمها من معدن الحديد، ولذلك كان معدن الحديد من أول المعادن التي عرّفها الإنسان على وجه الأرض، لأنه يتساقط بصورة يقيّة من السماء على شكل نيازك، يتساقط في كل عام آلاف النيازك والشهب على كوكب الأرض، التي قد يزن بعضها أحياناً عشرات الأطنان، وقد عُثِرَ على نيزك في أمريكا بلغ وزنه اثنين وستين طناً، مكوّناً من سبائك الحديد والنيكل، أما في ولاية (أريزونا) فقد أحدث نيزك فوهة ضخمة عمقها مائتا متر، وقطرها ألف متر، وقد بلغت كميات الحديد المستخرجة من شطائاه الممزوجة بالنيكل عشرات الأطنان.

وقد كان يُظن سابقاً أن الحديد الذي على الأرض نشأ من تفاعلات تمت على الأرض. ولكن أحد الباحثين قاس كمية الطاقة اللازمة لتشكيل الحديد فوجدها كبيرة جداً، مثل هذه الطاقة لا تتوفر إلا في النجوم الضخمة (التي هي أضخم بكثير من الشمس). وقد قاده هذا الأمر إلى التصريح بأن عنصر الحديد لا يمكن أن يتشكل داخل

المجموعة الشمسية أو على الأرض، بل تشكل في الفضاء بدرجات حرارة و طاقة عالية جداً ثم قُذِفَ به إلى الأرض على شكل نيازك، أي نزل إلى الأرض!!

وجه الإعجاز:

- ١- ثبت علمياً أن الحديد الموجود في الأرض نزل نزولاً من السماء.
- ٢- ثبت علمياً أن القوى الموجودة في عنصر الحديد هي قوة شديدة جداً تجمع بين المتانة والمرونة والصلابة وهي ما سماه القرآن بالبأس الشديد.

نشأة الذرية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٥-١٠).

معنى الآية:

فلينظر الإنسان المنكر للبعث مِمَّ خُلِقَ؟ ليعلم أن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من خلقه أولاً خلق من منيٍّ منصبٍّ بسرعة في الرحم، يخرج من بين صلب الرجل وصدر المرأة.

هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب تحثنا على النظر في الإنسان الذي خلق من هذا الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب، وسبب تدفقه هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني.

تقول الآية الكريمة إن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب، وهذا الماء (المني) إنما يتكون في الخصية وملحقاتها، كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأة، فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية؟

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائب، والصلب هو العمود الفقري والترائب هي الأضلاع، وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط أي بين الصلب والترائب، ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن (خارج تجويف البطن) في أواخر الشهر السابع من الحمل بينما ينزل

المبيض إلى حوض المرأة، ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللف تبقى من حيث أصلها أي من بين الصلب والترائب.

فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأهر (الأورطي البطني) من بين الصلب والترائب، كما أن وريد الخصية يصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب، كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو للمبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب، وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب، فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب؟

فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب، كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب، والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم تقل من الصلب والترائب، فكلمة «بَيْنَ» ليست بلاغية فحسب وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية.

والعلم الحديث يقرر أن الماء الذي لا يُقذف ولا يندفع وإنما يسيل إنما هو إفرازات المهبل وغدد بارثولين المتصلة به وأن هذه الإفرازات ليس لها دخل في تكوين الجنين وإنما وظيفتها ترطيب المهبل.

ولكن العلم الحديث يكشف شيئاً مذهلاً؛ أن الحيوانات المنوية يحملها ماء دافق هو ماء المنى، كذلك البويضة في المبيض تكون في حويصلة "جراف" محاطة بالماء فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء، وتلقفت أهداب البوق البويضة لتُدخلها إلى قناة الرحم حيث تلتقي بالحيوان المنوي لتكوّن النطفة الأمشاج. هذا الماء يحمل البويضة تماماً كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية، كلاهما يتدفق، وكلاهما يخرج من بين الصلب والترائب: من الغدة التناسلية؛ الخصية أو المبيض.

وتتضح مرة أخرى معاني الآية الكريمة في إعجازها العلمي الرائع: ماء دافق من الخصية يحمل الحيوانات المنوية، وماء دافق من حويصلة جراف بالمبيض يحمل البويضة.

إخبار القرآن عن الظلمات الثلاث:

أثبت علم الأجنة أن الجنين يُحفظُ في بطن أمه من وصول النور إليه بواسطة أغشية ثلاثة وتُشكل هذه الأغشية الثلاثة ثلاث طبقات مظلمة تمنع وصول النور إلى الجنين. هذه الأغشية عُرِفَت بواسطة أجهزة مخبرية متطورة، وهذه الأجهزة لم تكن في زمن النبي ﷺ، ولا حتى قبل مائة عام لم تكن هذه الأشياء معروفة وقد قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر: ٦).

فهناك ما يسمى بالخلايا المغذية التي تأخذ على عاتقها تأمين الغذاء والهواء لحصول الحمل، ثم يتشكل منها ملحقات الجنين والتي منها:

- هذه الأغشية الثلاثة التي تحيط ببعضها وهي من الداخل إلى الخارج.
- الغشاء الأمنوسي: وهو يحيط بالجوف الأمنوسي المملوء بالسائل الأمنوسي، الذي يسبح فيه الجنين بشكل حر.
- الغشاء الكوريوني: الذي تصدر عنه الزغابات الكوريونية التي تنغرس في مخاطية الرحم.
- الغشاء الساقط: وهو عبارة عن مخاطية الرحم السطحية بعد عملية التعشيش ونمو محصول الحمل، وسمي بالساقط لأنه يسقط مع الجنين عند الولادة.

البرزخ المائي بين البحرين:

قال تعالى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) يَبْتَغِيَانِ الْيَقِينِ (٢٠) فَيَأْتِيَا إِتَّافًا (٢١) فَتَلْقَاهُمَا نَارٌ مُّهِيبَةٌ (٢٢)﴾ (الرحمن: ١٩-٢٢). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ (النمل: ٦١).

لقد توصل علماء البحار بعد تقدم العلوم في هذا العصر، إلى اكتشاف الحاجز بين البحرين، فوجدوا أن هناك برزخاً يفصل بين كل بحرين، ويتحرك بينهما ويسميه علماء البحار الجبهة تشبيهاً له بالجبهة التي تفصل بين جيشين.

وبوجود هذا البرزخ يحافظ كل بحر على خصائصه التي قدرها الله لأله، ويكون مناسباً لما فيه من كائنات حية تعيش في تلك البيئة. ومع وجود هذا البرزخ فإن البحرين المتجاورين يختلطان اختلاطاً بطيئاً، يجعل القدر الذي يعبر من بحر إلى بحر آخر يكتسب خصائص البحر الذي ينتقل إليه عن طريق البرزخ الذي يقوم بعملية التقلب للمياه العابرة من بحرٍ إلى بحرٍ؛ ليبقى كل بحرٍ محافظاً على خصائصه.

تدرُّج العلم البشري لمعرفة حقائق اختلاف مياه البحار وما بينها من حواجز:

اكتشف علماء البحار أن هناك اختلافاً بين عينات مائية أخذت من البحار المختلفة في عام ١٢٨٤هـ - ١٨٧٣م على يد البعثة العلمية البحرية الإنجليزية في رحلة "تشانجر"، فعرف الإنسان أن المياه في البحار تختلف في تركيبها عن بعضها البعض من حيث درجة الملوحة، ودرجة الحرارة، ومقادير الكثافة، وأنواع الأحياء المائية، ولقد كان اكتشاف هذه المعلومة بعد رحلة علمية استمرت ثلاثة أعوام، جابت جميع بحار العالم.

وقد جمعت الرحلة معلومات من ٣٦٢ محطة مخصصة لدراسة خصائص المحيطات. وملأت تقارير الرحلة ٢٩٥٠٠ صفحة في خمسين مجلداً استغرق إكمالها ٢٣ عاماً. وبالإضافة إلى كَوْن الرحلة أحد أعظم منجزات الاستكشاف العلمي فإنها قد أظهرت كذلك ضآلة ما كان يعرفه الإنسان عن البحر.

وبعد عام ١٩٣٣م قامت رحلة علمية أمريكية في خليج المكسيك، ونشرت مئات المحطات البحرية، لدراسة خصائص البحار، فوجدت أن عدداً كبيراً من هذه المحطات تعطي معلومات موحدة عن خصائص الماء في تلك المنطقة، من حيث الملوحة والكثافة والحرارة والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأكسجين في الماء، بينما أعطت بقية المحطات معلومات موحدة أخرى عن مناطق أخرى، مما جعل علماء

البحار يستنبطون وجود بحرين متميزين في الصفات لا مجرد عينات محدودة كما عُلِمَ من رحلة "تشالنجر".

وأقام الإنسان مئات المحطات البحرية لدراسة خصائص البحار المختلفة، فقرر العلماء أن الاختلاف في هذه الخصائص يميّز مياه البحار المختلفة بعضها عن بعض، لكن لماذا لا تمتزج البحار وتتجانس رغم تأثير قوتي المد والجزر التي تحرك مياه البحار مرتين كل يوم، وتجعل البحار في حالة ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، إلى جانب العوامل الأخرى التي تجعل مياه البحر متحركة مضطربة على الدوام مثل الموجات السطحية والداخلية والتيارات المائية والبحرية؟

ولأول مرة يظهر الجواب على صفحات الكتب العلمية في عام ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م. فقد أسفرت الدراسات الواسعة لخصائص البحار عن اكتشاف حواجز مائية تفصل بين البحار الملتقية، وتحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث الكثافة والملوحة، والأحياء المائية، والحرارة، وقابلية ذوبان الأوكسجين في الماء. وبعد عام ١٩٦٢م عرف دور الحواجز البحرية في تهذيب خصائص الكتل العابرة من بحر إلى بحر لمنع طغيان أحد البحرين على الآخر فيحدث الاختلاط بين البحار المالحة، مع محافظة كل بحر على خصائصه وحدوده المحدودة بوجود تلك الحواجز.

وأخيراً تمكن الإنسان من تصوير هذه الحواجز المتحركة المتعرجة بين البحار المالحة عن طريق تقنية خاصة بالتصوير الحراري بواسطة الأقمار الصناعية، والتي تبين أن مياه البحار وإن بدت جسماً واحداً، إلا أن هناك فروقاً كبيرة بين الكتل المائية للبحار المختلفة، تظهر بألوان مختلفة تبعاً لاختلافها في درجة الحرارة.

وفي دراسة ميدانية للمقارنة بين مياه خليج عُمان والخليج العربي بالأرقام والحسابات والتحليل الكيميائي، تبين اختلاف كل منهما عن الآخر من الناحية الكيميائية والنباتات السائدة في كل منهما ووجود البرزخ الحاجز بينهما.

وقد تطلب الوصول إلى حقيقة وجود الحواجز بين الكتل البحرية، وعملها في حفظ خصائص كل بحر قرابة مائة عام من البحث والدراسة، اشترك فيها مئات من

الباحثين، واستخدم فيها الكثير من الأجهزة ووسائل البحث العلمي الدقيقة. بينما جلى القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً.

أوجه الإعجاز في الآيات السابقة: مما سبق يتبين:

أ- أن القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة قد تضمن معلومات دقيقة عن ظواهر بحرية لم تكتشف إلا حديثاً بواسطة الأجهزة المتطورة، ومن هذه المعلومات وجود حواجز مائية بين البحار، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩ - ٢٠).

ب- يشهد التطور التاريخي في سير علوم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار وبخاصة قبل رحلة "تشانجر" عام ١٨٧٣م فضلاً عن وقت نزول القرآن قبل ألف وأربعمائة سنة، والذي نزل على نبي أمي عاش في بيئة صحراوية ولم يركب البحر.

ج- إن علوم البحار لم تتقدم إلا في القرنين الأخيرين وخاصة في النصف الأخير من القرن العشرين. وقبل ذلك كان البحر مجهولاً مخيفاً تكثر عنه الأساطير والخرافات، وكل ما يهتم به راكبوه هو السلامة والاهتداء إلى الطريق الصحيح أثناء رحلاتهم الطويلة، وما عرف الإنسان أن البحار المالحة بحار مختلفة إلا في الثلاثينات من القرن العشرين، بعد أن أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعد ذلك أن البحار المالحة متنوعة.

د- وما عرف الإنسان البرزخ الذي يفصل بين البحار المالحة، إلا بعد أن أقام محطات الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضى وقتاً طويلاً في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، التي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام.

هـ- وما عرف الإنسان أن مائي البحرين منفصلان عن بعضهما بالحاجز المائي، ومختلطان في نفس الوقت إلا بعد أن عكف يدرس بأجهزته وسفنه حركة المياه في مناطق الالتقاء بين البحار، وقام بتحليل تلك الكتل المائية في تلك المناطق.

و- وما قرر الإنسان هذه القاعدة على كل البحار التي تلتقي إلا بعد استقصاء ومسح علمي واسع لهذه الظاهرة التي تحدث بين كل بحرين في كل بحار الأرض.

• فهل كان رسول الله ﷺ يملك تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبع حركة الكتل المائية المتنوعة؟

• وهل قام بعملية مسح شاملة، وهو الذي لم يركب البحر قط، وعاش في زمن كانت الأساطير هي الغالبة على تفكير الإنسان وخاصة في ميدان البحار؟

• وهل تيسر لرسول الله ﷺ في زمنه من أبحاث وآلات ودراسات ما تيسر لعلماء البحار في عصرنا الذين اكتشفوا تلك الأسرار بالبحث والدراسة؟

• إن هذا العلم الذي نزل به القرآن يتضمن وصفًا لأدق الأسرار في زمنٍ يستحيل على البشر فيه معرفتها، وهذا يدل على مصدره الإلهي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦).

• كما يدل على أن الذي أنزل عليه الكتاب رسول يوحى إليه وصدق الله القائل ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

إخبار القرآن عن أمواج البحر اللجي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَنتِ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٣٩ - ٤٠).

هذان مثالان، ضربهما الله ﷻ لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها فقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ببرهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ﴾ أي: بقاع، لا شجر فيه ولا نبت.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسابان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تُرى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضًا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمان للماء، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا.

والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ لم يخف عليه من عمله نقيير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلا ولا كثيرا، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقية، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار ﴿كَظُلُمَنتِ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوّه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدلّمة،

ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا، بحيث أن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ، لَمْ يَكْدِيرْهَا﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها.

كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون.

وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ لأن نفسه ظلمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطاه مولاها، ومنحها ربها. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين.

ظلمات البحار:

ظلمات البحار مكان كان يستحيل لأي إنسان في زمن النبي محمد ﷺ أن يصل إليها أبدًا، لأن الإنسان لا يحتمل جسمه أن يغوص في الماء سوى إلى ٣٠ متر، ومن المستحيل أن يصل الإنسان بجسمه إلى عمق ١٠٠ متر أو ٢٠٠ متر، كما في هذا الأمر، لقد أخبرنا القرآن عن ظاهرة يبدأ ظهورها بعد ٢٠٠ متر، وبالطبع النبي ﷺ ما ركب بحرًا أصلاً.

ومجتمع النبي ﷺ هو مجتمع صحراوي، فيخبرنا القرآن عن ظلمات توجد في أعماق البحار، في البحار العميقة وليست البحار السطحية، ولم تكتشف هذه الظلمات ولم تكتشف أسبابها إلا برحلة طويلة جدًّا من البحث العلمي حتى تكاملت الاكتشافات فتقدمت الصورة فوجد علماء البحار أن هناك ظلامًا شديدًا على بعد ٣٠٠ متر - ٥٠٠ متر، ويشد كلما نزلنا إلى أسفل لدرجة أن الغواصة إذا نزلت لا بد أن يكون معها آلات إنارة، بل والأسماك التي تعيش في هذه المناطق لا بد أن يكون لها كشاف تحت كل عين من عيونها تكشف لها كشافات، أو تكون عمياء لأنه ليس هناك ضوء، يقول

الله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ (النور: ٤٠) يُشَبَّه الظلمات التي يعيش فيها الكافر بظلمات في بحر عميق، انظر كيف قال ﴿بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ولم يقل أي بحر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ أي عميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ يغشاه يعني يغطيه.

كيف يغطيه وفوقه موج؟ الظاهر أن الموج هو الغطاء، وهذا يدل على وجود بحر ثانٍ فيه موج، وعندئذ نعرف من هذا الوصف القرآني أن هناك بحر عميق وبحر سطحي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ البحر اللجي ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعني يغطيه موج ﴿مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ يعني فوقه البحر السطحي وفيه موج ﴿مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ يَرْنَهَا﴾ (النور: ٤٠)

أسباب هذه الظلمات في أعماق البحار ترجع إلى سببين رئيسين:

الأول: العمق لأن الشعاع الضوئي يتكون من سبعة ألوان، والألوان عندما تخترق الماء لا تخترقه بقوة واحدة بحسب اختلاف طول الموجة، ولذلك يمتص اللون الأحمر على مسافة العشرين متر الأولى، بعدها لو أن غواصاً يغوص وجرح وخرج منه دم وأراد أن يرى الدم لا يراه باللون الأحمر بل يراه باللون الأسود، لماذا؟

لأن اللون الأحمر انعدم فأصبحت هناك ظلمة اللون الأحمر، ثم بعد ذلك يمتص اللون البرتقالي على مسافة ٣٠ متر، ثم يمتص اللون الأصفر على مسافة ٥٠ متر، ثم يمتص اللون الأخضر على مسافة ١٠٠ متر، وهكذا بقية الألوان السبعة، آخر لون يمتص الأزرق ولذلك نرى البحر أزرق لأنه آخر شعاع يمتص، وبعد هذا العمق نصل إلى ٢٠٠ متر، ثم نصل إلى منطقة الظلام الشديد، هذه الظلمات ظلمات بعضها فوق بعض.

السبب الثاني: ظلمات الحواجز فالموج الداخلي الذي يغطي البحر العميق، لم يتمكن الإنسان من أن يعرف الظلمات إلا بعد عام ١٩٣٣ ميلادية لما بدأ صناعة الغواصات، فالموج الداخلي، والموج السطحي، والسحاب، كلها حواجز تمنع مرور

الشعاع الضوئي إلى أسفل، فإذا وقفت على شاطئ البحر فسترى الأمواج تنعكس منها الأشعة إلى عينيك وكأنها مرآة، تعكس هذا، وهذا يدل على مقدار ما عكست الأمواج من الأشعة، فأحدثت ظلمة، والموج الداخلي يعكس معظم ما بقي من أشعة، ولذلك يأتي بعد الموج الداخلي المنحدر الحراري، انحدار واسع في درجة حرارة الماء.

إذن هذه الظلمات موجودة، وسببها الأعماق، والحواجز، وتركيبها بعضها فوق بعض، انظر إلى هذا الوصف القرآني ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ فنسب الظلمات إلى عمق البحر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ﴾ ظلمات مرة ثانية جاء ذكرها بعد ذكر الحواجز، فكأنه يقول لنا: هذه الظلمات سببها الأعماق وسببها الحواجز، ثم يستعمل لفظ ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ الذي هو من جموع القلة وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، فأنت تقول ظلمة وظلمتان وثلاث.

هنا إشارة إلى عشر ظلمات.

فالآية تكلمنا ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهي جموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، سبعة للألوان وثلاثة للحواجز، ثم يستعمل لفظاً آخر فعل المقاربة قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾.

﴿لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾ كاد من أفعال المقاربة ونفيها يعني نفي وقوع الفعل ألبته أو مقاربة النفي، والمفسرون قالوا: هذا له معنيان. قالوا: ﴿لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾ أي يراها بصعوبة وآخرون قالوا: لا يراها ألبته، فاستعمل هذا التعبير الذي يدل على المعنيين، وهذا ما يحدث في البحر ففي الطبقات التي مازال فيها شيء من ضوء لا ترى يدك إلا بصعوبة لكن إذا نظرت إلى أسفل لا تراها أبداً.

هذه الآيات قيلت للاستشهاد على حال الكافر الذي لا يرى أنوار الهداية، فحاله ظلمات بعضها فوق بعض، إذن فقلب الكافر لا يعرف مَنْ خلقه، لا يعرف لماذا خُلِقَ، لا يعرف لماذا يموت، لا يعرف ما الحق الذي يجب أن يفعله، ولا الباطل الذي يجب أن يجتنبه، ظلمات تراكمت فشبهها بحال تلك الظلمات.

الدلالة العلمية للآية الكريمة:

تشير هذه الآية الكريمة إلى الظلمة التامة فوق قيعان البحار العميقة والمحيطات، مؤكدة أنها ظلمة مركبة، لكل من السحب، والأمواج السطحية، والأمواج الداخلية دوراً أساسياً في إحداثها، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

وجه الإعجاز:

لقد أثبت القرآن وجود ظلمات في البحر العميق، وقيد وصف البحر بلفظ «لُجِّي» ليعلم قارئ القرآن أن هذه الظلمات لا تكون إلا في بحر لجي أي عميق، ويخرج بهذا القيد البحر السطحي الذي لا توجد فيه هذه الظلمات.

وقد بين أهل اللغة والتفسير معنى لفظ «لُجِّي» فقالوا إنه البحر العميق الذي لا يدرك قعره. وهذه الظلمات تتكون بسبب العمق في البحر اللجي، وهي ظلمات الأعماق.

القرآن يُخبر عن قلة الأوكسجين في طبقات الجو العليا:

أشار القرآن الكريم إلى حقيقة علمية لم يكتشفها البشر إلا حين أمكن له أن يرتقي في الجو إلى الطبقات العليا، وهي قلة الأوكسجين في تلك الطبقات حيث يتركز حوالي نصف كتلة الهواء الجوي في الستة كيلومترات الأولى فوق الأرض، بينما يتشر النصف الآخر في الطبقات التي تعلو ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

تبين هذه الآية الكريمة أن من أراد الله هدايته شرح صدره للإسلام فاطمأن به قلبه واستنارت له نفسه، وأن من أراد به الضلال - وفق مشيئته - ضاق صدره عن قبول الإيمان وانغلق انغلاقاً تاماً حتى لا يجد الخير حينئذ مسلكاً إلى قلبه، وقد شبه المولى - سبحانه - ضيق صدر هذا البائس بضيق صدر الذي يتصاعد في السماء بتناقص قدرته على التنفس الطبيعي درجة بعد درجة، وذلك لانخفاض الضغط الجزئي للأكسجين في طبقات الجو العليا حتى يصل الضيق إلى أشد مراحل وهو مرحلة الحرج والتي لا يستطيع بعدها الأكسجين أن ينفذ إلى دمه، وهو تشبيه بليغ شبهت فيه الحالة المعنوية بحالة حسية، أدركت حقائقها وشوهدت كيفياتها اليقينية في هذا الزمان ولم تكن معلومة للبشر وقت التنزيل.

إن الله تبارك وتعالى أخبر أنه يجعل صدر الكافر الذي كتب الله عليه الضلالة «ضَيِّقًا حَرَجًا» وهذه صورة معقولة يفهمها السامع ثم شبهها بصورة متخيلة ولكنها معقولة وهي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾، والتصعد أو الصعود إلى السماء هو الصعود إلى العلو، والمخاطبون بهذا القرآن ابتداء هم أهل مكة.

وإدراك هذا التشبيه أمر ممكن وميسور لهم بسبب طبيعة بلدهم الجبلية، فإن الصاعد في الجبل كلما ارتفع كلما ضاق صدره وصعب تنفسه وزادت ضربات قلبه، لكن هل كان أهل مكة يدركون سر هذا الضيق والحرج عند صعود الجبال وأن ذلك بسبب نقص الأكسجين؟ بالتأكيد لا.

فلما ظهرت الكشوف العلمية وتبين أن حياة الإنسان تتوقف على وجود غاز الأكسجين في الهواء، وأن الإنسان كلما ارتفع إلى طبقات الجو العليا كلما قل غاز الأكسجين ويصبح تنفس الإنسان بصعوبة حتى يصل إلى مرحلة ينعدم فيه الأكسجين ومن ثم يحصل الاختناق. وبهذا تبين أن الآية تخفي في ثناياها دلالة على آية كونية لم تكن

معروفة للإنسان وهي شاهد على صدق هذا القرآن وأنه من عند الله تعالى الذي أتقن كل شيء.

إن هذه الآية الكريمة تقدم معجزة من وجوه عدة، فهي تعرض حقيقة علمية ثابتة بأسلوب بلاغي دقيق، ومن وجوه هذا الإعجاز:

أ- صعود الإنسان في السماء، فيوم أن سمع الناس بهذه الآية اعتبروا الصعود في السماء ضرباً من الخيال، وأن القرآن إنما قصد الصعود مجازاً لا حقيقة، والواقع أن هذه الآية تعتبر نبوءة تحققت، في حياة الناس فيما بعد.

ب- صحة التشبيه: فالارتفاع في الجو لمسافة عالية يسبب ضيقاً في التنفس وشعوراً بالاختناق يزيد كلما زاد الارتفاع «يَصْعَدُ»، حتى يصل الضيق إلى درجة حرجية وصعبة جداً.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق: ١١). جاء القسم بالسماء، وبصفة خاصة من صفاتها، وهي أنها (ذات الرجوع). وفي ذلك قال قدامى المفسرين: تُمْطَرُ ثُمَّ تُمْطَرُ. أي: ترجع السماء بالمطر كل عام.

ومع تسليمنا بصحة هذا الاستنتاج يبقى السؤال المنطقي: إذا كان المقصود بالتعبير (رجع السماء) هو المطر فقط، فلماذا فضل القرآن الكريم لفظة الرجوع على لفظة المطر؟ ولماذا لم يأت القسم القرآني بهذا التعبير: (والسماء ذات المطر) بدلاً من: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق: ١١).

إن من معاني (الرجع) هنا: الارتداد، أي أن من الصفات البارزة في سمائنا أنها ذات رجوع أي ذات ارتداد، بمعنى أن كثيراً مما يرتفع إليها من الأرض تردّه إلى الأرض ثانية، وأن كثيراً مما يهبط عليها من أجزاءها العليا يرتد ثانية منها إلى المصدر الذي هبط عليها منه، فالرجع صفة من صفات السماء، أودعها فيها خالق الكون ومبدعه، فلولاها

ما استقامت على الأرض حياة، ومن هنا كان القسم القرآني بها تعظيماً لشأنها، وتنبهاً لنا للحكمة من إيجادها وتحقيقها.

رجع السماء في ضوء العلوم الحديثة:

في العقود المتأخرة من القرن العشرين كشف العلم عن صور أخرى لرجع السماء، وعلى ذلك فإن وصف السماء بأنها ﴿ذَاتُ الرُّجْعِ﴾ في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نعرفها اليوم، وربما العديد من الصور التي لم نعرفها بعد، وكل هذا في كلمة واحدة وهي (الرجع)، وهذه الكلمة الجامعة هي شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق.

لقد كشف العلم اليوم عن عدد من صور الرجع في السماء، ومنها:

- ١ - يقوم الغلاف الجوي بإرجاع الماء المتبخر بهيئة أمطار.
- ٢ - يُرجع الغلاف الجوي للأرض كثير من النيازك ويردها للفضاء الخارجي.
- ٣ - يرد الغلاف الجوي الإشعاعات القاتلة للأحياء ويدفعها بعيداً عن الأرض.

٤ - يعكس الغلاف الجوي موجات الراديو القصيرة والمتوسطة إلى الأرض، ولذا يمكن اعتبار الجو أشبه بمرآة عاكسة للأشعة والموجات الكهرومغناطيسية، فهو يعكس أو يرجع ما يث إليه من الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية التي ترتد إذا أرسلت إليها بعد انعكاسها على الطبقات العليا الأيونية (الأيونوسفير) وهذا هو أساس عمل أجهزة البث الإذاعي والتلفزيوني عبر أرجاء الكرة الأرضية.

٥ - الغلاف الجوي أشبه بمرآة عاكسة للحرارة فيعمل كدرع واقية من حرارة الشمس أثناء النهار كما يعمل كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت، ولو اختل هذا التوازن لاستحالت الحياة على الأرض إما من شدة الحرارة نهارة أو شدة البرودة ليلاً.

وجه الإعجاز:

تشير الآية القرآنية الكريمة إلى أن أهم صفة للسماء المحيطة بالأرض هي أنها ذات رجوع وقد فهم القدامى أنها تشير إلى المطر فحسب، وجاء العلم الحديث ليعمق معنى الإرجاع في وصف الجو ليشمل مظاهر عديدة لم يكن يعلمها بشر من قبل، وكلمة الرجوع تأتي بمعنى الإرجاع أو الإعادة إلى ما كان منه البدء، فمعناها رد الشيء وإرجاعه في اتجاه مصدره مثل صدى الصوت، والسماء هنا تعني جو الأرض، والتعبير يفيد وجود غلاف يحيط بها يرد إليها كل نافع ويرد عنها كل ضار فتيين أن لفظة الرجوع لها من الدلالات ما يفوق مجرد نزول المطر وأنه بغير تلك الصفة للجو ما استقامت علي الأرض حياة، وبهذا أجمل القرآن الكريم بلفظة واحدة كل ما كشفه العلم الحديث من خصائص الجو.

وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق: ١٢).

الصَّدْعُ الشَّقُّ فِي الشَّيْءِ الصُّلْبِ كَالزُّجَاجَةِ وَالْحَائِطِ وَغَيْرِهِمَا.

من المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشقاقها عنه، ولكن لما كانت لفظة الأرض قد جاءت في القرآن الكريم بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعنى كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعنى كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع قد تكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

الصدع لغة هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة. وتربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة رقاقات متبادلة من كل من السيليكا

(ثاني أكسيد السيليكون) والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم) مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راقٍ على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية، والمواد الغروية لها قدرة الانتشار في غيرها من المواد نظرًا لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر، ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريّها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقعة شديدة فتتشق لتُفسح طريقًا سهلاً لكل من الجُذير المندفع إلى أسفل، والسُوَيْقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام.

وتظهر على سطح الأرض مستمرةً في النمو لتغطي باقي أجزاء النبات. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريّها ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهًا من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض وجعلها صالحة للحياة.

ثانيًا: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط تتكسر تلك الصخور بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق.

كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط على الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد فتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر، وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد وأغلبها قليل العمق. وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرّد الصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتراوح أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً، فمنها ما لا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه تدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه مبلغاً عظيماً.

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصر اللازمة لتجديد صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من التواءات والخصوف الأرضية، والينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض، وما يستتبعه ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء، فتبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبني الأحواض، والأغوار، والخصوف الأرضية.

ثالثاً: تصدع الأرض ككوكب بواسطة أودية الخسف:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف (الصدوع العملاقة) على سطح الأرض منذ زمن بعيد إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة (الصدوع العملاقة) التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس.

وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ و ٧٠ كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين ١٠٠ و ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لَدْن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية المهمة التي منها اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجددُ صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكوّن سلاسل من جبال أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تكوّن السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلي القارتين المقابلتين له، وتُصاحَب العمليتان بالهزات الأرضية وبكَم هائل من الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من ٦٤٠٠٠ كيلومتر، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة.

ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذا الصدع العملاق (الوادي الخسيف) في وسط سلسلة الجبال البحرية يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من

الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخفيف، ويهبط قاع المحيط بنصف معدل اتساع قاعه عند كل من شاطئيه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطيتين به.

وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يُستهلك قاعُ محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية، وتكونت سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة (إفرست) أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة (الأودية الخسيفة) التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ و ١٥٠ كيلومترا، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزقة عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع العملاقة تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض والناجمة عن تحليل العناصر المشعة، ولولاها لانفجرت الأرض.

وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصحارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية.

وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تنطلق لتجددهما، وخلال تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها، وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل

المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا، ودرجة حرارة لهبها ١٥ مليون درجة مئوية، ولا تزيد فيتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت من عقال جاذبيتها فتضيع في فسحة الكون الشاسع، ليس هذا فقط، بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكون أيضًا عبر تلك الصدوع العملاقة، وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكونًا من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وإن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه، ارتفعت قممها لتكوّن عددًا من الجزر البركانية.

ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادمت مع بعضها البعض لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم التي ما لبثت أن تفتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأُثِرَت تلك القشرة ولا تزال تُثَرَى بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما، واثارت البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والصخور وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تحتزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها (مثل البحر الأحمر) توجد أيضًا على اليابسة وتعمل على تكوين بحار طويلة شبيهة بالبحر الأحمر لتفتت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات.

وتحاط تلك الصدوع القارية العملاقة بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل آارات في شرق تركيا (٥١٠٠ م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان "أتنا" في شمال شرقي صقلية (٣٣٠ م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان "فيزوف" في خليج نابلي بإيطاليا (١٣٠٠ م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل "كيليمينجارو" في "تنجانيقا" (٥٩٠٠ م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل "كينيا" في جمهورية "كينيا" (٥١٠٠ م فوق مستوى سطح البحر).

وجه الإعجاز:

تعتبر الصدوع التي تقطع القشرة الصخرية الخارجية من الأرض لعشرات الآلاف من الكيلومترات، وفي جميع الاتجاهات، ولأعماق تصل إلى ما بين ٦٥ إلى ١٥٠ كم من أبرز علامات الكرة الأرضية، ولم تكتشف هذه الصدوع إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتم شرحها من خلال نظرية الألواح التكتونية التي تمت صياغتها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ و ١٥٠ كيلومترا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد.

وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدّها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة ولل عمران، لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض،

ولا يزالان يتجددان، وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكوّنت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارَت البراكين لتخرج قدرًا من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال.

وهنا نرى في صدوع الأرض أبعادًا ثلاثة: بعد لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعد آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعد ثالث في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساسًا في قيعان المحيطات. كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين ٦٥ كيلومترًا، و ١٥٠ كيلومترًا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطةً كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران.

ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك شيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقِل أن يتصور مصدرًا لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم، الذي أوحى إليه القرآن، كان دومًا موصولًا بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض.

المادة وقرين المادة:

نحن نعلم أن العزيز الحكيم ﷻ خلق الإنسان وجعل منه زوجين ذكراً وأنثى ولم يقتصر هذا النظام على الإنسان فقط بل تعداه ليشمل مملكة الحيوان فقد جاء فيهما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ﴾ (٤٥) من نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (النجم: ٤٥ - ٤٦)، وكذلك مملكة النبات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣)، فالإنسان والشجر الأكبر من فصائل الحيوان والنبات خلقوا جميعاً في صورة الذكر والأنثى، هذا ما يخبرنا به القرآن وهو ما تعلمناه في علوم الأحياء.

وبالإضافة إلى ذلك نرى في الآية التالية شمولاً أكبر وأعم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩). فكلية "شئ" هنا فمهما من قبلنا ويفهمها أكثرنا على أنها تشمل الإنسان والحيوان والنبات فقد جمع القرآن ذكرهم في هذه الآية وأخبرنا بأنه جعل من كل المخلوقات الحية زوجين. وقد يكون الأمر كذلك، ولكننا إذا أمعنا النظر لوجدنا أن كلمة "شئ" فيها شمول أكثر من النبات والحيوان والإنسان، أنها تشمل الجماد أيضاً. فهل في الجماد زوجان؟ من أجل الإجابة على هذا السؤال نحتاج لنزهة قصيرة في فيزياء الجسيمات.

في النصف الأول من القرن العشرين كان أحد الفيزيائيين الإنجليز - واسمه "ديراك" - يقوم بأبحاث على معادلات الإلكترونات، والإلكترونات هي الجسيمات السالبة الشحنة التي تدور حول نواة الذرة، وفي أثناء قيامه بهذه الأبحاث اكتشف أن المعادلات لها حلّين وليس حل واحد. وأي واحد منا تعامل مع معادلات الدرجة الثانية يستطيع أن يدرك بسهولة هذا الموقف. فمعادلات الدرجة الثانية تحتوي على مربع كمية مجهولة، والكمية المربعة دائماً موجبة، فحاصل ضرب 2×2 يعطى ٤ كذلك حاصل ضرب 2×-2 يعطى أيضاً نفس النتيجة. ومعنى ذلك أن الجذر التربيعي لـ ٤ هو إما ٢ أو -٢. وقد كانت معادلات ديراك أكثر تعقيداً من هذا المثال ولكن المبدأ

هو نفسه، فقد حصل على مجموعتين من المعادلات إحداهما للإلكترونات السالبة الشحنة والأخرى لجسم مجهول ذو شحنة موجبة.

وقد قام "ديراك" ببعض المحاولات غير الناجحة لتفسير سر هذا الجسيم المجهول، فقد كان يؤمن بوجوده، ولكن الفيزيائيين تجاهلوا بعد ذلك فكرة وجود جسيم موجب الشحنة ممكن أن يكون قريناً للإلكترونات تماماً كما يتجاهل المهندس الذي يتعامل مع معادلات الدرجة الثانية الحلول التي تعطى أطوالاً أو كتلاً سالبة.

وبعد عدة سنوات من أعمال "ديراك" النظرية وفي أوائل الثلاثينات اكتشف آثار هذا الجسيم المجهول في جهاز يسمى بغرفة الضباب، وعند دراسة تأثير المجال المغناطيسي على هذه الآثار اكتشف أن كتلة ذلك الجسيم تساوي كتلة الإلكترون وأنه يحمل شحنة موجبة ومساوية لشحنة الإلكترون وعندئذ سمي هذا الجسيم بـ "قرين الإلكترون" أو "البوزترون"؛ ومن ثم بدأ البحث عن قرائن الجسيمات الأخرى فمعنى وجود قرين للإلكترون وجود قرائن للجسيمات الأخرى، وفعلاً بدأ اكتشاف هذه القرائن الواحد يلي الآخر وبدأ تقسيمها إلى أنواع لن ندخل في تفاصيلها وسوف نكتفي بذكر نتيجتها النهائية وهي وجود قرين لكل جسيم بل ولكل جسم.

واكتشاف قرين المادة يخبرنا باحتمال وجود عالم آخر ينظر عالمنا المادي ويتكون من قرائن الجسيمات أي من قرين المادة. أي هو هذا العالم الذي يتكون من قرين المادة؟ هذا هو السؤال الذي لم يستطع أحد الإجابة عليه، فالأرض تتكون أساساً من مادة وليس من قرائن المادة، أما قرائن المادة التي يتم إنتاجها في "الأشعة الكونية" أو في "معجلات الجسيمات" لا تعيش مدة طويلة في الأجواء الأرضية، فبمجرد أن تنخفض سرعتها بعض الشيء تحتم عليها أن تواجه مصيرها المؤلم الذي لا تستطيع الفرار منه وهو المَحَقُّ أو الإبادة بواسطة المادة المقابلة لها التي تملأ أجواء الأرض. فعندما يتقابل الجسيم مع قرينه أو المادة مع قرينها يبدد كل منهما الآخر ويختفي الاثنان في شيء يشبه الانفجار متحولين كليهما إلى طاقة معظمها في صورة أشعة جاما.

ومما يذكر أن الفيزيائي المسلم محمد عبد السلام الباكستاني الجنسية الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩ والذي قام بأبحاث هامة في موضوع الجسيمات وقرائنها، صرح بعد حصوله على الجائزة أن الآية القرآنية: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْجِينَ﴾ كانت بمثابة إحساس خفي وإلهام قوي له وذلك أثناء أبحاثه على قرائن الجسيمات المادية. فقد فهم هذه الآية فهما شاملا يطوي بين كلماتها حقيقة وجود قرائن للمادة كحقيقة وجود أزواج أو قرائن في مملكة النبات والحيوان الإنسان.

ظاهرة طبية تحير علماء أمريكا!

لقد اكتشف العلماء ظاهرة حديثة نسبياً في عام ١٩٤٠ من قبل Ernst Kretschmer ثم جاء العالم Bryan Jennett والعالم الأمريكي Fred Plum ليصفا هذه الظاهرة بدقة ويطلقا عليها مصطلح vegetative state أي حالة الخمول، وفي هذه الحالة يدخل المريض في حالة سُبات ونوم ولكن عيناه مفتوحتان، ويمكن أن يتسم أحياناً ويحسّ قليلاً ما يجري حوله، ويمكن أن يتلع ريقه وهو في حالة وعي جزئي، ويبدو وكأنه مستيقظ ولكنه في الحقيقة خامل. وتحدث مثل هذه الحالة نتيجة إصابة أو مرض ما.

وقد ظنَّ العلماء في البداية أن هذه الظاهرة هي عبارة عن نوم عميق ولكن تبين أنها غير النوم بل هي ظاهرة فريدة من نوعها، وهي محيرة للعلماء لم يجدوا لها تفسيراً، ونود أن نشير إلى أن المريض في هذه الحالة بحاجة إلى المغذيات التي يتم حقنها بوسائل خاصة.

ويقول العلماء إن الدماغ يطلق إشارات تدل على تفاعله مع محيطه، ويستطيع المصاب أن يتحرك ويستجيب للمؤثرات الخارجية، ولكنه في حالة لا شعورية. وإذا ما نظرت إلى هذا المصاب بحالة الخمول فإنه يبدو لك مستيقظاً، فعندما تحدثه يستجيب دماغه للتعليمات، ولكنه خامل وراقد وفي حالة لا شعورية.

تدل الدراسة بواسطة جهاز "FMRI" التصوير بواسطة الرنين المغنطيسي الوظيفي"، على أن الدماغ يكون في حالة نشاط أثناء الغيوبة أو الخمول الذي يمر به

المصاب ويبقى لسنوات نائماً، ومن هنا يختار العلماء: مَنْ الذي يحرك هذا الدماغ، وَمَنْ الذي يلهم هذا المصاب أن يبقى على قيد الحياة على الرغم من أنه غائب تمامًا عن الحياة؟ ومن الذي يجعل هذا المصاب يستيقظ فجأة فيتحدث وكأن شيئاً لم يكن؟

أصحاب الكهف:

يحدثنا رب العزة تبارك وتعالى عن فتية آمنوا بربهم وهربوا من الملك الظالم ليفوزوا بدينهم وآخرتهم ولجأوا إلى كهف فأكرمهم الله بمعجزة عظيمة وليكونوا آية لقومهم في ذلك الزمن، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرْبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝﴾ (الكهف: ١٠-١٢).

ولو تأملنا هذه القصة وجدناها تطابق الظواهر الطبية العلمية، في طريقة نوم أصحاب الكهف وطريقة تقلبيهم ذات اليمين وذات الشمال. ويقول العلماء الذين أجروا مسحاً لدماغ مثل هؤلاء المصابين بحالة النوم الطويل أو (الخمول) أن نتائج المسح أظهرت أن الدماغ لديهم يشبه تمامًا الدماغ الطبيعي السليم في نشاطه. إن هؤلاء المرضى يبدون طبيعيين جداً ويحسبهم الإنسان في حالة صحيحة ويقظة.

وهنا نتذكر قول الله تعالى عندما وصف أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۝﴾ (الكهف: ١٨). ويصف تقلبيهم وهذه ردود أفعال يستجيب لها الراقد بشكل طبيعي، يقول تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُھُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۝﴾ (الكهف: ١٨).

من هنا نستنتج أن القرآن منطقي جداً في وصفه لهذه القصة، ولكن المعجزة هنا تكمن في رقود هؤلاء الفتية لفترة طويلة جداً تبلغ ٣٠٩ سنوات، بدون طعام أو شراب. وهذه معجزة إلهية ينبغي علينا كمؤمنين أن نستيقن بها، ولكن موضوع النوم لسنوات طويلة فهذه حالة طبية عادية جداً.

كانت مصابة أمريكية بحالة الخمول vegetative state قد بقيت لمدة ست سنوات في هذه الحالة، وفجأة استيقظت وتحديث مع أهلها وكأن شيئاً لم يكن، وبقيت مستيقظة ثلاثة أيام تكلم من حولها ثم عادت إلى حالتها الأولى!

ويقول الأطباء إنها استيقظت أربع مرات خلال فترة سباتها، وأن أكثر ما يحير في هذه الظاهرة أنها ليست نومًا وليست غيبوبة، وهذا ما يزيد من حيرتهم. والعجيب أن الله تعالى سمى ظاهرة شبيهة حدثت مع أصحاب الكهف بالرقاد فقال: ﴿وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (الكهف: ١٨).

كما أن الأطباء يعتبرون أن عودتها للحياة تمثل معجزة!! وقد حيرت هذه الظاهرة علماء أمريكا لأنهم لم يجدوا لها تفسيرًا، ويعتبرون هذه الحالات شبه معجزة، والسؤال: إذا كان علماء الغرب يرون بأعينهم أناسًا ينامون سنوات طويلة فلماذا لا يقتنعون بصدق كتاب الله تعالى عندما يحدثهم عن أصحاب الكهف؟

مَا تَحْتَ الثَّرَى؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه: ٦). الثرى في كتب اللغة يعني التراب، وزاد بعضهم فقال هو التراب المبلول.

تحتوي التربة على البذور المزروعة والحبوب والثمار، والجذور والسيقان الأرضية (الدرنات والكورمات) والبصلات وغيرها. فيوجد تحت الثرى كل ما يغطيه الزراع من بذور وحبوب وسيقان وجذور ومراحل إنباتها المختلفة، كثمار نبات الفول السوداني وكورمات نبات القلقاس وجذور الجزر واللفت والبنجر والبطاطا والفجل، وبصلات البصل والثوم والكراث وريزومات الزنجبيل والجنسنيج وممصات الهالوك ودرنات نبات الداليا والجذور الدرنية لنبات الأسبرجس وما لا نعلم من الدرنيات، والسيقان، والكورومات، والبصلات والبصيلات الأرضية النامية في الهند والصين وباقي دول آسيا، وأفريقيا والأمريكتين، وفي البحيرات، وكل ما نعلمه وما لا نعلمه من نبات وحيوان وكائنات حية دقيقة وجما.

وقد اكتشف العلماء العديد من المخلوقات في باطن التربة، منها البكتيريا والاكтиноميسيتات، والفطريات، والطحالب، والحيوانات الأولية والفيروسات.

نرى تحت الثرى الملايين من البكتيريا التي تقوم بإتمام دورات الحياة المرتبطة بالتربة، وملايين الفطريات المفتتة للصخور والمحللة للبقايا الحيوانية والنباتية، وملايين الاكتينوميسيتات المخصّبة للتربة والمنظّمة لمحتواها الميكروبي، وعشرات الطحالب المخصبة للتربة، والفيروسات المنظمة لأعداد الكائنات الحية الأخرى في التربة، ونرى الحيوانات الأولية، والديدان النيماودية المقلبة والمهوية للتربة، ونرى الحبوب والبذور والسيقان الأرضية والجذور الدرنية وغير ذلك من سكان الأرض الحية والقاحلة والغدقة والجافة.

وتشارك البكتيريا بدور رئيس في عمليات تدفق الطاقة في الأرض، وإتمام دورات: النيتروجين، والكربون، والفسفور، والكبريت وغيرها من دورات الحياة المرتبطة بالتربة، ففي دورة تدفق الطاقة.

تقوم البكتيريا وغيرها من الكائنات الحية في التربة بتحليل بقايا الكائنات الحية في التربة، وتحرير ثاني أكسيد الكربون المحتبس فيها، وإطلاقه في الهواء الجوي لتغذية دورة الكربون وعمليات البناء الضوئي، وتثبيتته مرة أخرى في المركّبات العضوية الكربونية الكربوهيدراتية والدهنية والبروتينية المحمّلة بالطاقة الكيميائية الناتجة من تثبيت الطاقة الشمسية بواسطة اليخضور (Chlorophyll) والبناء الضوئي (Photosynthesis).

أما الفطريات فهي الكائنات الحية غير الذاتية التغذية التي وهبها الله ﷻ أقوى جهاز إنزيمي في الكائنات الحية تحلل به المواد العضوية كلها وتنتج الأحماض العضوية المفتتة للصخور.

وبالدراسة والبحث وجد أن كل جرام واحد من التربة يحتوي من (١٠) إلى (١٠٠) متر من الخيوط الفطرية، أي ما يعادل من (٥٠٠) إلى (٥٠٠٠) كيلوجرام فطر في كل هكتار من سطح التربة.

ويؤثر محتوى رطوبة التربة على انتشار الفطريات وعملها بالتربة مثلها مثل جميع الكائنات الحية، لذلك ينخفض نشاطها بانخفاض درجة الرطوبة ويؤدي التحسن في مستوى الرطوبة إلى زيادة أعداد الفطريات، ومع ذلك فإن بعض هذه الفطريات يعمل في الظروف شبه الجافة.

وتنتشر الفطريات بأعداد كبيرة في الطبقة السطحية للأرض الزراعية، وتوجد أكبر كثافة عديدة لها في أراضي المراعي. وتحتفظ الفطريات بأعدادها الكبيرة في طبقات ما تحت التربة إلى عمق يصل لأكثر من متر حسب المادة العضوية في التربة.

وتوجد الخمائر (وهي فطريات وحيدة الخلية) بأعداد تصل من (٢٠٠) إلى (١٠٠,٠٠٠) خلية في الهكتار، وهي تنتشر في الأماكن الباردة والمراعي والحقول المنزرعة. وتقوم الفطريات بتحليل السليلوز ونصف السليلوز والبكتين والنشا واللينين.

وتتكافل بعض الفطريات مع بعض جذور الأشجار الكبرى مكونة شبكة كبرى من الخيوط الماصة التي تساعد النبات على امتصاص الماء والنمو والتكاثر.

وتحتوي التربة على العديد من الفيروسات ملتصقة بالبكتيريا والقادرة على التطفل على الخلايا البكتيرية في العقد الجذرية، كما تهاجم الفيروسات خيوط عيش الغراب والطحالب الخضراء المزرققة وبذلك تحافظ على الاتزان الميكروبي في التربة.

وقد أثبتت نتائج الأراضي البكر والزراعية في كل القارات الأرضية وجود الأوليات (البروتوزوا) بأعداد وفيرة، وبأجناس وأنواع مختلفة يتراوح عددها بين (١٠,٠٠٠) إلى (٣٠٠,٠٠٠) خلية حيوانية لكل كيلوجرام من التربة، ومع ذلك فإن البروتوزوا لا تمثل إلا نسبة صغيرة من مجتمع الحيوانات التي تعيش تحت الثرى.

كما تتراوح أعداد كل من السوطيات والأميبا ما بين (٣٠٠٠) إلى (٢٠٠,٠٠٠) في البيئات المناسبة الخالية من المعوقات، في حين لا يتعدى أعداد الهدبيات أكثر من (١٠٠٠) خلية لكل كيلوجرام تربة، وتقوم البروتوزوا بتنظيم حجم المجتمع البكتيري في التربة بالتغذي عليها.

وتحتوي التربة على ديدان الأرض والحشرات والنباتات وذوات الألف رجل، وفي كل (١٠) متر مكعب من التربة يوجد (٢٠٠) ألف حشرة، (١٠٠) ألف نوع من العثة^(١)، (٢٥) ألف حيوان صغير أي ما يعادل وزن بقرتين كاملتين، كما يوجد النمل، والجردان، والفئران، والأرانب، والثعالب، واليرابيع^(٢) وغيرها من الحيوانات تحت الأرض.

ولكل نبات من النباتات البذرية مجموعة من الكائنات الحية الدقيقة (والحشرات والحيوانات الأخرى) تعيش في محيطه الجذري تسمى بالكائنات الجذر محيطه.

ماذا لو غاب ما تحت الثرى؟!

لا يمكن أن نعرف أهمية ما تحت الثرى فيما تقدم من مخلوقات أوجدها الخالق حتى نعرف ما ذا يحدث لهذه الأرض إذا ما فقدت تلك الكائنات أو بعضها، عندها يمكن أن نكون قد علمنا ما هو السر في تواجد كل تلك الكائنات في هذه الطبقة من الأرض، فكما أن الإنسان لا يعرف أهمية العافية إلا إذا فقدها، والشمس إلا إذا غابت عنه، فكذلك ما تحت الثرى، فبضدها تتبين الأشياء وإذا عرف السبب بطل العجب.

فلو غابت البكتيريا، واللاكتينومييسيات، والفطريات، والطحالب، والجذور النباتية من تحت الثرى توقفت دورات النتروجين، والكربون، والفوسفور، والكبريت وماتت الأرض وتصحرت وماتت النبات، واختفت الحياة تمامًا من على الأرض، فلا حياة بدون ما تحت الثرى، فكما أنه لا حياة على الأرض بلا ماء ونبات، فالماء والنبات

(١) عثة: حشرة أرضية مؤذية تلحس الجلود والبُسط والألبسة فتتلفها، وأكثر ما تكون في الصُوف.

(٢) اليربوع: حيوان ثديي من رتبة القوارض، على هيئة الفأر وأكبر منه، وله ذيل طويل ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين طويل الرجلين يقتات بالنبات والحشرات وصغار الطيور يعيش في صحاري مصر والسودان وشمال إفريقيا، يطلق على الذكر والأنثى، وتقول له العامة (جربوع) بالجمع.

والكائنات الحية الدقيقة وضوء الشمس والهواء الجوي هي المخلوقات التي جعل الله منها كل شيء حي على الأرض.

الشيخوخة تنكيس في الخلق:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٨).

أخبر المولى ﷺ في هذه الآية الكريمة أن من طال عمره تنكس في خلقه أي: انقلب حاله وارتدت قواه وتراجعت قدراته متجهة نحو الضعف والوهن وصار كمن انتكس وانقلب رأساً على عقب، ويكشف هذا الوصف الدقيق العلم بحالة عامة من التدهور والارتداد تتسع لتشمل كافة التغيرات الظاهرة والخفية وذلك لاستيعاب لفظ (الخلق) لكافة التركيبات والأنشطة البدنية.

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ يتضمن التعبير الإخبار بأسلوب معجز بليغ عن حالة عامة من التدهور والارتداد تتسع لتشمل كافة التغيرات الخفية للشيخوخة التي لم يعرف أحد عنها شيئاً عند التنزيل وكشفتها الدراسات العلمية حديثاً، والنص الكريم ورد ضمن منظومة من النصوص تعالج موضوع مراحل العمر عامة أو الشيخوخة خاصة في تكامل وائتلاف بلا اختلاف.

من صور الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ١٠٩).

تأتي الآية استطراداً للحديث عن مسجد الضرار الذي أسسه المنافقون في المدينة بغرض إيقاع التفريق بين المؤمنين وتحقيق الضرر والفتنة. والبناء الذي أسس وإن كان مسجداً - كغيره من المساجد - إلا أن أساس بنائه والغرض والنية من إقامته لا يخفى منها خبث المقصد وسوء النية.

وقد جمعت الآية في تصويرٍ فنيٍّ رائع بين المعقول والمحسوس، وشبهت المعنوي المفهوم بالمادي الملموس، فمن أسس بناءه بغرض ونية النفاق والكفر، كمن

وضع أساس مبناه على شفا جرف هار، والنتيجة هي الانهيار المفاجئ والسريع للجرف والمبنى معا.

وفي الآية إشارات هندسية إلى أساسات المباني وطبيعة البناء التي تحكم درجة صمود البنيان ومثاقته أو تؤدي إلى انهياره، وتضمنت عدة إشارات تمس جانبا من علم ميكانيكا التربة والأساسات، في الهندسة المدنية والإنشائية، وبينت الآية وجهها من أوجه الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم يمكن استنباطه من المفاهيم والإشارات الهندسية التالية التي وردت في نص الآية.

موميا فرعون^(١)؛

علم الآثار هو فرع من فروع علم التاريخ وهو علم يعنى بنشاط الإنسان السياسي والعلمي في الماضي، ومن المعايير التي يعتمد عليها علماء الآثار في تحقيق هذا التاريخ الأشياء المادية المتبقية من العهود القديمة كالأدوات والنقوش التي يعثر عليها في الأماكن القديمة. وقف هذا العلم وعلماء هذا العلم مبهورين أمام المعلومات والوثائق التاريخية الموجودة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً والتي لم تكتشف ولم تكن معروفة حتى زمن قريب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ (يونس: ٩٠ - ٩٢).

(١) مومياء: مومياء: جثة مُحَنَطة في قبور المصريين القدماء، ما حُطِّط من الأجسام على طريقة قدماء المصريين. والتحنيط عند قدماء المصريين: حفظ هيكل جسم الميت بتخليصه من المواد الرخوة من جلد وغشاء وتطهير جوفه بمواد خاصة كالمسك أو العنبر أو الكافور وغيرها وتحويله إلى مومياء.

بعد اكتشاف موميا فرعون (رمسيس الثاني) في إحدى المقابر الفرعونية حرص العلماء على دراسة هذه الموميا، ومن تعرض لدراستها الطبيب الفرنسي "موريس بوكاي" - بل قام ببعض المعالجة لها - وقد كشف عن مطابقة ما جاء في القرآن بخصوص إغراق فرعون ومصيره بعد ذلك مع الواقع المتمثل في وجود جثته إلى يومنا هذا آية للعالمين، فيقول في كتابه (القرآن والعلم الحديث):

«إن رواية التوراة بشأن خروج اليهود مع موسى عليه السلام من مصر تؤيد بقوة الفرضية القائلة بأن "منفتاح" خليفة "رمسيس الثاني" هو فرعون مصر في زمن موسى عليه السلام^(١)، وأن الدراسة الطبية لموميا "منفتاح" قدمت لنا معلومات مفيدة أخرى بشأن الأسباب المحتملة لوفاة هذا الفرعون. إن التوراة تذكر أن الجثة ابتلعها البحر ولكنها لا تعطي تفصيلاً بشأن ما حدث لها لاحقاً.

أما القرآن فيذكر أن جثة الفرعون الملعون سوف تُنقذ من الماء كما جاء في الآية السابقة، وقد أظهر الفحص الطبي لهذه الموميا أن الجثة لم تظل في الماء مدة طويلة، إذ أنها لم تظهر أية علامات للتلف التام بسبب المكوث الطويل في الماء».

ولقد ذكر موريس بوكاي ما نصه: «وجاءت نتائج التحقيقات الطبية لتدعم الفرضية السابقة، ففي عام ١٩٧٥م جرى في القاهرة انتزاع خزعة صغيرة من النسيج العضلي، وأظهر الفحص الدقيق بالميكروسكوب حالة الحفظ التامة لأصغر الأجزاء التشريحية للعضلات، وتشير إلى أن مثل هذا الحفظ التام لم يكن ممكناً لو أن الجسد بقي في الماء بعض الوقت، أو حتى لو أن البقاء خارج الماء كان طويلاً قبل أن يخضع لأولى عمليات التحنيط. وفعلنا أكثر من ذلك ونحن مهتمون بالبحث عن الأسباب الممكنة لموت فرعون.

(١) سيأتي في البحث التالي أن فرعون مصر في ذلك الوقت كان "رمسيس الثاني" وليس خليفته.

جرت الدراسات الطبية الشرعية للمومياة بمساعدة Ceccaldi مدير مخبر الهوية القضائية في باريس والأستاذ Durigon وسمحت لنا بالتحقق من وجود سبب لموت سريع كل السرعة بفعل كدمات حجمية مخّية سببت فجوة ذات حجم كبير في مستوى صاقورة القحف مترافقة مع آفة رَضِيّة، ويتضح أن كل هذه التحقيقات متوافقة مع قصص الكتب المقدسة التي تشير إلى أن فرعون مات حين ارتد عليه الموج».

ويبين الدكتور بوكاي وجه الإعجاز في هذه القضية قائلاً: «وفي العصر الذي وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد ﷺ، كانت جثث كل الفراعنة الذين شك الناس في العصر الحديث صواباً أو خطأً أن لهم علاقة بالخروج (لملاحقة موسى وقومه)، كانت مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الأخرى للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية.

في عصر النبي محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتالي فإن جثة فرعون موسى التي ما زالت ماثلة للعيان إلى اليوم تعد شهادة مادية في جسد محنط لشخص عرف موسى عليه السلام، وعارض طلباته، وطارده في هروبه ومات في أثناء تلك المطاردة، وأنقذ الله جثته من التلف التام ليصبح آية للناس كما ذكر القرآن الكريم».

وهذه المعلومة التاريخية عن مصير جثة فرعون لم تكن في حيازة أحد من البشر عند نزول القرآن ولا بعد نزوله بقرون عديدة، لكنها بُيِّنَتْ في كتاب الله قبل ألف وأربعمائة عام على لسان النبي الأمي، مما يشهد بأن مصدر هذا العلم هو الوحي الإلهي.

القرآن الكريم وذكر حكام مصر القدماء والتفريق بين كلمة الملك والفرعون؛

لقد ذكر القرآن حكام مصر الأقدمين وفرّق بينهم لما يذكر حكام مصر في عصر موسى عليه السلام، لا يذكره إلا بصيغة فرعون، وذلك في أكثر من ستين آية كريمة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٤٩). أما عند ذكر حكام

مصر في عصر نبي الله يوسف عليه السلام، فلا يذكره إلا بلفظ الملك، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوبِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوفِ يَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣).

الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية):

ظلت الحضارة المصرية (الفرعونية) مجهولة لا يعرف عنها إلا بعض الآثار الظاهرة والتي غُمِرَ معظمها تحت الرمال الصحراوية في الجيزة وأسوان والأقصر، حتى قام "جان فرانسوا شامبليون" العالم الفرنسي بفك رموز اللغة المصرية القديمة بعد استعانتة بحجر رشيد الذي كان قد اكتُشِفَ أثناء الحملة الفرنسية على مصر.

فقد نُقِشَ على الحجر نَصٌّ بلغتين وثلاث كتابات: المصرية القديمة ومكتوبة بالهيروغليفية والتي تعني الكتابة المقدسة، لأنها كانت مخصصة للكتابة داخل المعابد، والديموطيقية وتعني الخط أو الكتابة الشعبية، واللغة اليونانية بالأبجدية اليونانية، ومن خلال المقارنة بينهم نجح في فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية. ولقد فتح هذا الاكتشاف الباب واسعاً أمام الاكتشافات الأثرية والتعرف على حياة الفراعنة وحياة المصريين القدماء.

تسمية الفرعون:

كلمة فرعون تعني باللغة المصرية القديمة (البيت الكبير) والتي تطور استعمالها إلى لقب لحكام مصر ولم يعرف هذا اللقب لحكام مصر إلا في بداية الأسرة الثامنة عشرة (١٥٣٩ قبل الميلاد) حيث وجد نقش عليه خطاب موجه إلى "أمنحوتب الخامس" (إخناتون) والذي دُعِيَ على أنه فرعون كل الحياة والرخاء والصحة.

لقب الملك لحكام مصر:

مما تبين من خلال مطالعة الموسوعة البريطانية وموسوعة "الويكي بيديا" وغيرها من الكتب التي تحدثت عن تاريخ مصر القديمة أن لفظ الفرعون لم يستعمل إلا في بداية الأسرة الثامنة عشرة أي (١٥٣٩ قبل الميلاد) فصاعداً أي كل الفترة الزمنية

التي سبقت هذا التاريخ كان لقب حكام مصر هو الملك بدون خلاف على ذلك سواء في أيام احتلال الهكسوس لمصر ما بين (١٦٤٨ الى ١٥٤٠ ق.م) أو قبلها.

نزول يوسف عليه السلام إلى مصر:

من المتفق عليه أن نزول يوسف عليه السلام إلى مصر وحكمه كان قبل بعثة موسى عليه السلام بفترة طويلة وذلك لقوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (غافر: ٣٤).

فالمصريون لم يقولوا لن يبعث الله من بعده رسولا إلا بسبب الفترة الطويلة التي جاءت بعده ولم يرسل فيها الله نبيا وهذا بعكس أنبياء بني إسرائيل الذين كان الله سبحانه يرسلهم على فترات متقاربة وبما أن بعثة موسى عليه السلام كانت في زمن فرعون مصر الذي قالت بعض البحوث أنه "رئيس الثاني" (١) فلا شك أن يوسف كان في مصر قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة أي الفترة التي كان يطلق على حكام مصر لقب الملك بغض النظر إن كان الحكام مصريين أم من الهكسوس فالكل كان يطلق لفظ ملك على الحاكم.

حجر جزيرة الشاطيء:

تم اكتشاف حجر يعود إلى الأسرة الثالثة وتحديدًا إلى عصر الملك "دوسر" حيث كتب عليه "الملك زوسر يطلب من الآلهة رفع المجاعة التي ضربت مصر والتي استمرت لسبع سنوات" إلخ... والترجيح أن يكون يوسف قد حكم مصر في عهد الملك "زوسر" أو "دوسر" في عصر الأسرة الثالثة لأنه جرى توثيق لهذه المجاعة على

(١) جاء في البحث السابق أن فرعون مصر في ذلك الوقت لم يكن "رئيس الثاني"، بل كان خليفته "منفتاح".

أنها استمرت لسبع سنوات كما أنه تمت الإشارة إلى حاكم مصر على أنه الملك وليس الفرعون وهذا أيضًا موافق للقرآن الكريم.

لقد فرق القرآن بين عصريين مهمين في التاريخ المصري وهو عصر ما قبل الفراعنة أي ما قبل الأسرة الثامنة عشرة الذين كانوا يطلقون لقب الملك على حكامهم وعصر ما بعد الفراعنة الذين كانوا يطلقون لقب الفرعون على حكامهم وذلك ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة.

اسم هامان:

ورد اسم هامان في القرآن الكريم ست مرات. كما ورد اسمه متصلًا باسم فرعون وكشخص من المقربين إلى فرعون، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُنْظِرُهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر ٣٦ - ٣٧).

ومن خلال ترجمة الكتابات والنقوش الهيروغليفية تم التعرف على معلومة مهمة جدًا وهي أن اسم هامان ورد فعلًا في الكتابات المصرية القديمة. توجد إشارة إلى هذا الاسم في نصب في متحف هوف في فيينا، كما ظهر في كتاب بعنوان (People in the new kingdom) الذي تم إعداده استنادًا إلى مجموعة من النقوش. كما ظهرت في هذه النقوش وظيفة وطبيعة عمل هامان وهو أنه كان (رئيس أعمال الحجارة).

إذاً هامان هو شخص عاش في مصر في زمن سيدنا موسى عليه السلام، كما كان مقربًا من فرعون وكان من المسؤولين عن عمليات الإنشاء والبناء كما ذكر القرآن تمامًا.

و الآيات تصف لنا الحدث عندما أمر فرعون هامان بأن يبني له البرج في قوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾.

إن وجود اسم هامان في الكتابات المصرية القديمة لا يرد فقط على الادعاءات الباطلة من المعادين للقرآن ولكنه أيضًا يؤكد حقيقة أن القرآن الكريم وحي من الله ﷻ

فبهذه الطريقة الإعجازية نقرأ في القرآن الكريم معلومات تاريخية لم تكن معروفة في وقت وزمن النبي ﷺ.

مواقع النجوم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٧٦). وفي هذه الآية قسم إلهي بمواقع النجوم. والله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم، أي أنه إذا أقسم تعالى بشيء من مخلوقاته فإن ذلك دليل على عظم المقسم به. والمقسم به هنا هو مواقع النجوم، ومواقع النجوم عند المفسرين هي مطالعها ومساقطها، وقيل مغايبها، وقيل انكدارها وانتشارها.

مواقع النجوم والاكتشافات العلمية الحديثة:

ما كان الإنسان يستطيع قياس الأبعاد التي بينه وبين النجوم، في الوقت الذي كان يستخدم فيه مقاييس بسيطة تعرف بالفراسخ أو الأميال، وعلى أشد الأحوال قياس تلك المسافات وتقديرها بالأيام، لكن لما جاء العلماء في العصر الحديث وأخذوا يدرسون النجوم والأجرام السماوية الأخرى، وجدوا أن السماء تتكون من تجمعات هائلة من النجوم والكواكب والأجرام الأخرى، وسمّوا كل تجمع من تلك التجمعات بـ(المجرة).

ولاحظ العلماء أن هذه النجوم تبعد عنا مسافات شاسعة لا يمكن قياس أبعادها بالمقاييس التقليدية، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية تعرف باسم السنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعه (المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية) في سنة من سِنِينَا، وهي مسافة مهولة تقدر بحوالي ٩,٥ مليون مليون كيلو متر.

ومما اكتشف أيضًا أن هذه النجوم مع تباعدها فإنها تتحرك بسرعات هائلة جدًا منتقلة من موقعها الحالي إلى موقع جديد وهكذا باستمرار، مما يجعل هذا الأمر مثيرًا للدهشة.

أي أنه لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً، ولا بأية وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجرى في الفضاء الكوني بسرعات مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكدار والطمس.

فالشمس التي تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعه المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرت به الشمس فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلاث دقيقتين تقريباً، بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بحوالي ١٩ كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع Vega فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء.

و تدور الشمس حول نفسها مرة كل ٢٧ يوماً في المتوسط، وتجرى مع الشمس مجموعتها الشمسية بسرعة فائقة تبلغ ٢٢٠ كيلومتر في الثانية متممة لمجرتنا، وهذه المجرة تدور حول المجرة نفسها مرة كل ٢٥٠ مليون سنة، وكل النجوم الأخرى تدور حول نفسها وحول المجرة التي تنتمي إليها، وتتباعد المجرات عن بعضها في فضاء الكون السحيق، وهكذا فنحن من على سطح الأرض لا نرى النجوم أبداً.

ولكننا نرى صوراً قديمة للنجوم انطلقت من مواقع مرت بها، وتتغير هذه المواقع من لحظة إلى أخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرك النجم في مداره، ومعدلات توسع الكون، وتباعد المجرات عنا، والتي يتحرك بعضها بسرعات تقترب أحياناً من سرعة الضوء، وأبعد نجوم مجرتنا عنا يصلنا ضوءه بعد ثمانين ألف سنة من لحظة انبثاقه من النجم، بينما يصلنا ضوء بعض النجوم البعيدة عنا بعد بلايين السنين، وهذه المسافات الشاسعة مستمرة في الزيادة مع الزمن نظراً لاستمرار تباعد المجرات عن بعضها البعض في ضوء ظاهرة اتساع الكون، ومن النجوم التي تتلأأ أضواءها في سماء ليل الأرض ما قد انفجر وتلاشى أو طمس واختفى منذ ملايين السنين، لأن آخر

شعاع انبثق منها قبل انفجارها أو طمسها لم يصل إلينا بعد، والضوء القادم منها اليوم يعبر عن ماضٍ قد يقدر بملايين السنين.

من خلال ما سبق علمنا أن الله تعالى أقسم في كتابه بمواقع النجوم، وهذا القسم يدل على عظم المقسم به، وقد توصل العلم الحديث إلى أن للنجوم مواقع بعيدة جدًا، ولا يمكن للعقل أن يتصورها أو حتى يتخيل تلك المسافات الشاسعة، ووصل العلماء إلى اكتشاف حقيقة أخرى وهي أن هذه النجوم تتحرك بسرعات هائلة جدًا منتقلة من موقعها الحالي إلى موقع جديد وهكذا باستمرار، مما يجعل هذا الأمر مثيرًا للدهشة.

ومواقع النجوم هي الأماكن التي تمر بها في جريها عبر السماء وهي محتفظة بعلاقاتها المحددة بغيرها من الأجرام في المجرة الواحدة، وبسرعات جريها ودورانها، وبالأبعاد الفاصلة بينها، وبقوى الجاذبية الرابطة بينها، واللفظة "مواقع" جمع موقع يقال: وقع الشيء موقعه، من الوقوع بمعنى السقوط. والمسافات بين النجوم مذهلة للغاية لضخامة أبعادها، وحركات النجوم عديدة وخاطفة، وكل ذلك منوط بالجاذبية، وهي قوة لا تُرى، تحكم الكتل الهائلة للنجوم، والمسافات الشاسعة التي تفصل بينها، والحركات المتعددة التي تتحركها من دوران حول محاورها وجري في مداراتها المتعددة، وغير ذلك من العوامل التي نعلم منها القليل.

وفي هذا دلالة على سبق القرآني بالإشارة إلى إحدى الحقائق الكونية العظيمة، وقد علمنا أن الإنسان من على سطح الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يري مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، أو أنه يري مواقع لنجوم تلاشت واندثرت من أزمنة مديدة تتجاوز ملايين السنين، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى يومنا هذا.

البصمة وتسوية البنان:

على الرغم من أن الله ﷻ خلق الناس جميعاً مشتركين في وحدة الخلق ووحدة البنية والتركيب ووحدة وظائف كيمياء الخلية فالناس جميعاً من لحم ودم وعظم. أصلهم جميعاً من تراب، ومع هذا التطابق والتشابه في الخلق والصوت وشكل العظم والرائحة فقد انفرد كل منا في تفاعله الكيماوي مع نفسه، لينفرد ببصماته التي يحملها وحده دون سائر البشر.

وتعرف "البصمة" بصفة عامة بأنها ذلك الخاتم الإلهي الذي ميز الله تعالى به كل إنسان عن غيره بحيث أصبح لكل إنسان خاتمه (بصمته) المميزة له في الصوت والرائحة والعينين والأذن. الخ.

أما "بصمة الإبهام" فهي الخطوط البارزة التي تحيط بها خطوط مخفية تأخذ أشكالاً مختلفة على جلد أطراف الأصابع والكفين من الداخل، وهذه الخطوط تترك أثرها على كل جسم تلمسه، وعلى الأسطح الملساء بشكل خاص.

والمثير للتأمل حقاً هو كيف تتنوع وكيف تتشكل البصمات، بل كيف تتنوع وتتشكل الوجوه والأجسام وكيف تتباين الألوان والصفات، فكلها آيات لله في خلقه، إن الإنسان كله بصمات، فبصماته توجد في اليد والقدم والشفيتين والأذنين والدم واللحاب والشعر والعيون وغيرها.

لقد كانت البصمة ولا تزال سرّاً من أسرار عظمة الله ﷻ في خلقه. وتكون بصمة الإبهام لدى الجنين في الأسبوع الثالث عشر (الشهر الرابع) وتبقى إلى أن يموت الإنسان، وإذا حفظت الجثة بالتحنيط أو في الأماكن الثلجية تبقى البصمة كما هي لآلاف السنين دون تغيير في شكلها. وحتى إذا ما أزيلت جلدة الأصابع لسبب ما، فإن الصفات نفسها تظهر في الجلد الجديد، كما أن بصمة الرجل تختلف عن بصمة المرأة ففي الرجل يكون قطر الخطوط أكبر منه عند المرأة بينما تتميز بصمة المرأة بالدقة وعدم وجود تشوهات تقاطعية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ (٢) يُحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
يَجْمَعَ عِظَامَهُ، ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ (القيامة: ١ - ٤). قال ابن عباس وعامة
المفسرين: المعنى: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ أي: نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً
واحداً كخف البعير أو كحافر الحمار وكظلف الخنزير ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً ولكننا
فرقنا أصابعه حتى يأخذها ما شاء.

والبنان: هو نهاية الإصبع. والسؤال الآن: لماذا اختار الله في الرد عليهم
التدليل على قدرته الفائقة بتسوية البنان، ولم يستدل على قدرته سبحانه مثلاً بخلق
العظام أو إعادة المخ .. الخ، وهل البنان أشد تعقيداً من خلق أي عضو آخر؟ قد يكون
السر في هذا هو أن الله تعالى أراد أن يوقفك على حقيقة مادية علمية ثابتة في جسمك لم
يكتشفها العلم إلا في العصر الحديث.

البصمة والحقائق العلمية:

في عام ١٨٢٣م اكتشف عالم التشريح التشيكي "بركنجي" حقيقة البصمات
ووجد أن الخطوط الدقيقة الموجودة في رؤوس الأصابع (البنان) تختلف من شخص
لآخر، ووجد أن هناك أنواعاً من هذه الخطوط: أقواس أو دوائر أو عقد أو على شكل
رابع يدعى المركبات، لتركيبتها من أشكال متعددة.

وفي عام ١٨٥٨ م أي بعد ٣٥ عاماً، أشار العالم الإنكليزي "وليم هرشل" إلى
اختلاف البصمات باختلاف أصحابها، مما جعلها دليلاً مميزاً لكل شخص. وفي عام
١٨٧٧م اخترع الدكتور "هنري فولدز" طريقة وضع البصمة على الورق باستخدام
حبر المطابع. وفي عام ١٨٩٢م أثبت الدكتور "فرانسيس جالتون" أن صورة البصمة
لأي أصبع تعيش مع صاحبها طوال حياته فلا تتغير رغم كل الطوارئ التي قد تصيبه،
وقد وجد العلماء إن إحدى المومياء المصرية المحنطة احتفظت ببصماتها واضحة جلية.

وأثبت "جالتون" أنه لا يوجد شخصان في العالم كله لهما نفس التعرجات
الدقيقة وقد أكد أن هذه التعرجات تظهر على أصابع الجنين وهو في بطن أمه عندما
يكون عمره بين ١٠٠ و ١٢٠ يوماً.

وفي عام ١٨٩٣م أسس مفوض "اسكتلند يارد" (شرطة لندن)، "إدوارد هنري" نظامًا سهلاً لتصنيف وتجميع البصمات، لقد اعتبر أن بصمة أي إصبع يمكن تصنيفها إلى واحدة من ثمانية أنواع رئيسية، واعتبر أن أصابع اليدين العشرة هي وحدة كاملة في تصنيف هوية الشخص. وأدخلت في نفس العام البصمات كدليل قوي في دوائر الشرطة في "اسكتلند يارد". ثم أخذ العلماء منذ اكتشاف البصمات بإجراء دراسات على أعداد كبيرة من الناس من مختلف الأجناس فلم يعثر على مجموعتين متطابقتين أبدًا.

إن البصمات تخدم في إظهار هوية الشخص الحقيقية بالرغم من الإنكار الشخصي أو افتراض الأسماء، أو حتى تغير الهيئة الشخصية من خلال تقدم العمر أو المرض أو العمليات الجراحية أو الحوادث.

وقد حاول عدد من المجرمين في الولايات المتحدة الأمريكية وفي مدينة "شيكاغو" بصورة خاصة محو هذا الخاتم الإلهي!! بمحو أو تغيير أو تحريف لأشكال الخطوط الحليمية في رؤوس أصابعهم مستخدمين طرقًا مختلفة ولكن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل.

وقد حصر "جالتون" أمر التعرف على بصمة الأصابع في نظام معين يقضي على أن لكل بصمة ١٢ ميزة خاصة، ومن الطريف أن من بين المليون الأول من البصمات التي حصلت عليها شرطة لندن لم يُعثر على بصمتين متشابهتين في أكثر من سبع مميزات من بين المميزات (الاثني عشر).

ولابد أن توجد في كل بصمة أنواع من المميزات بأعداد متفاوتة وقد يتجاوز عددها في بصمة الإصبع الواحدة الخمسين. وقد يصل إلى المائة وربما وجدنا في مساحة صغيرة من الجزء الوسطي للإصبع أكثر من عشر منها.

نظرية الاحتمال:

لنفرض أن أحدنا عمد لأخذ انطباع لإبهامه الأيمن والتقط صورة فوتوغرافية لهذا الانطباع ثم كبرها عدة مرات كي يستطيع تحديد المميزات الخطية في بصمته،

ولنفرض أنه بعد أن قام بهذا العمل وجد فيها خمسا وأربعين ميزة، ترى ما هي فرصة العثور على بصمة أخرى سواء في بقية أصابعه العشرة أو أصابع يدي أي إنسان يعيش حالياً على وجه البسيطة تحتوي على نفس الميزات بالضبط من حيث العدد والأشكال والمواضع النسبية؟ أو بتعبير آخر فرصة وجود نسخة طبق الأصل من بصمته تلك؟ أو بمعنى ثالث هل يمكن أن تتكرر نفس البصمة مرتين وفي وقت واحد مع ما فيها من تفاصيل ذاتية فريدة بالغة الدقة؟

إن كل ذي خبرة في الموضوع يستطيع الإجابة على هذه التساؤلات قائلاً بثقة تامة وبكل بساطة - إن فرصة تكرار بصمتين في آن واحد هي نفس فرصة العثور على حبة معينة من الرمال تقبع بمكان ما في الصحراء الكبرى أو الربع الخالي.

وقد قدر جالتون أن هناك أقل من فرصة واحدة من ٦٤ مليار لوجود بصمة واحدة مطابقة للأخرى، وهذا الرقم بالطبع أضعاف عدد سكان الكرة الأرضية في هذا اليوم. وإذا تابعنا تقدير الاحتمالات يتضح لنا أن وجود بصمتين متطابقتين هي بعيدة جداً إن لم نقل مستحيلة.

لقد قدر "جالتون" أن ثمة أقل من فرصة من أربع وستين ملياراً لتكرار بصمة واحدة مرتين في وقت واحد، ترى إذا قبلنا هذا التقدير، فماذا ستكون فرصتنا للعثور على مثل مطابق لجميع بصمات الأصابع العشرة؟

إن المعدل الوسطي من التفاصيل الدقيقة في بصمة الإصبع الواحدة هو ١٠٠ ميزة، ومع وجود هذه الميزات المائة فإن فرصة تكرار إصبع واحدة تحمل مائة ميزة هي واحدة من رقم يتألف من ٦١ عدداً.

وجه الإعجاز:

القرآن لم يذكر لا بصمات ولا جلد ولا أي شيء آخر غير العظام التي تتكون منها أطراف الأصابع والأصابع نفسها: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ ۖ بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة: ٣-٤). ومن هنا كان لابد من معرفة البشرية بأن هذا الرجل

الأمي جاء في زمن لم تكن فيه هذه التقنيات والوسائل الحديثة فمن أين له كل هذه المعرفة بهذه الأمور الدقيقة؟

النجم الطارق:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق: ١-٣).

النجم الثاقب يعني يتوقد ضياؤه ويتوهج. يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ولهذا قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثم فسر به قوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾. وإنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار.

النجم الثاقب في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

لكل نجم من النجوم بداية ونهاية، عندما يكون وزن النجم أكبر من وزن الشمس بمرّة ونصف تقريباً، وعندما تنقضي حياة هذا النجم وينفذ وقوده يبدأ بالانهيار ويمر في حالة تشبه الانحلال، فالإلكترونات لا تعود قادرة على البقاء في مداراتها حول الذرة، ولذلك سوف تُجبر على اختراق الذرة والانصهار في البروتونات، لتتشكل بذلك النيوترونات، وتولّد حرارة تبلغ أكثر من مليون مليون درجة مئوية، وبالتالي فإن هذا النجم يتحول إلى نجم نيوتروني يزن أكثر من ٤٠٠ مليون مليون كيلوجرام.

المطارق العملاقة:

عندما قام العلماء بتسجيل الإشارات الراديوية القادمة من الفضاء البعيد، ظنوا في البداية أنها رسالة من كائنات مجهولة، ولكن تبين أن هذه الإشارات ما هي إلا صوت لدقات منتظمة جداً، فقد سمعوا وكأن أحداً يطرق عدة طرقات كل ثانية، ولكن في البداية تخيلوا بأن هذا النجم ينبض مثل قلب الإنسان، فأسموا هذه النجوم بالنوابض، ولكن تبين فيما بعد أنها تصدر أصواتاً أشبه بالطرق، فأسموها المطارق العملاقة التي تدقّ مثل الجرس.

إشعاع ثاقب:

يؤكد العلماء أن هذه النجوم تبث أشعة عظيمة ولامعة، ففي عام ١٩٧٩م سجل العلماء الشعاع الأكثر لمعاناً في السماء وقد كان ناتجاً عن نجم نيوتروني ثاقب، فقد بث هذا النجم كمية هائلة من أشعة جاما وهي أقوى أنواع الأشعة الثاقبة، لقد بث خلال ٢, ٠ ثانية كمية من الإشعاعات الثاقبة تعادل ما تبثه الشمس في ألف سنة!!! ويقول العلماء الذين رأوا هذا الشعاع إنهم لم يشاهدوا شعاعاً بهذه القوة واللمعان من قبل.

النجم الثاقب بالأرقام:

النجم النيوتروني هو عبارة عن نجم أثقل من الشمس بقليل وقد استنفد وقوده النووي، فلم يعد قادراً على الاشتعال، فبدأ بالانكماش على نفسه وبدأت مادته بالتهايو والسقوط نحو مركز النجم مما يؤدي إلى انضغاطه بشدة كبيرة وتفكك ذراته بفعل الجاذبية الهائلة إلى بروتونات وإلكترونات ومن ثم تندمج هذه الأجسام متحولة إلى نيوترونات، ولكن النواة تكون في حالة مختلفة حيث تبدأ في داخلها ذرات الحديد بالتشكل، وبالتالي يمكنك أن تتخيل كرة ضخمة من الحديد محاطة بسائل كثيف من النيوترونات، ببساطة هذا هو النجم النيوتروني.

النجم النيوتروني يبلغ وسطياً من ٤, ١ حتى ٥ أضعاف وزن الشمس، وإذا زاد وزنه على ذلك سوف يتحول إلى ثقب أسود. أما نصف قطر هذا النجم فيبلغ من ١٠ إلى ٢٠ كيلومتر. فإذا كان لدينا نجم نيوتروني وزنه ٤, ١ وزن الشمس، ونصف قطره ١٥ كيلومتر، وإذا علمنا بأن وزن الشمس هو ٢ وبجانبه ٣٠ صغراً كيلوجرام، أي ألفي بليون بليون كيلوجرام، فإن وزن هذا النجم النيوتروني سيبلغ ٨, ٢ ألف بليون بليون كيلوجرام، وبحساب بسيط نستنتج أن كل ستمتر مكعب من هذا النجم يزن ٢٠٠ ألف مليون كيلوجرام.

وتصور أخي القارئ أننا لو أحضرنا إبرة صغيرة جداً من هذا النجم الثاقب، فإن وزنها سيكون ٢٠٠ مليون كيلوجرام، هذه الإبرة النيوترونية الثاقبة لو وضعت على

الأرض لثقتها واخترقتها بالكامل!! فكيف لو أحضرنا نجماً قطره ٢٠ كيلومتراً مثلاً، من هنا ندرك ضخامة وعظمة هذه النجوم وأهميتها في السماء، وأنها من الآيات التي تدل على عظمة الخالق وقدرته ﷻ.

ساعات كونية دقيقة:

تدور هذه النجوم بسرعات عالية جداً، وتبلغ سرعة بعضها عدة مئات من الدورات في كل ثانية، وهي دقيقة جداً في دورانها، ولذلك يمكن استخدامها كساعات كونية دقيقة. ويتولد بنتيجة دوران هذه النجوم حقل مغناطيسي قوي جداً يعادل ألف مليون ضعف الحقل المغناطيسي للأرض.

إن سبب سماعنا لصوت الطرقات هو دوران هذه النجوم بسرعة هائلة حول مركز دورانها، وأثناء دوران هذا النجم فإنه يحقق نتيجتين: الأولى أنه يعطي طرقات منتظمة، والثانية أنه يصدر إشعاعات تستطيع ثقب أي شيء يصادفها، أي أن دوران هذه النجوم يسبب الطرق والثقب.

إنها تثقب أي شيء تصادفه:

لقد رصد العلماء في أمريكا وأوروبا الموجات الجذبية الصادرة عن النجوم الثابتة، وقالوا إذا كان الضوء يمكن أن يصطدم بالخواجز المادية فلا يستطيع اختراقها، فإن الموجات الجذبية الهائلة التي يصدرها النجم الثاقب تخترق أي شيء، حتى أجسامنا فإنها تُحترق في كل لحظة بهذه الأمواج ولا نحس بها.

هنالك جسيمات دقيقة جداً تطلقها هذه النجوم بكميات كبيرة أثناء تشكلها بعد انفجار النجم الأصلي، وتدعى "نيوترينو" ويعرف العلماء هذه الجسيمات أنها عديمة الشحنة وليس لها كتلة، هذه الأجسام الأولية تخترق الرصاص مسافة أميال عديدة دون أن يعرقلها أي شيء.

تتعرض الأرض ومن عليها في كل لحظة لجسيمات كونية فائقة الصغر مثل "النيوترينو"، وهذه الجسيمات تُبث من المطارق الكونية أثناء تشكلها، وتثقب الغلاف الجوي للأرض وتثقب البحار والجبال، حتى إن العلماء وجدوا آثاراً لهذه الجسيمات في

أعماق البحار وفي أخفض نقطة وصلوا إليها تحت سطح الأرض، ويخبرنا العلماء أن "النيوترينوات" وهي أجسام عديمة الشحنة والوزن، تستطيع ثقب واختراق طبقة من الرصاص يبلغ سمكها عدة كيلومترات، حيث تعجز جميع الأجسام الأخرى عن اختراق أكثر من أمتار محددة من الرصاص، ولذلك فإن أفضل اسم لهذا النجم علمياً هو (النجم الثاقب).

مطرقة من الحديد:

يقول العلماء في تعريف هذه المخلوقات: «إن سطحها من الحديد البلوري الصلب، وهي تدق مثل الجرس عندما يضرب بمطرقة». ومن العجائب أن العلماء وجدوا أن هذه النجوم تتكون من طبقات، وأن قلب هذه النجوم يتألف من الحديد، وأثناء تشكل هذه النجوم يحدث طرق لهذه الطبقات بالنواة الحديدية تماماً كالمطرقة، وجاء في دراسة حول طريقة تشكل النجوم وما يحدث داخل النجوم النيوترونية ما نصه: تعمل الطبقات الخارجية في النجم مثل المطرقة، ونواة هذا النجم مثل الكرة المطاطية.

إذن جميع العلماء يؤكدون على أن هنالك طرْقاً داخلياً يحدث داخل النجم، وطرْقاً خارجياً نتيجة دوران النجم، حيث يصدر طرقات منتظمة تصل إلى الأرض على شكل أمواج راديوية. وهذا يعني أن العلماء يرون في هذه الأجسام عمليات طرق مستمرة تشبه طرقات المطرقة على الجرس.

صوت المطرقة الكونية:

يستخدم العلماء في كشف أعماق هذه النجوم تسجيل الانفجارات التي تولدها ثم يقومون بتحليل هذا التسجيل، ومعرفة التركيب الداخلي للنجم، تماماً كما يستخدم علماء الأرض مقاييس الزلازل وتسجيل الاهتزازات الأرضية لمعرفة تركيب الأرض وبنيتها الداخلية وطبقاتها.

ويقول البروفسور Richard Rothschild من جامعة كاليفورنيا، والذي درس هذه الأجسام لفترة طويلة، وهو يحدثنا عن أحد الانفجارات النجمية الذي

خلف وراءه نجمًا ثاقبًا: «إن الانفجار كان أشبه بضرب النجم النيوتروني بمطرقة كونية، مما يسبب أن هذا النجم يرن مثل الجرس».

وجه الإعجاز:

مما يدل على عظمة كتاب الله تعالى أنه تناول الكثير من الحقائق الكونية المبهرة، وعندما يكون الحديث عن مخلوق عظيم يقسم الله به -والله يقسم بما يشاء من خلقه- فقد أقسم الله تعالى بنجوم عظيمة فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ﴾ (٢) النّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿١﴾ (الطارق: ١-٣).

وقد أجمع المفسرون في تفسير هذه الآيات الكريمة، على أن الله أقسم بنجوم شديدة اللمعان والإضاءة، وهذا ما وصلت إليه معارفهم في ذلك العصر. ولكننا في العصر الحديث وأمام التطورات الكبيرة التي شهدتها علم الفلك، فإن أفضل تفسير علمي لهذه الآيات هو أنها تتحدث عن النجوم النيوترونية، وقد يتطور العلم فيكشف لنا أشياء جديدة لا نراها اليوم ليبقى القرآن هو المعجزة الخالدة.

وقد يقول قائل كيف علمت أن النجم الثاقب هو ذاته النجم النيوتروني؟ لذلك سوف نعدد بعض أوجه الإعجاز العلمي في هذه الآيات ونلخصها في نقاط محددة:

١- من خلال الحقائق اليقينية السابقة ندرك أن أهم صفتين للنجوم النيوترونية كما يصرح بذلك كبار علماء الفلك هما: الطُّرُق المستمر والمتنظم، وبث موجات جذب تخرق وتثقب أي شيء، وهذا ما لخصه لنا القرآن الكريم بكلمتين فقط هما: (الطارق، والثاقب).

٢- الطُّرُق في اللغة العربية هو الضرب بالمطرقة، فهل تعتبر طرقات هذه النجوم حقيقية ومسموعة لنا؟ يؤكد جميع العلماء أن ما تصدره هذه النجوم هو طرق حقيقي وليس مجازيًا، ويقول العلماء هذه النجوم تصدر صوتًا يشبه إلى حد كبير صوت المطرقة العادية، ويبلغ تردد هذا الصوت عدة مئات من الهرتز، ولذلك فهو مسموع للأذن البشرية، ولكن بما أن الصوت يحتاج لوسط مادي لكي ينتشر فيه، وبسبب عدم

وجود هذا الوسط في الفضاء، فإن هذه الأصوات لا تصلنا مباشرة إنما تصلنا على شكل موجات راديوية، وبعد إعادة هذه الأمواج الراديوية إلى تردداتها الحقيقية تعطي صوت الطرق على شكل دقات منتظمة.

٣- الثَّقب في العربية هو الحَرْقُ النافذ، فكيف يثقب ويحترق الأشياء هذا النجم الثاقب؟ من خصائص النيوترون أنه أثقل أجزاء الذرة وهو حيادي أي لا شحنة له، فهو ليس موجباً وليس سالباً، ولذلك فهو يحترق الذرة وينفذ منها بسهولة، وبالتالي يستخدمه العلماء لتحطيم نواة الذرة بسبب ثقله وحياديته؛ ولذلك فإن أفضل وصف للنيوترون هو أنه يثقب الأشياء ويحترقها بسهولة دون أن يعيقه شيء، وبالتالي فإن كلمة (الثاقب) مناسبة جداً من الناحية العلمية لوصف النجوم النيوترونية.

٦- إن كلمة (ثاقب) تعني في اللغة أيضاً (مضيء) أو (لامع)، وقد وجد العلماء أن هذه النجوم تعتبر من أشد النجوم لمعاناً في الكون. ويعجب العلماء كيف تنشأ هذه النجوم في قلب الانفجارات وتكون محاطة بكميات هائلة من الدخان الكوني، وفجأة تظهر وتشع بل وتضيء ما حولها، وهذا يدل على أن اللفظة القرآنية تجمع أكثر من معنى، فكلمة (الثاقب) تعني الذي يحترق الأشياء وتعني شديد اللمعان، وكلا المعنيين صحيح، وهذا يعني أن العلماء يستخدمون عدة كلمات لوصف هذه النجوم بينا القرآن يختصر هذه المصطلحات بكلمة واحدة فقط، فسبحان الله!

انسلاخ النهار:

لقد كشف العلم الحديث أن الليل يحيط بالأرض من كل مكان، وأن الجزء الذي تتكون فيه حالة النهار هو الهواء الذي يحيط بالأرض، ويمثل قشرة رقيقة تشبه الجلد، وإذا دارت الأرض سلخت حالة النهار الرقيقة التي كانت متكونة بسبب انعكاسات الأشعة القادمة من الشمس على الجزئيات الموجودة في الهواء مما يسبب النهار، فيحدث بهذا الدوران سلخ النهار من الليل، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَيَّاهُمْ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس: ٣٧).

الخوف والمطر:

كانت معركة بدر بداية لسجال المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين الكافرين، كانت تلك المعركة وكان معها النصر وظهور الحق وكان معها التأييد والنشيت والآيات الربانية الخارقة كالإمداد بالملائكة ونزول المطر وما صاحبه من الخوارق والمعجزات والإعجاز في آن واحد، يقول الله واصفًا حالهم تلك: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ١١).

هذه الآية تحبر من بدايتها أن الله ﷻ غشى المؤمنين بالنعاس أمانة أي من الخوف الذي يتاب كل إنسان عند ملاقات العدو، خاصة وأنه أول لقاء بين فئة الكفر وفئة الإسلام، والمسلمون لم يكونوا قد خرجوا للحرب وإنما كانوا قد خرجوا يريدون قافلة الكفار، وهم أمام جيش قوي كبير يزيدهم عددًا وعدةً، ثم ينزل الماء ليعقب النعاس وليكون سببًا آخر في إذهاب الخوف.

لقد جاء في الآية ما يُشعر بأن الماء النازل كان سببًا لأمر عدة وهي:

- التطهير بالماء النازل ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾.
- إذهاب رجز الشيطان: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾.
- الربط على قلوب المؤمنين: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾.
- تثبيت أقدامهم: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

الخوف والطب:

الغدة الرئيسية التي تنفعل عند الغيظ والغضب والحقده والخوف هي الغدة الكظرية (فوق الكلية)، وتفرز العديد من الهرمونات التي تؤثر في عمليات التمثيل في الجسم. ومن ضمن هذه الهرمونات: الأدرينالين والنورأدينالين فهرمون الأدرينالين يكون إفرازه استجابة لأي نوع من أنواع الانفعال أو الضغط النفسي، كالخوف أو الغضب، وقد يفرز أيضًا لنقص السكر، وعادة ما يُفرز الهرمونان معًا.

وإفراز هذا الهرمون يؤثر على ضربات القلب، فتضطرب، وتتسارع، وتقلص معه عضلة القلب، ويزداد استهلاكها للأوكسجين، والغضب والانفعال يؤدي إلى رفع مستوى هذين الهرمونين في الدم، وبالتالي زيادة ضربات القلب، وقد يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم.

كما أن ارتفاع هرمون النور أدرينالين في الدم يؤدي إلى تسارع دقات القلب، وهذا ما يشعر به الإنسان حين الانفعال أو الخوف، والذي يجهد القلب وينذر باختلاطات سيئة. فهو يعمل على رفع الضغط الدموي بتقيضه للشرايين والأوردة الصغيرة، كما أن الارتفاع المفاجئ للضغط قد يسبب لصاحبه نزفاً دماغياً صاعقاً يؤدي إلى إصابة الغضبان بالفالج^(١)، وقد يصاب بالجلطة القلبية أو الموت المفاجئ، وقد يؤثر على أوعية العين الدموية فيسبب له العمى المفاجئ. وكلنا يسمع بتلك الحوادث المؤلمة التي تنتج عن لحظات غضب.

ويقول الأطباء عند الخوف تفرز في الدماء مادة (الأدرينالين) فترتعش منها الأطراف فلا تثبت، ومن وسائل تثبيت هذه الأطراف أن يرش الشخص بالماء لتقليل هذه المادة، وقد كان نزول الماء أيضاً من الأسباب المادية التي جعلها الله وسيلة لتثبيت الأقدام، بتقليل هذه المادة في الدماء إلى جانب تثبيت الأرض التي يسير عليها المجاهدون مع رسول الله ﷺ فتكون ثابتة تحت أقدامهم، لأن الرمال إذا بللت تماسكت وسار عليها السائر بعزم وثبات وتتقدم القدم فلا تغوص.

(١) الفالج: شلل نصفي؛ شلل يصيب أحد شِقَيَّ الجِسْم طَوَّلاً فيُطِيلُ إحساسه وحركته.

تخصيص مكة المكرمة بالقبلة:

مكة المكرمة هي أشرف البلدان وخير الأماكن، والبلد الحرام اختاره الله ﷻ لنبيه ﷺ، وجعل فيه العديد من المناسك لعباده، فكانت الكعبة المشرفة قبلة الصلاة لكل المسلمين، وأوجب على عباده المؤمنين المستطيعين الإتيان إلى بيته الحرام من كل فج عميق.

وفي اختصاص مكة المكرمة بهذه الأحكام العديد من الحكم التشريعية، ولعل منها ما كشف عنه العلم الحديث وهو أن مكة المكرمة تتوسط العالم، وهي مسألة تتناسب مع اختيار مكة من بين كل البلدان لتكون مبعث خاتم الأنبياء والمرسلين، والمكان الذي تنطلق منه الدعوة المحمدية إلى كل العالم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَلِنُذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. وذهب عدد من علماء اللغة إلى أن سبب تسمية مكة بهذا الاسم هو أنها وسط الأرض.

موقع مكة المكرمة من العالم في ضوء الدراسات العلمية الحديثة:

منذ ما يقارب ربع بليون سنة كانت اليابسة قارة واحدة جمعت كل القارات يحيط بها بحر واحد محيط، سميت أم القارات؛ هذا ما انتهى إليه "ألفرد فيجنر" وأعلنه عام ١٩١٥م استنادًا إلى جملة شواهد تأكدت لاحقًا ضمن نظرية انزياح القارات، وخلاصتها أن القارة الأم قد تصدعت مع الزمن إلى قطع متجاورات، وتنازع حتى اليوم عن بعضها البعض ببطء شديد نتيجة لتيارات الصهير، وموّر^(١) الباطن تحت

(١) مَارَ الشَّيْءُ مُوَرًّا: تحرّك وتدافع في اضطراب ذهابًا وجيئةً.

القشرة، فانزاحت قطع جهة الشرق، وأخرى جهة الغرب، وتميزت سبعة أبحر، وكان موقع المنطقة العربية في الوسط كما هو اليوم.

ومن هنا ذهب قوم إلى القول بوسطية مكة المكرمة لأمة العرب التي تتوسط بقية الأمم، وأن الكعبة التي تتوسط البيت الحرام هي (مركز الأرض)؛ أو بالأحرى التماساً لدقة التعبير منعاً للالتباس يمكن القول أنها (وسط المعمورة)؛ لأن مركز الجسم الكروي نقطة تقع في اللب والمعلوم أن كوكب الأرض جسم كروي، لذا لا يليق هندسياً وصف منطقة على سطحه بأنها مركز الكوكب.

يقول الدكتور محمد عوض في بحثه في مجلة "الهلال" - أغسطس ١٩٥٣م - إن الكعبة مركز الأرض بمفهوم القارات، أي: اليابسة، لأن المحيط الهادي وهو أكبر المحيطات يشكل انقطاعاً كبيراً جداً بين القارات بمساحته الكبيرة التي تصل اليابسة، لذلك ترسم مصورات العالم بدءاً من استراليا واليابان والصين شرقاً، وانتهاءً بأمريكا غرباً لتمثل كل اليابسة، ولو مسحنا هذه القارات بما فيها القارة القطبية الجنوبية والشمالية، وكتبنا عليها مساحاتها، ورحنا نفتش عن مركز يتوسطها، أو عن مركز ثقلها بدقة تامة، لوجدناه في الكعبة المشرفة بالذات.

لهذا يقول تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧)، وعبارة: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تعطي المركزية لمكة المكرمة، لذلك اقترح أحد علماء باكستان أن تكون مكة المكرمة بداية لخطوط الطول بدلاً من جريتش.

مكة المكرمة في الإسقاط المساحي المكي هي مركز العالم:

وقد قام العالم المعاصر الدكتور حسين كمال الدين أحمد إبراهيم أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكروي في جامعات القاهرة وأسيوط والملك السعود، منذ أكثر من عشرين عاماً أثناء عمله بجامعة الملك سعود بإثبات أن مكة المكرمة هي مركز الكرة الأرضية.

ويروي هذا العالم المصري قصة اكتشافه فيذكر أنه بدأ البحث وكان هدفه مختلفاً تماماً، حيث كان يجري بحثاً ليعد وسيلة تساعد كل شخص في أي مكان من العالم على

معرفة وتحديد مكان القبلة، لأنه شعر في رحلاته العديدة للخارج أن هذه هي مشكلة كل مسلم عندما يكون في مكان ليست فيه مساجد تحدد مكان القبلة، أو يكون في بلاد غربية، كما يحدث لمئات الآلاف من طلاب البعثات في الخارج، لذلك فكر الدكتور حسين كمال الدين في عمل خريطة جديدة للكرة الأرضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها.

وبعد أن وضع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطة ورسم عليها القارات الخمس، ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذي أثار دهشته. فقد وجد أن موقع مكة المكرمة في وسط العالم، وأمسك بيده (فرجارًا) وضع طرفه على مدينة مكة، ومر بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فتأكد له أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة توزيعًا منتظمًا، ووجد مكة - في هذه الحالة - هي وسط الأرض اليابسة.

وأعد خريطة العالم القديم - قبل اكتشاف أمريكا وأستراليا - وكرر المحاولة فإذا به يكتشف أن مكة هي أيضًا وسط الأرض اليابسة، حتى بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت الدعوة للإسلام.

ويضيف العالم الدكتور حسين كمال الدين: «لقد بدأتُ بحثي برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض، عن مدينة مكة، ثم وصلتُ بين خطوط الطول المتساوية لأعرف كيف يكون إسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة لمدينة مكة.

وبعد ذلك رسمت حدود القارات وباقي التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط، واحتاج الأمر إلى إجراء عدد من المحاولات والعمليات الرياضية المعقدة بالاستعانة بالحاسب الآلي لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة، وكذلك احتاج الأمر إلى برنامج للحاسب الآلي لرسم خطوط الطول وخطوط العرض لهذا الإسقاط الجديد».

ومن تلك الدراسات ما توصل إليه الدكتور المهندس يحيى وزيري في بحثه الموسوم بـ(الكعبة المشرفة دراسة تحليلية للخصائص التصميمية)، وأشار في بحثه إلى عدد من الدراسات التي تثبت أن مكة تتوسط العالم القديم والحديث.

ومن تلك الدراسات التي أشار إليها دراسة تم فيها اختيار تسع مدن وجزر لتكون هي حدود العالم القديم، وتم تحديد موقعها وبعدها عن مكة المكرمة، وقد وجد أن المسافة القوسية بين هذه المدن والجزر وبين مكة المكرمة تقريباً ٨٠٣٩ كم في المتوسط، مما يعنى أن مكة المكرمة تقع في مركز دائرة يمر محيطها بالثلاث قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا التي كانت تكوّن وتمثل العالم القديم قبل اكتشاف الأمريكتين.

وبالنسبة لتوسط مكة المكرمة ليابسة العالم الجديد فقد تم حساب المسافة بين مكة المكرمة والمدن الآتية:

١- مدينة ويلنجتون تقع في نيوزيلندا بشرق قارة استراليا: وجد أن المسافة بينها وبين مكة المكرمة ١٣٠٤٠ كم.

٢- كورن هورن أبعد نقطة في أمريكا الجنوبية: وجد أن المسافة بينها وبين مكة المكرمة ١٣١٢٠ كم.

٣- شمال ألاسكا أبعد نقطة في شمال أمريكا: وجد أن المسافة بينها وبين مكة المكرمة ١٣٦٠٠ كم.

وعلى ذلك فإن المسافة المتوسطة بين أبعد نقاط العالم الجديد وبين مكة المكرمة هي تقريباً ١٣٢٥٣ كم، مما يعنى أيضاً أن مكة المكرمة تقع في مركز دائرة تمر بحدود قارات العالم الجديد، وهذه الدائرة تمر أيضاً بالحدود الشرقية والحدود الغربية للقطب الجنوبي.

إن موقع مكة المكرمة الفريد من نوعه أدى إلى أن يطالب أحد الباحثين الغربيين، واسمه "أرنولد كيسرلنج" إلى أن يكون خط طول مكة المكرمة ٣٩ درجة و٤٩ دقيقة شرقاً هو خط الطول الأساسي بدلاً من خط طول جرينتش بإنجلترا والذي

تم فرضه على العالم سنة ١٨٨٢ م، وقت أن كانت الإمبراطورية البريطانية هي أكبر قوة موجودة في العالم.

وجه الإعجاز:

أظهرت الأبحاث والدراسات الحديثة أن الموقع الجغرافي لمكة المكرمة موقع عبقرى لا نظير له فهو يقع في مركز اليابسة سواء بالنسبة للعالم القديم (آسيا وأفريقيا وأوروبا) أو العالم الجديد بعد اكتشاف الأمريكتين وأستراليا.

فالمسلمون عندما يتجهون في صلاتهم إلى مكة المكرمة فهم يتجهون إلى موقع يتوسط اليابسة، وهنا يظهر لنا أن اختيار موقع مكة المكرمة لتكون مبعث خاتم النبيين، ولتكون فيها الكعبة المشرفة قبلة المسلمين، ولا يقصد المسلمون غيرها للحج والعمرة، هو اختيار إلهي فيه حكمة كبرى لم تكن لتُعرف إلا بعد ظهور الحقائق والاكتشافات العلمية الحديثة، فالمسلمون عندما يتجهون في صلاتهم إلى مكة المكرمة فهم يتجهون إلى موقع يعتبر بمثابة وسط اليابسة، كما أنه لا يخفى دلالة توسط موقع مكة المكرمة على تسهيل الحج والعمرة للمسلمين من مختلف بقاع الأرض، فموقعها متوسط بالنسبة لكافة القارات فهي لا تقع في أقصى الشرق أو الغرب، أو في أقصى الشمال أو الجنوب.

القرار المكين:

جاء وصف الرحم في القرآن الكريم بأنه قرار مكين، في موضعين من كتاب الله تعالى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١﴾ (المرسلات: ٢٠-٢٢)، وفي موضع ثالث جاء تعليق ذلك القرار بالمشيئة الإلهية، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: ٥). وفي هذا الوصف القرآني مطابقة لحقيقة علمية كشف عنها العلم الحديث بواسطة التقنيات الحديثة والأجهزة المتطورة.

اتفق المفسرون على أن القرار المكين هو الرحم، وفسروا القرار بأنه المكان الصالح والمهيأ للاستقرار، وأما المكين فهو المتمكن والشيء الحريز والحصين، والثابت

في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني جمعناه في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم مُعَدُّ لذلك، حافظ لما أُودِع فيه من الماء، ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر.

وقد كشف العلم الحديث عن كثير من خصائص الرحم، ومنها أن الرحم يبلغ حجمه ٢ ملم - في جسم المرأة البكر - ولكن حجمه يتضاعف مع الحمل حتى يصل إلى ١٠٠٠ ملم، وهذا النمو يفوق نمو كل الأورام السرطانية، والرحم هو في حقيقته جسم معلق يتحرك بمرونة ويتغير حجمه ووزن محتوياته في حدود دقيقة.

وكشف العلم أن النطفة عند دخولها إلى الرحم فإنها تنغرس في الرحم، وتتهيأ لها الظروف المناسبة حتى تتكاثر وتنمو وتتخلق حتى تصير إنساناً في أحسن تقويم، كل ذلك وهي تنعم بكل وسائل الأمن والراحة والاستقرار.

لقد وصف القرآن الكريم النطفة بأدق وصف، ووصف المكان الذي تستقر فيه النطفة بوصفين جامعين معبرين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، فكلمة ﴿قَرَارٍ﴾ في الآية الكريمة معناها الاستقرار والثبات والسكون والهدوء، وهي بذلك تشير إلى العلاقة بين الجنين والرحم، فالرحم مكان لاستقرار الجنين، وكذلك القرار هو مكان يستقر فيه الماء ويتجمع، وقد وصف القرآن الكريم المكان الذي تستقر فيه النطفة في الرحم بأنه قرار.

وقد كشف العلم الكثير من التفاصيل لهذا الوصف الجامع المعبر، فالرحم للنطفة ولمراحل الجنين اللاحقة سكنٌ لمدة تسعة أشهر، وبالرغم من أن طبيعة الجسم أن يطرد أي جسم خارجي، فإن الرحم يأوي الجنين ويغذيه، وللرحم عضلات وأوعية رابطة تحمي الجنين داخله، ويستجيب الرحم لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلاءم مع نموه فهو قرار له، ويحاط الجنين بعدة طبقات بعد السائل الأمنيوسي وهي الغشاء الأمنيوسي المندمج بالمشيمة، وطبقة العضلات السميكة للرحم ثم جدار البطن، وكل هذا يمد الجنين بمكان مناسب للاستقرار وللنمو الجيد، وهكذا فإن كلمة ﴿قَرَارٍ﴾ قد

استعملت في القرآن الكريم كل هذه المعاني وغيرها، متضمنة وظائف الرحم باعتباره مكاناً مناسباً لاستقرار الجنين وتمكينه من مواصلة نموه.

وقد جمع اللفظ «قَرَارٍ» الذي وصف القرآن الكريم به الرحم كل الحقائق التي اكتشفها العلم، لبيان مناسبة الرحم لاستقرار الجنين، فهو لفظ معبر جامع.

أما «مَكِينٍ» فمعناها: الشيء المتمكن والشيء الحريز والحصين، والثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، وهي بذلك تشير إلى العلاقة بين الرحم وجسم الأم، وموقعه المثالي لتخلق ونمو كائن جديد، ويقع الرحم في وسط الجسم، وفي مركز الحوض وهو محاط بالعظام والعضلات والأربطة التي تثبته بقوة في الجسم، بحيث لا يقلع من مكانه، وكأنه حصن حصين يحرز ما بداخله، أي أنه مكين كما قرر القرآن الكريم.

وهذا أيضاً لفظٌ جامع معبر عن كل المعاني التي تبين تمكن الرحم وتثبته في جسم الأم، وهكذا فإن كل وصف يتضمن العلاقة بين الجنين والرحم وبين الرحم وجسم الأم، قد أدخل في معنى الكلمتين «قَرَارٍ» و «مَكِينٍ» اللتين تعبران تعبيراً تاماً عن حقيقة الرحم ووظائفه الدقيقة، ولا يفتن إلى أهمية هذين الوصفين إلا من له علم بحاجات نمو الجنين، وحاجات الرحم، لمواكبة هذا النمو حتى يخرج سليماً.

فكيف إذا علمنا أن هذا الإخبار جاء على لسان نبي أمي قبل ألف وأربعمائة عام، إن هذا كله يشهد بأن هذا الكلام هو وحي أوحاه الخالق العليم ﷻ إلى رسوله محمد ﷺ، ليكون ذلك شاهداً على رسالته الخاتمة إلى كل الناس في كل العصور إلى قيام الساعة.

هل أشار القرآن إلى تحديد نوع الجنين؟

إن القرآن هو أول كتاب يحدد المسؤول عن نوع الجنين ذكراً كان أم أنثى، فقد كان الاعتقاد السائد زمن نزول القرآن أن المرأة الأم هي المسؤولة عن ذلك، ولكن العلم يخبرنا بأن المرأة لا علاقة لها بتحديد نوع المولود.

ما من أب أو أم إلا ويتوقان لمعرفة نوع المولود القادم ذكرًا أم أنثى. وقد بقيت هذه المعرفة تعتمد على الخرافات والتنبؤات حتى جاء عصر العلم الحديث ليتمكن العلماء من وضع الأسس الصحيحة لعلم الأجنة واكتشاف أسرار عملية الحمل والولادة وتطور الجنين وتحديد نوعه وكيف تتم هذه العمليات بدقة فائقة.

فقد تبين أخيرًا أن نطفة الرجل هي المسؤولة عن تحديد نوع الجنين، وليس لبويضة الأنثى من تأثير على ذلك. فنطفة الرجل تحتوي على صفة الذكورة أو الأنوثة، أما بويضة المرأة فلا تحتوي إلا صفة الأنوثة دائمًا.

لذلك عندما تلتقي نطفة الرجل مع بويضة المرأة وتلقحها يتحدد جنس الجنين حسب ما تحمله هذه النطفة، ولدينا احتمالان:

- نطفة مذكرة مع بويضة مؤنثة: المولود ذكر.
- نطفة مؤنثة مع بويضة مؤنثة: المولود أنثى.

وهنا نجد حقيقتين علميتين أولاهما أن الجنين يتم خلقه من نطفة واحدة وليس من المنى كله. والثانية أن هذه النطفة هي التي تحدد نوع المولود.

والعجيب في كتاب الله وهو كتاب العجائب، أنه قد تحدث عن هاتين الحقيقتين بدقة، يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ إِنَّ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُنْفَخُ﴾ (النجم: ٤٥-٤٦). إذن الذكر والأنثى خلقهما الله من نطفة الرجل.

وفي نص آخر نجد الحقيقة ذاتها تتكرر في خطاب الله للإنسان: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۚ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنٍ ۚ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۚ ۞ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ﴾ (القيامة: ٣٦-٣٩). وتأمل معي قوله تعالى: ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ﴾ ولم يقل: (فجعل منها الزوجين)، وهذه إشارة إلى الرجل ونطفته وأنه هو المسؤول عن تحديد جنس الجنين، وهو ما أثبتته العلماء حديثًا، ولم يكن لأحد علم به زمن النبي ﷺ.

السراب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).

السراب هو الشعاع الذي يُرى وسط النهار عند اشتداد الحر في الفلوات الواسعة؛ كأنه ماء سارب^(١) وهو ليس بشيء، والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت وفيه يكون السراب، وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء وجمعه قيعان.

وفي هذه الآية صورة بيانية لكل كافر يأمل نجاته بما قدم بغير إيمان من أعمال خيِّرة، فجاء تشبيه عمله بالسراب وانتهى به الحال للهلاك في قيط الصحراء القاحلة، فهذا مثلٌ ضربه الله ﷻ لكفار، يعولون على ثواب أعمالهم فإذا قدموا على الله ﷻ وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر، أي لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها فهو يهلك، وفي التمثيل تلازم السراب والقيعة، ودل السياق أنها شرط لوقوع السراب وتحقيقه جلياً.

الحقيقة العلمية:

القيعة هي السطح المستوي الذي يعمل عمل المرآة، وبالفعل هنا فإن علم الفيزياء يؤكد حديثاً شرط استواء السطح لوقوع السراب. ففي البحار قد تشاهد المراكب البعيدة في مستوى أعلى نتيجة وجود هواء أكثف يعلو سطح البحر يكسر الأشعة، وفي الصحاري الحارة قد تشاهد صورة سفلية معكوسة للأجسام البعيدة نتيجة تداخل الهواء فوق الأرض، فيرتفع الهواء الأكثف ويكسر الأشعة، ولا يحدث السراب إلا بتداخل الهواء الأسفل في جو حار، ويلزم وجود أرض مستوية ومنبسطة تعكس الأشعة كالمرآة، وفي أرض مستوية تعمل كمرآة تبدو صورة السحب بهيئة ماء.

(١) سَرَب الماء ونحوه: جرى وسال.

وجه الإعجاز:

صحيح أن السراب كظاهرة طبيعية كان مما عهده الناس منذ القدم، ولكن لم يكونوا على دراية بحقيقته وأنه يشترط لحصوله انبساط السطح المرئي ووجود الحر الذي يخلخل طبقات الجو، مما أشارت إليه الآية بلفظ «بِقِيعَةٍ» و«يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً» والقيعة هو المنبسط من الأرض، والظماً يكون حالة الحر، وجاءت الكشف الفيزيائية في الوقت الحاضر لتثبت أن هذه الظاهرة يشترط لها الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، ووجود الحر بحيث تتخلخل طبقات الجو فتحدث انكسارات تنتهي بانعكاس الأشعة المرئية وما يرافقها من صور معكوسة، وهو حقيقة السراب الذي ذكرته الآية منذ أربعة عشر قرناً.

سُقفاً من فضة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات (٧ / ٢٢٦): «قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ - هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ - ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أَي: سَلَامٌ وَدَرَجًا مِنْ فِضَّةٍ - قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ - ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أَي: يَصْعَدُونَ. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أَي: أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ أَي: جَمِيعُ ذَلِكَ يَكُونُ فِضَّةً، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أَي: وَذَهَبًا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَي: يُعَجِّلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَآكِلَ وَمَشَارِبَ، لِيُؤَافُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُمْ: فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ». اهـ باختصار.

هل يمكن استخدام مادة معمارية في بناء مبنى أو صرح بحيث أن استخدام هذه المادة بكيفية تصميمية معينة تؤدي إلى فتنة الإنسان فينتقل من الكفر إلى الإيمان إن كان كافراً، أو من الإيمان إلى الكفر إن كان مؤمناً؟

يمكن الإجابة على السؤال السابق من خلال تدبر بعض الآيات التي وردت في قصص القرآن الكريم، فها هي الآيات الكريمة تصف لنا الصرح (السليمانى) الذي أقامه سليمان عليه السلام، لاستقبال بلقيس ملكة سبأ في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، لقد كان هذا الصرح صحناً من زجاج تحته ماء ليرىها ملوكاً أعظم من ملكها، وحكى أبو عبيدة: أن الصرح كل بناء عال مرتفع عن الأرض وأن الممرد المحكوك الأملس.

فالآية الكريمة السابقة توضح أن سيدنا سليمان عليه السلام قد استخدم هذا الصرح المعماري، الذي يعكس قمة الجمال والإبداع الفني، كوسيلة وأداة لدعوة ملكة سبأ الكافرة للدخول في الإسلام والإيمان بالله ﷻ، وأن استخدامه لمادة البللور (الزجاج) كان سبباً في انبهار بلقيس ملكة سبأ بهذا الصرح وإسلامها مع سليمان لرب العالمين كما أخبرت بذلك الآيات الكريمة، وهذا يعنى إمكانية استخدام مادة معمارية بأسلوب تصميمي معين واعتماداً على صفاتها الطبيعية لتكون سبباً في إيهار الإنسان وفتنته فينتقل من الكفر إلى الإيمان إن كان كافراً، أو من الإيمان إلى الكفر إن كان مؤمناً.

والمثال القرآني السابق يوضح ويؤكد على أن استخدام مادة الفضة في بناء أو كمادة تشطيب (نحو) نهائية لهذه البيوت يمكن أن يكون سبباً في فتنة الناس ومنهم

المؤمنين أو على الأقل بعضهم فيصبحوا جميعاً أمة واحدة على الكفر كما أخبرت الآية الكريمة من سورة الزخرف.

من أوجه الإعجاز العلمي في اختيار معدن الفضة بالذات:

لكي نوضح جوانب الإعجاز العلمي في اختيار الله سبحانه وتعالى لمعدن الفضة، كمادة يمكن استعمالها في تشطيب (نهو) السطح الخارجي لسقوف بيوت الكفار، فإن هذا يوجب التعرف على بعض خصائص هذا المعدن. فالفضة فلز لونه أبيض ناصع جداً إذا كان نقيّاً، وتتفوق الفضة على بقية الفلزات بعدة خصائص منها ما يلي:

- الفضة هي أفضل الفلزات في القدرة على نقل الحرارة وتوصيلها، ولاينازعها في هذه الصفة فلز آخر أو حتى أي مادة مصنعة كيميائياً، ولهذا فهي تتخذ مرجعاً قياسيًّا لمقارنة موصلية العناصر الأخرى بها.
- الفضة هي أفضل الفلزات في توصيل الكهرباء وأقلها مقاومة لمرور التيار الكهربائي، لذلك تستخدم الفضة على نطاق واسع في صناعة الأجهزة الكهربائية.
- للفضة قدرة عالية جداً على عكس الضوء المرئي، ولهذا تستخدم في صناعة المرايا، ويمكن ترسيبها لهذا الغرض على الزجاج أو بعض الفلزات الأخرى عن طريق الترسيب الكيميائي أو الكهربائي أو بالتبخير، وحينما يكون ترسيبها حديث العهد فإنها تكون أفضل عاكس معروف للضوء.
- الفضة هي أكثر الفلزات بياضاً.
- للفضة رنين صوتي جميل ومتميز، وهو أفضل من رنين أي فلز آخر بما في ذلك الذهب.
- أحد الخواص العظيمة للفضة هي قدرتها على قتل البكتريا، فهي عنصر سام وقتال للميكروبات في العادة ولكنها لا تضر الكائنات الحية الأرقى مثل الرئيسيات والإنسان.

مما سبق نجد أن اختيار معدن الفضة لأسقف بيوت الكفار يعتبر إعجازاً علمياً بكل المعايير نظراً للخصائص الهندسية الفريدة التي تتميز بها الفضة على غيرها من الفلزات ومنها بالطبع الذهب، ولكن يبرز هنا سؤال هام. كيف يمكن أن يؤدي استعمال الفضة كأسقف لبيوت الكفار أن يجعل الناس أمة واحدة على الكفر؟

إن الإجابة تكمن في خاصيتين هامتين تتميز بهما الفضة، الخاصية الأولى هي أنها أكثر الفلزات بياضاً، والخاصية الثانية أنها عندما يكون ترسيبها حديث العهد فإنها تكون أفضل عاكس معروف للضوء، وهذا يعني أنه عندما تسقط أشعة الشمس على أسقف بيوت الكافرين أثناء النهار فإنها تنعكس انعكاساً شديداً، ولا شك أن ذكر الأسقف ما هو إلا إشارة إلى أحد عناصر المبنى، لأن من يستطيع استخدام الفضة في الأسقف فإنه يسهل عليه استخدامها في الحوائط والأبواب والنوافذ أيضاً.

كما أن الآية الكريمة قد ذكرت البيوت بصيغة الجمع مما يدل على أن هذه البيوت تتجمع معاً لتكون مجموعة سكنية أو حياً سكنياً، وبذلك تظهر هذه البيوت من شدة الانعكاسات كالنجوم المتلألئة، ومن شدة هذه الانعكاسات يمكن أن تظهر هذه البيوت في أوقات معينة وكأن النور ينبعث منها، وكما هو معروف فإن النور يرمز في الدين الإسلامي إلى الهداية، أما ليلاً فإنه مع التقدم الفني واستخدام الإضاءة الصناعية يمكن أن يستمر وجود هذه الانعكاسات بالليل أيضاً، فكلما نظر الناس لهذه البيوت سواء بالنهار أو الليل وجدوها تتلألأ وربما خيل إليهم أن النور يخرج منها.

وفي هذه اللحظة تحدث الفتنة للناس، فمنهم من يخرج من الإيمان ويتنقل للكفر طمعاً في التمتع بهذه الزينة الدنيوية المبهرة، وهذا الفريق يشبه القوم من بني إسرائيل الذي اغتر بزينة قارون عندما خرج على قومه وتمنوا أن يكون لهم مثلما أوتى قارون، وفريق آخر ينتقل من الإيمان إلى الكفر لفساد عقيدته حيث يرى أن بيوت الكفار تتلألأ ليل نهار في حين أن بيوت المسلمين لا تكون على نفس الشاكلة فيعتقد أن هؤلاء الكفار على الحق وأن الله ﷻ قد كافئهم بأن جعل بيوتهم كالنجوم المنيرة.

وهنا يمكن أن نسأل سؤالاً هاماً: إذا كان استخدام معدن الفضة بخصائصه المتميزة السابقة يمكن أن يفتن الناس لدرجة تصل إلى جعلهم أمة واحدة على الكفر، فما الذي يمنع الكفار من استخدام هذه المادة حتى الآن؟

إن الإجابة على السؤال السابق تنبع من بعض خصائص الفضة سواء على مستوى تواجدها في الطبيعة، أو في بعض خصائصها الطبيعية، فمعدن الفضة يعتبر أندر معدن في القشرة الأرضية (تمثل نسبة وجوده حوالي ٠,٠٠٠٠٤ فقط)، باستثناء عنصر الزئبق فقط والذي يعتبر أقل تواجداً منها في عناصر تكوين الأرض، وهذا يعنى التكلفة العالية جداً في حالة استخدام الفضة في تشطيب (نهو) أسقف البيوت وحوائطها وأبوابها ونوافذها أو في بعض العناصر المعمارية الداخلية، لأن هذه العناصر المعمارية تكون ذات مساحات كبيرة مما يستلزم استخدام كميات كبيرة جداً من معدن الفضة لكسوتها.

وإذا كان من خصائص الفضة الطبيعية، أنها أكثر المعادن على الإطلاق قدرة على عكس الضوء (بنسبة حوالي ٩٥٪)، فإن هذا يؤدي إلى التأثير على حاسة البصر بمرور الوقت لمن ينظر إلى بيوت الكفار لو تم استخدام هذه المادة، أي أن استخدام معدن الفضة سيكون له من التأثير السلبي على ساكني هذه البيوت وهم الكفار لدرجة يمكن أن تصل إلى إضعاف حاسة الإبصار أو فقدها بمرور الوقت نتيجة للمعيشة في بيوت وأحياء سكنية تستخدم الفضة في تشطيبها.

وهذا هو ما سوف يحدث في حالة أن يكون الهواء غير ملوثاً، ولكن في حالة وجود مركبات الكبريت أو الأوزون في الهواء (خاصة في المناطق الصناعية أو المدن الكبرى) فإن بريق الفضة ينطفئ وهي الظاهرة المعروفة (بتطويس) الفضة، حيث يتسبب وجود هذه المركبات في الهواء في تكوين طبقة رمادية أو سوداء على سطح الفضة من كبريتيد الفضة تُفقد الفضة بريقها المعروف، ونظراً لتفاقم مشكلات تلوث الهواء في العصر الحديث بهذه المركبات الكبريتية فإن هذه الظاهرة أصبحت أكثر انتشاراً عما

مضى، وهو ما يُفقد معدن الفضة أهم خاصية له في سياق استخدامها في بيوت الكافرين وهى خاصية اللمعان وعكس الضوء المرئي.

ويمكن أن نضيف إلى العوامل السابقة التي تمنع استخدام معدن الفضة في بيوت الكافرين كما ورد بالآية الكريمة، عاملاً آخر وهو قدرة الفضة على نقل الحرارة وتوصيلها وتفوقها على أي فلز آخر في هذه الخاصية بما فيه النحاس أو الذهب، مما يعنى أن هذه الأسقف أو الحوائط أو الأبواب وغيرها من العناصر المعمارية عندما تسقط عليها أشعة الشمس فإن درجة حرارتها سترتفع بنسبة كبيرة تُعيق من استعمالها وهو ما يتعارض مع أداء وظائفها داخل هذه البيوت، بل ويؤدى إلى تحويل هذه البيوت إلى أفران حرارية يستحيل الإقامة فيها.

مما سبق يتضح لنا بعض جوانب الإعجاز القرآني في اختيار معدن الفضة بالذات، حيث إن بعض خصائصه ترشحه لأن يكون مادة مبهرة في شكلها خاصة تحت الضوء الطبيعي نهاراً أو تحت التعرض للإضاءة الصناعية ليلاً، ولكن له من الخصائص الأخرى التي ذكرناها عاليه مما تمنع استخدامه، وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ۝٣٤﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥).

فمن رحمة الله ﷻ أن يختار معدن الفضة بالذات حيث له خصائص معينة لم تكن معروفة تماماً وكاملة في وقت نزول القرآن، وهذه الخصائص تمنع من أن يستخدمه الكافرون لفتنة عباد الله المؤمنين، وهذا هو الملمح الاعجازي الأول في الآيات الكريمة.

ومن زاوية أخرى فإن الآية الكريمة تحتوى على وجه آخر من أوجه الإعجاز ألا وهو الإشارة المستقبلية إلى إمكانية استخدام المعادن بصورة أساسية في عناصر المباني المختلفة، كالأسقف والحوائط والأبواب وغيرها، وهذا سبق للقرآن الكريم حيث أن البشرية وقت نزول القرآن الكريم كانت تستعمل في إنشاء المباني مادة الحجر

أو الطوب أو الخشب بصفة أساسية، ولم تكن تعرف استعمال المواد المعدنية بصورة أساسية في إقامة المباني أو تشطبيها.

فلو كان هذا القرآن من قول البشر فكيف يمكن لأي إنسان أن يتخيل إمكانية استخدام هذه المعادن بصورة أساسية في المباني كما حدث في القرن العشرين، حيث نجد نماذج لمبانٍ تستخدم بعض أنواع المعادن في كسوة أسقف وحوائط المباني بصورة متكاملة، ويتم اعتبار هذا الأسلوب المعماري من أحدث الأساليب التصميمية في القرن العشرين. إن الإجابة ببساطة تكمن في أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على رسوله الكريم ﷺ.

فالك نوح عليه السلام في تركيا وحقائقها الثمانية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ①﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ② فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَدُسِّرَ ⑤ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑦ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑧ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرْعَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑨ (القمر: ٩-١٧).

أغلب التفاسير فسرت الضمير في قوله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ على أنه يعود إلى السفينة، ومن التفاسير ما رأى أن الضمير عائد على القصة نفسها والعبرة منها، ومنها ما ذكر أن الضمير قد يعود على السفينة أو القصة أو جنس السفن؛ أي أبقى الله جنس السفن من بعد سفينة نوح تحمل الناس حتى يومنا.

اكتشاف السفينة:

لقد تم بالفعل اكتشاف بقايا سفينة نوح وطابعها - كما تنبأ القرآن الكريم - فوق جبل في بلاد الأكراد جنوب تركيا على بعد ٨ كم من حدود العراق، وذلك على يد بعثة علمية قادها عالما آثار أمريكيان هاويان هما: "رون وايات" و"ديفيد فاسولد" بعد عمل طويل منذ عام ١٩٧٨ م. ولقد تبين بالفعل أن لهذا الكشف ثمانية حقائق سنجدتها تتطابق كلها مع ما ذكره القرآن الكريم:

١- موقع السفينة:

ذكر القرآن الكريم الموقع الذي بقيت فيه سفينة نوح ثم أتت الكشف الأثرية الحديثة لتثبت ما ذهب إليه القرآن. ففي عام ١٩٤٨م حدث زلزال في منطقة الجودي بجنوب تركيا جعل أرضاً مستوية كان يزرعها فلاح تركي ترتفع مُظهرٌ شكل سفينة أو طابع سفينة كبيرة.

ثم التقط طيار صورة للموقع عام ١٩٥٩م أظهرت أثر السفينة، ثم وجدت بالفعل بعثة علمية أمريكية برئاسة "رون وايات" طابع السفينة كاملاً فوق جبل الجودي.

المعلومات السابقة مصدرها فيلم وثائقي أمريكي بعنوان:

"The Discovery of Noah's ark"، أي "اكتشاف سفينة نوح" وقد صدر عام ١٩٩٧م).

٢- حجم السفينة:

المصطلح المفضل في القرآن الكريم لسفينة نوح هو "الفلك"، إذ ذكر ثمان مرات، والفلك قياساً اصطلاحاً للسفينة الكبيرة، وهو ما تحقق في الكشف سالف الذكر إذ تبين أن طوله ٥٥٠ قدماً أي أكبر من أية سفينة خشبية عرفها الناس وهي السفينة الأمريكية "وايومنج" التي وصل طولها إلى ٣٣٠ قدماً فقط وهي من سفن القرن التاسع عشر.

٣- شكل السفينة:

أخطأت التوراة المحرفة في وصفها لشكل سفينة نوح؛ إذ نجد فيها الطول ستة أضعاف العرض! فهي إذاً مستطيلة جداً وهم يرسمونها كذلك، ولو واجهت هذه السفينة أمواجاً عاتية لانفلقت؛ لأن المقدمة مستوية، هذا ما يجزم به علماء هندسة السفن و"الديناميكا المائية". وهذا أيضاً ما ذكره الفيلم الوثائقي الأمريكي سالف الذكر.

وبما أن القرآن هو المهيمن والمصحح لسابقه زمناً من الكتب، فقد صحح هذا الخطأ بلطف شديد، إذ عبر القرآن الكريم عن وعاء نوح ثمان مرات بالفلك، وفي مرة

واحدة ذكر "السفينة" قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٥)؛ وذلك لإظهار جزئية شكل ذلك البناء الذي يُمخر المياه والذي صنعه نوح، وهو أنه شكل السفن الحالية التي لها مقدمة شبه مدببة تقشر وجه الماء، فالسفن هو القشر في المعاجم. ولم ترد كلمة سفينة في القرآن مرة أخرى إلا في قصة موسى والخضر في سورة الكهف ثلاث مرات.

إن العهد القديم والإنجيل يصفانها بالتابوت أي الصندوق المستطيل مثل تابوت العهد. وذلك مستحيل؛ لأن ذلك يجعلها تتكسر أمام الأمواج. وصدق شكل أثر السفينة على ما ذهب إليه القرآن الكريم وأنها ليست على هيئة صندوق كما تقول التوراة الحالية.

٤- أبعاد السفينة:

لا يُستبعد بعد ذلك أن تكون هناك أبعاد وتفاصيل بناء بسيطة لكنها معجزة في السفينة فقد قال تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ (المؤمنون: ٢٧). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ (هود: ٣٧). أي إن نوح نَقَذ فقط الأوامر الإلهية لصناعة السفينة. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣١٩/٤): ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يَعْنِي: السَّفِينَةَ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي: بِمَرَأَى مِنَّا، ﴿وَوَحِّينَا﴾ أَي: وَتَعْلِيمِنَا لَكَ مَاذَا تَصْنَعُهُ.

وفي الفيلم الوثائقي المذكور آنفاً تشاهد كيف وجدوا أبعاد بقايا السفينة في الجودي في تركيا تستخدم الثوابت الرياضية المعجزة مثل الباي والفاي. وهي الثوابت الرياضية التي بها توزّع حبيبات الزهور ودرجات ميل قرون الأيائل وأمواج البحار. فأني لنوح بهذه العلوم في ذلك الوقت؟ إنها وحي الله ﷻ.

وذكر كذلك الفيلم الوثائقي سالف الذكر أن هذه السفينة كان لها في أسفلها تجويف يسمى "شق القمر" يعمل أولاً على التهوية - مع حركة الماء أسفل وأعلى - كما أنه يعمل على امتصاص قمم الأمواج الحادة فلا تُميد السفينة ميّداً حاداً فتغرق. وهو ما

لا نستبعده لأنه من جملة الشكل والأبعاد المعجزين كما ذكر القرآن الكريم لتواجه هذه السفينة التي تفتقد البناء المعدني والشرع والمحرك بل والربان البشري أمواجاً كالجبال.

٥- استواء السفينة:

حين ظهرت صور طابع السفينة في موقع الجودي كانت مائلة نوعاً ما، والقرآن دقيق في لفظه وقد قال إن السفينة استوت ولم يقل فقط استقرت، والاستواء لا ميل فيه، لكنني حين تسمع شهادة الفلاح الكردي "رشيد" الذي اكتشف السفينة عام ١٩٤٨م يزول اللبس، فقد قال إن هذه الأرض كانت "مستوية" وكانت تزرع، لكن زلزال ذلك العام رفع هذه الكتلة في هزته الثالثة!!.

٦- مراسي السفينة:

ذكر الفيلم الوثائقي سالف الذكر وعلى لسان الباحث الأمريكي "ديفيد فاسولد" أن بعض القرى المجاورة لموقع الجودي بها عدد كبير من الصخور المستطيلة المنحوتة نحتاً بشرياً وبكل منها فتحة علوية لإدخال الحبال وهي مماثلة - كما يرى - للمراسي المستخدمة في السفن القديمة، مثل المرسى الفرعوني الذي وجد على الساحل اللبناني والمحمول الآن في المتحف الوطني في بيروت، كما أنها منتشرة في سواحل البحر الأبيض المتوسط لسفن ما قبل ١٢٠٠ عام قبل الميلاد، مع الفارق أن مراسي سفينة نوح أضعاف وزنها، وهذه القرى تقع على ارتفاع ٦٠٠٠ مترًا من سطح البحر وعلى بعد أميال عديدة منه، فما الذي جاء بها إلى هذا المكان؟

رأى هذا الباحث الأمريكي أن هذه المراسي تعود إلى سفينة نوح التي يقع طابعها وبقاياها قريباً من تلك القرى التي بها المراسي، كما رأى أن هذا هو تحقيق ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

٧- ألواح السفينة:

قال تعالى عن سفينة نوح عليه السلام: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ (القمر: ١٣)، وهو هنا يتفق بديهةً مع سابقه زمنًا من الكتب من أن المادة الأساسية لصنع السفينة هي الأشجار، لكن القرآن الكريم تفرد بذكر هيئة أخشاب هذه الأشجار وهي الألواح، إذ من الممكن أن تكون السفينة قد صنعت من تجميع جذوع الأشجار كما هو حادث في بعض السفن الخشبية التي عرفها الإنسان.

لكن القرآن الكريم حدد هنا وقال: ﴿أَلْوَاحٍ﴾ أي ألواح خشبية، وبالطبع لم تبق هذه الألواح الخشبية على حالها عبر آلاف السنين، فقد "تصخرت" أي بقي شكل نسيج الخشب مع إحلال جزيئات الرمال (silica) بأنسجة الخشب فيما يعرف جيولوجيًا بـ selicification، فيتحول اللوح الخشبي إلى لوح خشبي متحجّر selicified، وهو ما وُجد فعلاً في الموقع، والطبيعة لا نجد فيها لوحًا خشبيًا متحجّرًا بل لا بد أن يكون هذا اللوح من صنع الإنسان قبل أن يتصخر.

٨- دُسْر السفينة:

من أهم ما اكتُشف في موقع السفينة بالجودي وذكره الفيلم الوثائقي سالف الذكر "المسامير" المعدنية، وقد وجدت كبيرة الحجم وعلى هيئة المسمار "البرشام" وبالطبع طراً عليها تغيرات مع الزمن مع تداخل مادة "السيليكا" من محيط السفينة الرملية.

وجدت ذلك بعثة الباحث الأمريكي "رون وايات" في أواخر سبعينات القرن العشرين حين استخدم لأول مرة "كاشف معادن" أشبه بكاشف الألغام في الموقع، ووجدوا دليلاً على ترسبات معدنية داخل الجدران ثم عاود الكرة عام ١٩٨٤م وأخذ عينة من تلك الترسبات وحللها في معامل مختصة فتبين أنها خليط معدني من صنع الإنسان ألا يذكرنا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾؟ والدسار هو المسمار؟

وهذه الجزئية لم يذكرها أي كتاب سوى القرآن الكريم، مع أن قصة نوح كما أسلفنا تذكر ليس فقط في التوراة والكثير من مخطوطات أهل الكتاب، بل والكثير من أدبيات الشعوب القديمة.

ثم استخدم بعد ذلك باحث أمريكي وهو "ديفيد فاسولد" جهازًا آخر للكشف عن المعادن فجمع به النقاط التي بها معادن في موضع السفينة فأعطت شكلًا منتظمًا لهذه المعادن أي أنها تربط بين ألواح منتظمة على هيئة مربعات (شبكة) داخل إطار شكل لسفينة !!

ولا خوف أن يقال إن الإنسان لم يكن يعرف المعادن في ذلك العهد؛ فقد اكتشف أخيرًا أن الإنسان اكتشف بل وصهر خامات المعادن منذ مائة ألف عام على الأقل.

وليست هذه الحقائق الثمانية هي كل حقائق هذا الكشف المعجز ولكنها أوضحها وأهمها، فقد وجدت كذلك البعثات المتكررة للباحثين الأمريكيين خلال ثلاثين عامًا فضلات الحيوانات التي صارت حفريات، كما وجدت عدة "ثقافات".

تساؤل:

كيف لبناء بسيط من الألواح الخشبية والدُّسُر المعدنية، بلا محرك ولا شراع، بلا قائد لأن مهمة نوح انتهت ببناء السفينة بوحي الله ﷻ وحمله فيها الناجين. أما السفينة فقد كانت تجرى بأعين الله تعاني أهوال زخات الماء وكأنها تمر تحت شلال من الشلالات الرهيبة.

ثم لا بد أنهم عانوا بعد ذلك من البرد الشديد نتيجة احتجاب أشعة الشمس، وكذلك ضوءها نتيجة السحب الكثيفة، فركاب تلك السفينة لم يروا لفترة طويلة ضوء الشمس ولم يعرفوا ليلاً ونهارًا. تسير بهم أو بالأحرى تجري في موج كالجبال. فتميل وترتفع وتهبط ولا تغرق. إنها لأهوال وكأنها من أهوال القيامة. نقول كيف لتلك السفينة البسيطة أن تتحمل كل ما ذكرناه آنفًا؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ أَرَكُبُوا فِيهَا إِسْمَ اللَّهِ بِحَرَئِهَا وَمُرْسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

الحجارة التي بُنيت منها الأهرامات:

يقدَّر عدد الحجارة التي تم منها بناء هذا الهرم بعدة ملايين، وكل حجر يبلغ وزنه عدة أطنان، وقد بلغ ارتفاع هذا الهرم أكثر من ١٤٠ مترًا، ولقد حيرت الأهرامات كثيرًا من الباحثين طيلة قرون، إذ كيف تمكَّن بشرٌ من حمل حجارة تزن آلاف الكيلو جرامات ونقلها لارتفاع أكثر من ١٤٠ مترًا؟

وبعد بحثٍ طويلة أجراه أحد العلماء الفرنسيين اقترح أن هذه الحجارة قد صُبَّت من الطين في قوالب خشبية، وبعد سنوات قام أحد العلماء الأمريكيين بالتأكد من صدق هذه الفرضية باستخدام المجهر الإلكتروني وتحليل نماذج من حجارة الأهرامات. لقد استخدم الفراعنة تقنية الطين المسخن لصب هذه الحجارة، وبقيت هذه التقنية سرًّا حتى كشفها القرآن الكريم، لتكون هذه الآية معجزة تشهد على صدق النبي محمد ﷺ.

إن النتيجة التي خرج بها العلماء هي أن تقنية صب الحجارة من طين كانت سائدة زمن الفراعنة، واستخدموها خلال آلاف السنوات في بناء الأهرامات والأبراج والصروح. وهذه التقنية كشفها القرآن من خلال آية جاءت على لسان فرعون يطلب من وزيره هامان أن يوقد له النار على الطين ليصنع صرحًا (بناء مرتفعًا): ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمُونَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

وهذه الآية لا تدل بالضرورة على أن فرعون موسى هو الذي بنى الأهرامات، بل تشير الآية إلى الآلية الهندسية التي كانت معروفة في ذلك الزمن وهي مزج الحجارة الكلسية بالماء (لتشكل الطين) وتسخينها لدرجة حرارة محددة، ومن ثم وضعها في قوالب خشبية وصب الحجارة المطلوبة في أماكنها، وليس حملها ورفعها.

فالقدماء استخدموا الطين (مزيج من التربة المتوافرة في منطقة بناء الهرم مع الماء وإضافة بعض المواد الأخرى لتثبيت وربط جزيئات التراب بقوة) وصب هذا "الإسمنت الطيني" في قوالب خشبية. مع استخدام الحرارة، وذلك للحصول على

حجارة قوية جداً تقاوم عوامل الزمن وتصمد أمام تغير المناخ لآلاف السنين وتبدو للناظر وكأنها حجارة حقيقية.

وهذا ما تحدث عنه القرآن بدقة تامة، في قوله تعالى على لسان فرعون عندما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

هذا النص القرآني يؤكد أن فرعون استخدم هندسة البناء من طين والتي يسميها العلماء اليوم Geopolymer Concrete وعلى الرغم من وجود عدد من الفراعنة ووجود عدد كبير من الأبنية والأهرامات في مصر القديمة، إلا أن القرآن أشار إشارة لطيفة لاستخدام هذه التقنية في بناء الصروح، والصرح حسب معاجم اللغة العربية هو كل بناء مرتفع.

وبالفعل أي بناء مرتفع لا يمكن بناؤه إلا باستخدام هذه التقنية، لأنها أسهل أسلوب في ذلك الزمن، حيث يقوم المهندسون وقتها بتأمين الخلطات الترابية ونقلها بواسطة أعداد كبيرة من العمال ولكن يتم نقل الطين بكميات صغيرة يسهل حملها ورفعها لارتفاعات عالية وصبها ضمن قوالب. بشكل يشبه ما نستخدمه اليوم في الخرسانة الحديثة.

وأخيراً فإن القرآن بذلك يكون أول كتاب يتحدث عن هندسة بناء الأبنية العالية باستخدام الطين والحرارة، سواء في زمن فرعون أو قبله أو بعده، ولكن الإشارة في القرآن دائماً تأتي في سياق قصة من أجل أخذ العبرة والموعظة. وأنتك أيها الإنسان مهما بلغت من القوة والعلم والهندسة. فإن الله أقوى منك وقادر على إهلاكك بلمح البصر. فهل نتواضع أمام عظمة الخالق ﷻ؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: من أين لمحمد ﷺ وهو الذي لم ير الأهرامات ولم يفحصها أو يحلل حجارتهما، من أين له بهذه المعلومة الدقيقة التي ورد ذكرها في القرآن؟ الجواب: الله تعالى هو الذي علمه، وأيّد هذه المعجزة لتكون دليلاً على صدق رسالته في عصرنا هذا!

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ:

أعدت شركة أمريكية فيلماً سينمائياً عن الجهود الأمريكية لغزو القمر - وعنوان هذا الفيلم "خطوة عملاقة لاكتشاف جيولوجيا القمر" ومن أول الفيلم إلى آخره يعرض كيف تمكن العلماء الأمريكيان من أن يكتشفوا أن القمر كان مشتعلاً من قبل، وأنه كان كتلة مشتعلة ثم بردت، وكيف دللوا على ذلك بأن أرسلوا أجهزة إلى القمر لقياس الموجات وأحدثوا موجات صوتية وتحركت الموجات في باطن القمر، وأن قلبه مازال مشتعلاً حتى الآن وأخذوا عينات الصخور من باطنه ومن المرتفعات ومن الجبال والوديان التي بالقمر، وحللوا ودرسوا فوصلوا إلى نتيجة أن القمر كان يوماً ما مشتعلاً وأنه انطفأ.

وأحسن عنوان لهذا قول الله هو تفسير قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: ١٢).

تفسير الآية:

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا، فَمَحَوْنَا علامة الليل - وهي القمر - وجعلنا علامة النهار - وهي الشمس - مضيئة؛ ليبصر الإنسان في ضوء النهار كيف يتصرف في شؤون معاشه، ويخلد في الليل إلى السكن والراحة، وليعلم الناس - من تعاقب الليل والنهار - عدد السنين وحساب الأشهر والأيام، فيرتبون عليها ما يشاؤون من مصالحهم. وكل شيء بيناه تبييناً كافياً.

فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلُمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلُمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾ (يوسف ٤٣ - ٤٩).

معنى الآيات:

وقال الملك: «إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات نحيلات من الهزال، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات، يا أيها السادة والكبراء أخبروني عن هذه الرؤيا، إن كنتم للرؤيا تُفَسِّرون». قالوا: «رؤياك هذه أخلاط أحلام لا تأويل لها، وما نحن بتفسير الأحلام بعالمين».

وقال الذي نجا من القتل من صاحبي يوسف في السجن وتذكر بعد مدة ما نسي من أمر يوسف: «أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا، فابعثوني إلى يوسف لآتيكم بتفسيرها». وعندما وصل الرجل إلى يوسف قال له: «يوسف، أيها الصديق، فسّر لنا رؤيا من رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات نحيلات، ورأى سبع سنبلات خضر وآخر يابسات؛ لعلني أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكانتك وفضلك».

قال يوسف لسائله عن رؤيا الملك: «تفسير هذه الرؤيا أنكم تزرعون سبع سنين متتابة جادّين ليكثر العطاء، فما حصدتم منه في كل مرة فادّخروه، واتركوه في سنبله؛ ليتّم حفظه من التسوس، وليكون أبقي، إلا قليلا مما تأكلونه من الحبوب. ثم يأتي من بعد هذه السنين المجذبة عامٌ يُغَاثُ فيه الناس بالمطر، فيرفع الله تعالى عنهم الشدة، ويعصرون فيه الثمار من كثرة الخصب والنماء».

الحقيقة العلمية:

يعد مفهوم تخزين البذور في السنابل نظامًا أساسيًا للحفاظ على الإنتاج في ظروف بيئية قاسية. وهذا ما يجمع بين الزراعة وتقنيات التخزين والحفاظ على المنتج. وقد أجري الدكتور عبد المجيد بلعابد وزملاؤه بجامعة الرباط بالمغرب بحثًا تجريبيًا حول بذور قمح تُركت في سنابلها لمدة تصل إلى سنتين مقارنةً مع بذور مجردة من

سنابلها، وأظهرت النتائج الأولية أن السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير صحي وبقيت حالتها ١٠٠٪.

مع العلم أن مكان التخزين كان عادياً ولم يراعَ فيه أي شروط للحرارة أو الرطوبة أو غير ذلك. وفي هذا الإطار تبين أن البذور التي تُركت في سنابلها فقدت كمية مهمة من الماء وأصبحت جافة مع مرور الوقت بالمقارنة مع البذور المعزولة من سنابلها، وهذا يعني أن نسبة من وزن القمح المجرد من سنبله مكون من الماء مما يؤثر سلباً على مقدرة هذه البذور من ناحية زرعها ونموها ومن ناحية قدرتها الغذائية لأن وجود الماء يسهل من تعفنه وترديه صحياً.

ثم قام الباحثون بمقارنة مميزات النمو (طول الجذور وطول الجذوع) بين بذور بقيت في سنابلها وأخرى مجردة منها لمدة تصل إلى سنتين فتبين أن البذور في السنابل هي أحسن نمواً بنسبة ٢٠٪ بالنسبة لطول الجذور و ٣٢٪ بالنسبة لطول الجذوع.

ثم قام الباحثون بتقدير البروتينات والسكريات العامة التي تبقى بدون تغيير أو نقصان ففي البذور التي عُزلت من السنابل انخفضت كميتها بنسبة ٣٢٪ من البروتينات بعد سنتين وبنسبة ٢٠٪ بعد سنة واحدة. بينما لم تتغير هذه المركبات في البذور المحفوظة في سنابلها.

وجه الإعجاز:

قال تعالى: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ إفادة أن التخزين بإبقاء الحبوب في سنابلها هو أحسن التقنيات والأساليب للحفاظ على الحبوب المحفوظة داخل السنابل من غير أن ينال منها الزمن.

هناك ملحوظتان علميتان في هذه الآية الكريمة:

1- تحديد مدة صلاحية حبة الزرع في خمس عشرة سنة هي حصيلة سبع سنوات يزرع الناس ويحصدون خلالها دأباً وتتابعاً وهي سنوات الخصب والعتاء، يليها سبع سنوات شداد عجاف هي سنوات الجفاف يليها سنة واحدة هي السنة الخامسة عشرة وفيها يغاث الناس وفيها يعصرون من الفواكه، وقد أفاد البحث العلمي

أن مدة ١٥ سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو والتطور فيها.

٢- طريقة التخزين وهو قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ وهي الطريقة العلمية التي أجريت في البحث التجريبي. وبه يتبين أن أحسن وأفضل تخزين للبذور هي الطريقة التي أشار بها نبي الله يوسف عليه السلام وهي من وحي الله له.

ومن المعلوم أن هذه الطريقة لم تكن مُتَّبَعَةً في القدم وخاصة عند المصريين القدامى الذين كانوا يخزنون الحبوب على شكل بذور معزولة عن سنابلها، وهذا يعتبر وجهاً من وجوه الإعجاز العلمي في تخزين البذور والحبوب في السنابل حتى لا يطرأ عليها أي تغير أو فساد. وذكر القرآن لهذه الظاهرة يؤكد عظمتها ودقة ما فيه من علم، وأنه وحي من الله.

الإعجاز العلمي في التخطيط الاستراتيجي واعداد الموازنات:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوسِهَا إِن كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِ يَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ (يوسف ٤٣ - ٤٩).

عرف الفكر الإسلامي الموازنة التخطيطية وقدر الاحتياجات والإيرادات اللازمة لتغطيتها كما ورد في قصة يوسف عليه السلام والتي حكاها القرآن الكريم. وقد أرسى يوسف عليه السلام ملك مصر موازنة تخطيطية توافرت لها الأصول العلمية والعملية وأزن فيها الانتاج الزراعي (الإيرادات) والنفقات الاستهلاكية بهدف مواجهة المخاطر

المحتملة من المجاعة المتوقعة. وقد وضع يوسف عليه السلام نظامًا استمر تطبيقه خمسة عشر عامًا، وفي الآيات المباركات نجد مشروعًا له ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تستمر سبع سنوات حدد يوسف عليه السلام معالمها كالآتي:

- خطة الإنتاج: ﴿تَزْعُونَ﴾ (الزراعة).
- مدة الإنتاج: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.
- مستوى الإنتاج: ﴿دَابًّا﴾ عملاً دائماً متواصلاً.
- زيادة المدخرات: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.
- تقييد الاستهلاك: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ﴾.

المرحلة الثانية: تستمر سبع سنوات حدد أهم معالمها كالآتي:

- تقييد وتنظيم الاستهلاك: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾.

- الاستعداد لإعادة الاستثمار: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي هذه هي البذور التي ينبغي أن تحافظوا عليها.

المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾، أي

يبيذرون ما احتفظوا به في سنبله من قبل سبع سنين، فإذا ما ارتفع النبات وغطى الأرض وزكا الثمر جمعه وعصروا زيوتهم وفاكهتهم.

ومن هذا نستشف أن خطة يوسف عليه السلام كانت تستهدف المجتمع بأسره ﴿تَزْعُونَ﴾ وإرادته الحكيمة متوجهة لإيجاد صفات في ذلك المجتمع تمكن من تحقيق الهدف المرسوم واجتثاث أي عائق في سبيل التنمية ومن ذلك:

١ - زيادة ساعات العمل وزيادة استثمار الطاقة الإنتاجية للأمة خلال المرحلة

الأولى بأكملها، يتبين ذلك من خلال قوله: ﴿تَزْعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ والدأب في اللغة

يعني العادة والاستمرار. وهذا يستدعي محاربة البطالة بجميع أنواعها ولاسيما البطالة المقنعة التي تُظهر المجتمع بغير صورته الحقيقية ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

٢ - تنمية الوعي الادخاري كما يُبينه قوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ﴾.

لقد اكتملت للموازنة التي أرسى يوسف عليه السلام أسسها وقواعدها أركان الموازنة التخطيطية وتفصيل ذلك إن مفهوم الموازنة التخطيطية إنما يقوم على فكرة التوازن والموازنة، وقد قام يوسف عليه السلام بالموازنة بين الإنتاج الزراعي والاستهلاك في ضوء الظروف المتاحة وذلك بغرض تخطي الجذب والقحط.

إن موازنة يوسف عليه السلام قد توافر لها مبدأ المشاركة، باشتراك المستويات الإدارية في المسؤولية مسئولية مباشرة عن تحقيق الخطة في مراحل إعدادها وتنفيذها. ولقد استنبط ذلك من مخاطبته لرسول الملك بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، ﴿حَصَدْتُمْ﴾، ﴿فَذَرُوهُ﴾، ﴿تُخْصِنُونَ﴾، إذ الخطاب هنا بصيغة الجمع، أي للناس المخاطبين جميعاً وليس بصيغة المفرد. أي لجميع الناس والمسؤولين وهذه إشارة إلى ضرورة اشتراك كافة المستويات الإدارية - عليا ووسطى وتنفيذية - في إعداد الموازنة التخطيطية.

إن موازنة يوسف عليه السلام قد توافر لها مبدأ توفير الحوافز، ومبدأ الواقعية في الأهداف، وتناسبها مع الإمكانيات، ذلك أنه وقد وضح للناس أن سنوات كساد سبع ستعقب الرخاء، حمل إليهم البشري تَطْمَئِنُّهُمْ وتحفزهم، وهي أن هذه الأزمة إلى انقطاع، إذ سيأتي على الناس عام فيه يغاثون ويرزقون وفيه يعصرون، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾.

فوائد العسل:

لقد حظي النحل والعسل بحظ وافر من اهتمام العلماء والمتخصصين، فلم تقتصر الدراسة على أنواع العسل وما يحمله من مواد نافعة لكثير من الأمراض والعاهات؛ بل تعدى ذلك إلى دراسة الكائن الذي يولد هذه المادة وهي النحل، ولم تكن هذه الدراسات وليدة اليوم أو أمس بل كان الاهتمام بها منذ قديم الزمن.

ولقد أثبتت البحوث الطبيّة والعلمية الآثار الفعّالة للعسل في علاج وشفاء الأمراض الكثيرة. وقد وردت في القرآن الكريم الإشارة إلى فائدة هذا السائل العجيب، في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩). وصح عن النبي ﷺ أنه أوصى بتناول العسل، وقد أورد الأطباء بحوثاً متعددة عن الاستشفاء بالعسل.

لقد بيّن القرآن الكريم سيرة النحل في كلمات معدودات، فقد اتخذ النحل بوحى من الله تعالى بيوتاً من الجبال ثم انحدر منها إلى الأشجار، ثم إلى الخلايا التي يصنعها على نحو ما نعرفه اليوم، وتدل الدراسات العلمية المستفيضة لمملكة النحل أن إلهام الله تعالى لها يجعلها تطير بحثاً عن الغذاء فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار، ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها بالذهاب إلى خلية ثانية غيرها، علماً بأن الخلايا في المناحل تكون متشابهة ومرصوص بعضها إلى جوار بعض، وذلك لأن الله تعالى قد ذلل لها الطريق ومنحها من قدرات التكيف الوظيفي والسلوكي ما يعينها على الاستبصار في رحلات استكشاف الغذاء وجنيّه ثم العودة.

الحقائق العلمية:

تضم الخلية التي هي بمثابة مستعمرة يعيش فيها النحل، ملكة واحدة، وبضع مئات من الذكور، وعشرات الألوّف من الشغالات، وتطير النحلة الشغالة بحثاً عن الغذاء، فإذا وجدته عيّنت مكانه وأخذت معها عيّنة للخلية، وتقوم بنقل المعلومات لبقية الفريق عن طريق حركات معينة تحدد بها بعد مصدر الغذاء واتجاهه، فيسعى

النحل إليه مباشرة ويجمع ما يكفيه، ولكي تجمع النحل مائة جرام من العسل لا بد من زيارة نحو مليون زهرة.

ثم يقوم فريق آخر من الشغالات بالتهوية بأجنحتها لتطير الرطوبة ويتركز السائل فيصير عسلاً، وبعد ذلك يقوم فريق آخر من النحل بالتأكد من أن العسل قد نضج، فيغلق العيون السداسية بطبقة رقيقة من الشمع لتحفظ به نظيفاً حتى تحتاج إليه في الشتاء عندما تملأ الحقول من الأزهار.

وقد ثبت أن اختلاف تركيب التربة والمراعي التي يسلكها النحل يؤثر تأثيراً كبيراً في لون العسل، فالعسل الناتج من رحيق أزهار القطن مثلاً يكون قائماً، بخلاف عسل أزهار البرسيم الذي يكون فاتح اللون، وعسل شجر التفاح ذي اللون الأصفر الباهت، وعسل التوت الأسود ذي اللون الأبيض كالماء، وعسل أزهار النعناع العطري ذي اللون العنبري، وغير ذلك.

وفي رحلة الاستكشاف لجمع الغذاء تستعين الشغالة بحواسها التي منحها الله إياها بحاسة شم قوية عن طريق قرني الاستشعار، وهي تمتاز على العين البشرية في إحساسها بالأشعة فوق البنفسجية، لذلك فهي ترى ما لا تراه عيوننا ولا يمكننا الكشف عنه إلا بتصويره بالأشعة فوق البنفسجية، ثم إذا حطت على زهرة يانعة استطاعت أن تتذوق رحيقها وتحدد بفطرتها مقدار حلاوته.

وفي رحلة العودة تهتدي النحلة إلى مسكنها بحاستي النظر والشم معاً، أما حاسة الشم فتتعرف على الرائحة الخاصة المميزة للخلية، وأما حاسة الإبصار فتساعد على تذكر معالم رحلة الاستكشاف، إذ يلاحظ أن النحلة عندما تغادر البيت تستدير إليه وتقف أو تحلق أمامه فترة وكأنها تتفحصه وتتمعنه حتى ينطبع في ذاكرتها، ثم بعد ذلك تطير من حوله في دوائر تأخذ في الاتساع شيئاً فشيئاً، وعندما تعود إلى البيت تخبر عشيرتها بتفاصيل رحلتها، وتدل زميلاتها على مكان الغذاء فينطلقن تبعاً لجني الرحيق من الزهور والإكثار منه لادخاره لوقت الشتاء بمرده القارص وغذائه الشحيح.

ولعل أغرب ما اكتشفه العلم الحديث في عالم الحشرات هو أن للنحل لغة خاصة يتفاهم بها عن طريق الرقص شرحها عالم ألماني ضمن كتابه المسمى "حياة النحل الراقص" بعد دراسات استمرت نحوًا من عام، فنال جائزة نوبل عام ١٩٧٣ م.

فقد تبين لهذا العالم أن للنحلة الشغالة في جسمها من الأجهزة ما يجعلها تستطيع قياس المسافات والأبعاد والزوايا بين قرص الشمس والخلية، ثم إنها تستخدم لغة سرية في التخاطب عن طريق رقصات خاصة معبرة تُنبئ بها أخواتها عن وجود الرحيق الحلو وتحدد لهن موضعه تحديداً دقيقاً من حيث زاوية الاتجاه إليه وبعده عن بيتها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، الوحي: الإلهام والهداية، وبالفعل تجد أن سلوك النحل واختياره لمواقع سكنه واهتدائه لأماكن الغذاء وصناعته للعسل يتم بناء على إلهام وهداية من الله تبارك وتعالى، فنجد أن الشغالات تكون خادمة منظفة للمسكن في همة ونشاط، مربية تطعم الصغار وتسهر على راحتهم، مهندسة بارعة في البناء والتصميم، تفوق أمهر المهندسين وتتفوق على أجهزة العصر في دقة القياسات، حارسة أمينة تضحي بنفسها دون تردد أو فتور ضد أي عدو يهدد أمن العشيرة.

وقد يستأنس بعض الباحثين بوجود ياء الخطاب «أَنْحِزِي»، «كُلِي»، «فَأَسْأَلُكِ» فيستدل بذلك على ما أثبتته العلم الحديث من أن العمل إنما يقوم به إناث النحل (الشغالات) وهو استئناس متحفّظٌ عليه لغةً فالياء ليست ياء الأنثى، وإنما هي ياء خطاب الجنس الذي يشمل خطاب الذكور والإناث والمذكر والمؤنث، مع التسليم للحقيقة العلمية المتمثلة في أن من يقوم بالعمل بالفعل هن الشغالات الإناث، أما الذكور فإن عملها يقتصر على التسابق لتلقيح الملكة فقط في موسم التزاوج، ومهمة الملكة وضع البيض، أما الشغالة فهي أنثى عقيمة، وأجزاء فومها مهيأة لجمع الرحيق وأرجلها الخلفية معدة لجمع حبوب اللقاح، وهي مزودة بالغدد تحت البلعوم لإفراز الغذاء الملكي مع غدد إفراز الشمع وغدة الرائحة، والشغالات الكشافة هي التي تخرج للبحث عن مصادر الغذاء، ثم تعود لتخبر رفاقها بالمعلومات اللازمة عن هذا الغذاء.

ما هو العسل؟

العسل تخرجه النحلة من فمها، حيث تفرز النحلة يوميًا ما يقرب من عشرة جرامات عسل، ويحتاج صنع كيلوجرام واحد من العسل إلى حوالي ٣٠٠ نحلة تقوم بـ ٤٠ رحلة طيران، ويحتوي عسل النحل على خمس وزن تقريبًا ماء كما يحتوي على البروتين وحوالي أربعة أخماسه كربوهيدرات، كما يحتوي على مقادير من فيتامين "ب" المركب وفيتامين "ج" ومقادير من الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والمنجنيز والحديد والنحاس والفسفور والكبريت.

بعد أن تمتص النحلة الرحيق من الزهرة تخرج لسانها أثناء عودتها لكي تعرضه لأشعة الشمس للمساعدة على تبخر الماء منه وتركيزه، وعندما تصل النحلة إلى الخلية تبدأ عملية تركيب العسل، تفرز عليه خمائر من لعابها تحوله من سكر القصب المسمى "سكروز" إلى سكر الفواكه المسمى "ليفيلوز" وإلى "دكستروز"، وهكذا توفر النحلة على الإنسان عملية هضم هذه المواد السكرية، حيث إنها تكون مهضومة مسبقًا في العسل، وقد لا تكون لذلك أهمية كبيرة للأصحاء الذين يستطيعون هضم السكر بسهولة، ولكنه في منتهى الأهمية للمرضى والضعفاء والناقهين، إذ أنه أسهل هضمًا وأسرع امتصاصًا في الجسم كما أن النحلة تقوم بعملية أخرى أكثر أهمية وهي تثبيت الفيتامينات في العسل ومنعها من التحلل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العسل لا يمكن في المعدة طويلاً إذ أنه سريع الهضم كما يمتص بسرعة داخل الجهاز اللمفاوي ليصل إلى الدم.

فوائد العسل للجسم البشري:

إن كافة الأبحاث الحديثة تجريبية كانت أو علاجية أجمعت على اعتبار عسل النحل من أهم الأغذية فاعلية في علاج الأنواع المختلفة من الأمراض، وأن فيه شفاء للناس كما ذكر كتاب الله الكريم.

ويعتبر العسل من المضادات الحيوية القاتلة للبكتيريا والجراثيم، فقد أظهرت العديد من الدراسات المخبرية أن العسل غير المسخن يتميز بفعل مضاد للجراثيم، وقد ثبت أن للعسل أثراً مبيداً للعديد من البكتيريا السالبة والموجبة لصبغة جرام.

وقد تمت دراسة تأثير عشرة أنواع من أنواع العسل المحلي في الباكستان على خمسة وعشرين نوعاً من أنواع البكتيريا المرضية وغير المرضية. وكانت نتائج الدراسة هي أن العسل يثبط نمو البكتيريا بشكل واسع، ويوقف نمو الفطريات التي تمت دراستها.

ويحتوي العسل على عنصر الزنك الذي يلعب دوراً مهماً في تنشيط الخلايا المناعية، وللعسل دور فعال في تنظيم ضغط الدم وزيادة نسبة الهيموجلوبين في الدم؛ ولذا يُستخدم في علاج اضطرابات الجهاز الهضمي حيث يعمل العسل على إلغاء الحموضة الزائدة في المعدة والتي تؤدي غالباً إلى القرحة وقد استعمل كثير من الأطباء العسل في علاج قرحة المعدة والاثنى عشر.

وقد أكدت الدراسات المخبرية والسريية أن العسل فعالٌ تجاه عدد واسع من الجراثيم، وليس له أي تأثيرات جانبية ضارة على أنسجة الجرح. وإضافةً إلى هذا فإنه يؤمن تنظيفاً ذاتياً سريعاً للجرح، ويزيل الرائحة منه، ويحفز نمو الأنسجة التي تُلثم الجروح.

وإن خصائص العسل المضادة للالتهاب تخفف آلام الجروح بسرعة، كما تخفف من الوذمة المحيطة بالجرح، ومن خروج السوائل من الجرح، وتقلل من ظهور الندبات بعد شفاء الجروح.

وينصح الأطباء بإعطاء الطفل ملعقة عسل نحل يومياً ابتداءً من الشهر الرابع لميلاده، وذلك بخلطه باللبن (الحليب) وذلك لمقاومة احتمال نقص الحديد والكالسيوم في لبن الأم.

ويستعمل الأطباء الروس والصينيون مرهماً مركباً من العسل وزيت كبد الحوت بنسبة (١/٤) ويضاف إليه بعض المواد المطهرة، ولهذا المرهم آثار سريعة في

تخفيف آلام الجروح والتئامها، وفي منع التقيح، وهو مفيد جداً في الحروق ويحول دون ظهور الفقايع.

والعسل علاج للأرق ومهدئ للأعصاب؛ وذلك لأنه يحتوي على بعض العناصر المهدئة والمقوية بنسبة مقبولة مثل أملاح البوتاسيوم والصوديوم، وإذا أخذت ملعقة كبيرة من العسل قبل النوم فسوف تنام نومًا هادئًا لا يعتريه القلق.

ويستخدم العسل في مستحضرات تجميل البشرة حيث يوجد الكثير من المراهم والكريمات لعلاج البشرة؛ يدخل العسل كعنصر أساسي في تركيبها.

وجه الإعجاز:

مما سبق بيانه علمياً من كون العسل فيه شفاء وأنه متنوع وأن تنوعه متلازم مع أصناف الزهور التي يتناولها أو كل ذلك يتطابق مع ما سبق من دلالة النص القرآني، وبملاحظة جهل الناس في عصر التنزيل بتلك الحقائق فإن ذلك يُبرز وجهًا آخر من وجوه الإعجاز.

تنبيه:

إن كثيرًا من الأمم القديمة كالفراعنة واليونانيين والرومان كانوا يستعملون العسل في علاجاتهم، كما أن ذكر العسل قد ورد في الكتب السماوية السابقة، وإن إعجاز آية النحل لا يكمن في ذكر أن العسل شفاء للناس فحسب، ولكن الإعجاز كله يكمن في ثلاثة أمور:

الأول: أن الله تعالى لم يذكر العسل صراحة في الآية فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (يخرج عسل) وترك الله تعالى للإنسان أن يدرس ماذا يخرج من النحل من عسل، وغذاء ملكي، وشمع، وسمّ نحل، يدرس الإنسان خصائص هذه المواد ويعلم تركيبها، وهذه هي مرحلة التعرف.

الثاني: أن في هذا الذي يخرج من النحل شفاء: ففي العسل شفاء، وفي غذاء الملكة شفاء، وفي الشمع شفاء، حتى في سم النحل ذاته شفاء. وكيف يتأكد الإنسان أن

في هذه المواد شفاء دون أن يبحث فيها ويتدبر، ويُجري الدراسات والأبحاث، ليتعرف على الخصائص العلاجية الشافية لهذه المواد. أفي هذه المواد ما يقتل الجراثيم الفتاكة، أم بها مُقوٌّ للمناعة، أم أنها تشفي العيون والجلد والأسنان، أم سوى ذلك؟ وهذه مرحلة البحث العلمي في المختبرات.

الثالث: قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، فلم يقل المولى - جل في علاه - شفاء لكل الناس، بل ترك الأمر مطلقاً لبحث العلماء عن الأمراض التي جعل الله في هذه المواد لها شفاء.

وفي هذا حثٌ للإنسان أن يقوم بإجراء الدراسات لمعرفة الناس الذين تشفي أمراضهم هذه المواد. في كلمات ثلاث ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، معجزات ومعجزات: لفت فيها النظر إلى ما يخرج من بطون النحل. ثم قال: إن في هذا وذاك شفاء. وترك الأمر لنا لنعرف من يشفي بهذا ومن يشفي بذاك.

في كلمات ثلاث أرسى الله ﷻ قواعد البحث العلمي في الطب وعلم الأدوية. فحين يعتقد العلماء أن في نبات ما مادة دوائية، يدرسون تركيبها وخصائصها أولاً، ثم يجرون أبحاثاً في المختبرات، في الأنابيب وعلى حيوانات التجربة، ليتعرفوا على الخصائص الشافية فيها، وهذه هي المرحلة الثانية. ثم ينتقل البحث إلى الإنسان فتجرى الدراسات على أولئك المرضى الذين يمكن أن تكون لهم شفاء. ألم يختم الله تعالى آية النحل بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟

الحبة السوداء وأسرارها العجيبة:

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ» قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: «وَالسَّامُ الْمَوْتُ، وَالْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ: الشُّونِيزُ». (رواه البخاري ومسلم). وفي رواية لمسلم: «مَا مِنْ دَاءٍ، إِلَّا فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ مِنْهُ شِفَاءٌ، إِلَّا السَّامَ».

والْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ هِيَ حبة البركة، وقد اكتشف العلم الحديث تأثيرها العظيم على جهاز المناعة في الإنسان، فقد أظهرت الدراسات المخبرية أن الحبة السوداء تقوي جهاز المناعة، وبالتالي تزيد من قدرة الجسم على مقاومة الجراثيم والفيروسات التي تفتك به، كما تزيد من قدرة الجسم على مقاومة السرطان حيث تزيد نسبة الخلايا اللمفاوية التائية المساعدة وتحدث تحسناً في نشاط الخلايا القاتلة للأمراض.

الدراسات على الحبة السوداء:

أكثر من ١٥٠ بحثاً، تم نشره مؤخراً في الدوريات العلمية المختلفة عن فوائد استخدام حبة البركة، والتي تؤكد على الفوائد العديدة التي ذكرها القدماء عن هذا النبات. ويأتي معظم هذه الأبحاث من أوروبا وتحديداً النمسا وألمانيا، والتي تأتي في مقدمة الدول الداعية لإحياء طب الأعشاب كطب بديل، وهكذا ظهرت حبة البركة في مستحضرات طبية متنوعة بين أقراص وكبسولات وأشربة وزيت في العديد من الدول الأوروبية، وكذلك الولايات المتحدة، هذا بالإضافة إلى بلدان العالم العربي والإسلامي.

ونُشرت أكثر من دراسة علمية في مجلات معترف بها عالمياً حول فائدة خلاصة الحبة السوداء في قتل عدد من الجراثيم في أطباق المختبر، أو في حيوانات التجربة. لم يتضح دور الحبة السوداء في المناعة الطبيعية حتى عام ١٩٨٦م، حين أجرى الدكتور أحمد القاضي وزملاؤه بالولايات المتحدة الأمريكية بحثاً عن تأثير الحبة السوداء على جهاز المناعة في الإنسان، ثم توالى بعد ذلك الأبحاث في شتى الأقطار وفي مجالات عديدة حول هذا النبات.

ونشرت مجلة "المناعة الدوائية" في عدد أغسطس ١٩٩٥م بحثاً حول تأثير الحبة السوداء على الخلايا اللمفاوية المدمرة للخلايا السرطانية الإنسانية في الخارج على عدة مطفرات، وعلى نشاط البلعمة لخلايا الدم البيضاء متعددة النواة، وقد أثبت البحث تأثيراً منشطاً لمستخلص الحبة السوداء على استجابة الخلايا اللمفاوية لأنواع معينة من الخلايا السرطانية، كما أثبت البحث أيضاً أن مستخلص الحبة السوداء يزيد من إنتاج

بعض الوسائط المناعية (انترليوكين ٣) من الخلايا اللمفاوية البشرية، عندما زرعت مع نفس الخلايا السرطانية السابقة بدون إضافة أي منشطات أخرى.

كما أثبت البحث أيضاً أن الحبة السوداء تزيد من إفراز انترليوكين نوع ١ - بيتا، مما يعني أن لها تأثيراً في تنشيط خلايا البلعمة. كما نشرت مجلة المناعة الدوائية في عدد سبتمبر ٢٠٠٠م بحثاً عن التأثير الوقائي لزيت الحبة السوداء ضد الإصابة بالفيروس المضخم للخلايا في الفئران. وظهر أن زيت الحبة السوداء له خاصية مضادة للفيروسات المضخمة للخلايا.

وجه الإعجاز:

أخبر النبي ﷺ أن في الحبة السوداء شفاء لكل داء، ووردت كلمة شفاء في صيغ الأحاديث كلها غير معرفة بالألف واللام، وجاءت في سياق الإثبات فهي لذلك نكرة تعم في الغالب، وبالتالي يمكن أن نقول أن في الحبة السوداء نسبة من الشفاء في كل داء.

وقد ثبت من خلال وصف الجهاز المناعة أنه النظام الوحيد والفريد الذي يمتلك السلاح المتخصص للقضاء على كل داء. وبما أنه لا توجد مادة مركبة أو بسيطة على وجه الأرض تملك خاصية المقدرة على التخلص من مسببات جميع الأمراض وشفائها حتى الآن - فيما نعلم - وتعمل عمل جهاز المناعة، فهو الجهاز الوحيد الذي يملك تقديم شفاء من كل داء - على وجه الحقيقة واليقين - بما يحويه من نظام المناعة النوعية أو المكتسبة التي تمتلك إنشاء الأجسام المضادة، وتكوين سلاح الخلايا القاتلة والمحللة المتخصصة لكل كائن مسبب للمرض.

وهذا الجهاز هو مثل بقية الأجهزة يتتابه العطب والخلل والمرض، فقد يعمل بكامل طاقته وكفاءته أو بأقل حسب صحته وصحة مكوناته، فما دام هذا الجهاز سليماً معافى في الجسم يستطيع القضاء على كل داء، يطلق الداء إما على المرض أو على مسبب المرض.

وحيث إن هناك مواد خلقها الله ﷻ تنشط هذا الجهاز وتقويه، أو تعالج وتصلح ما فيه، فيمكن أن توصف بما يوصف به هذا الجهاز نفسه. وبما أنه قد ثبت أن الحبة السوداء تنشط المناعة النوعية أو المكتسبة برفعها نسبة الخلايا المساعدة والخلايا الكابحة وخلايا القاتل الطبيعي - وكلها خلايا ليمفاوية في غاية التخصص والدقة - لما يقرب من ٧٥٪ في أحد البحوث، وبما أكدته الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية لهذه الحقيقة، حيث تحسنت الخلايا الليمفاوية المساعدة وخلايا البلعمة، وازداد مركب الإنترفيرون، وتحسنت المناعة الخلوية، وانعكس ذلك التحسن في جهاز المناعة على التأثير المدمر لمستخلص الحبة السوداء على الخلايا السرطانية وبعض الفيروسات، وتحسن آثار الإصابة بديدان البلهارسيا.

لذلك يمكن أن نقرر أن في الحبة السوداء شفاء من كل داء لإصلاحها وتقويتها لجهاز المناعة وهو الجهاز الذي فيه شفاء من كل داء، ويتعامل مع كل مسببات الأمراض، ويملك تقديم الشفاء الكامل أو بعضه لكل الأمراض، كما أن ورود كلمة شفاء في الأحاديث بصيغة النكرة يدعم هذا الاستنتاج، حيث تتفاوت درجات الشفاء تبعاً لحالة جهاز المناعة ونوع المرض وأسبابه ومراحله.

وبهذا يكون الحديث قد أخبر بحقيقة علمية قبل ألف وأربعمائة عام، ثم جاء العلم الحديث بوسائله وأدواته المتطورة ليثبت ويؤكد صحة هذه المعلومة التي أخذها بالقبول والتصديق عموم المؤمنون في ذلك الزمان الغابر في القدم، ليكون هذا الإعجاز العلمي بمثابة دليل قاطع على صدق ما نطق به النبي الأمي ﷺ قبل ألف وأربعمائة عام.

تنبيهات مهمة:

- يفيد منطوق ومفهوم نصوص الحبة السوداء أن فيها شفاء من الأمراض، فلا ينبغي أن يتناولها الإنسان إلا عند إصابته بالمرض، وألا يدفع الحماس للسنة أن يتناول الأصحاء كميات هائلة منها أو من

زيوتها بلا ضابط طلباً للوقاية والحماية، مما قد يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباه.

- ويجب أن يعرف المريض الجرعة الملائمة لمرضه، وأقصى كمية يمكن أن يتناولها يومياً، وكيفية تناولها، وأن يعرف أفضل طريقة للاستفادة منها، مفردة أو مركبة مجروشة أو صحيحة وذلك بإشراف طبيب.

لون الجلد لا يُفضل به صاحبه:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أُنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسَبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلُئُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ، فَضْلٌ إِلَّا بِالْدِّينِ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسَبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا، بَخِيلًا جَبَانًا» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وصححه الألباني).

(طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلُئُوهُ)، (طَفُّ الصَّاعِ) هو ما قَرُبَ مِنْ مَلِئِهِ. أي: قريبٌ بعضكم من بعض، وكلكم في الانتساب إلى أبٍ واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقصير عن غاية التمام، وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وصححه الألباني).

يمكن أن نلمس علمية الحديث، إذا علمنا أن جميع البشر، يولدون وعدد خلايا الميلانين في بشرتهم متساو، وأن هذا العدد ثابت عند جميع المواليد، سواء كانوا بيضاً أو سوداً.

ولاشك أن اختلاف الألوان والألسن، إنما هو آية دالة على قدرة الله ﻋَﻠَﻴْهِ، والكتاب والسنة لا يعتبران اللون والشكل مزية لأحد، فإن ثبت في الطب أن لون الجلد، لا أثر له على ذات الإنسان وقيمه، فهذا ما جاء به النبي ﷺ، في عصر كان أهله يعتبرون السواد مذمة، بل إن الجاهلية إلى اليوم ترى أن الأبيض أعلى من الأسود، مع أننا في عصر العلم كما يقولون!.

شق السمع والبصر:

كان النبي ﷺ إِذَا سَجَدَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسَلَمْتُ سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (رواه مسلم).

السمع والبصر في هذا الحديث المراد به العين والأذن، بدليل إضافته إلى الوجه، ولقد نطق هذا الحديث بما يحدث فعلاً في تكوين السمع والبصر.

تصل قناة السمع الخارجية ما بين صوان الأذن، وطبلة الأذن، وتتكون من بطانة الشق البلعومي الأول الذي يمتد على هيئة قمع حتى يصل إلى غشاء الطبلة.

وفي البداية تكون هذه القناة مقفلة ومصمتة، نتيجة امتلائها بالخلايا، مُكوِّنةً ما يُعرف باسم سدادة الصباخ، ثم تُمتَص هذه السدادة وتزاح في الشهر السابع.

وفي العين تُقفل الجفون ويلتصق الجفنان، ثم في الشهر السابع تُشَق، وتُفَتَّح.

وكل ذلك يؤكد معنى شق سمعه وبصره، الذي وصفه حديث النبي ﷺ وهو يناجي ربه في سجوده.

إن هذا الحديث فيه إعجاز علمي واضح، على ما قاله الأطباء من كيفية خلق السمع والبصر، خاصة وأن النبي ﷺ قد عبر بلفظ: (شَقَّ) دون غيره من الألفاظ، وهو يدل على انصداع في الشيء.

الإعجاز العلمي في الأحاديث التي ذكرت الحمى:

جاء الإخبار عن الحمى في السنة النبوية في مواطن متعددة، فجاء في بعض الأحاديث أن الإنسان عندما يصاب بالمرض فإن جسده يتداعى بالحمى والسهر. وفي أحاديث أخرى تأتي الإشارة إلى علاج الحمى، وهو علاج واضح وصريح، كما أنه سهل وغير مكلف، ويمكن لأي مريض أن يزاوله ويطبقه في أي مكان ودون الحاجة إلى رقود في مستشفى، وهو مؤثر وشفائي، وهذه هي الشروط العلمية القياسية لوسائل العلاج الحديث. وفي أحاديث أخرى يأتي النهي عن سب الحمى.

وفي أيامنا هذه كشفت الأبحاث العلمية الحديثة عن حقائق كثيرة تتعلق بالحمى، ومن خلالها رأينا التطابق واضحاً جلياً مع ما جاءت به الأحاديث النبوية، مما يدل على سبق العلمي في هذه الأحاديث النبوية.

الأحاديث النبوية التي ذكرت الحمى:

أولاً: تداعي الجسد عند المرض بالحمى والسهر:

عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (رواه البخاري ومسلم).

(تَدَاعَى): أَي دَعَا بَعْضُهُ بَعْضًا إِلَى الْمَشَارَكَةِ فِي الْأَلَمِ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ تَدَاعَتِ الْحَيَاطَانُ أَي تَسَاقَطَتِ أَوْ كَادَتْ. (بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى): أَمَّا السَّهَرُ فَلِأَنَّ الْأَلَمَ يَمْنَعُ النَّوْمَ وَأَمَّا الْحُمَّى فَلِأَنَّ فَقْدَ النَّوْمِ يُثِيرُهَا. وَتَشْبِيهُهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَسَدِ الْوَاحِدِ تَمْثِيلٌ صَحِيحٌ وَفِيهِ تَقَرُّبٌ لِّلْفَهْمِ وَإِظْهَارٌ لِلْمَعَانِي فِي الصُّورِ الْمُرِيَّةِ وَفِيهِ تَعْظِيمٌ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَالْحُضُّ عَلَى تَعَاوُنِهِمْ وَمِلَاطِفَةٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

ثانياً: علاج الحمى بالماء:

أخبرت هذه الأحاديث عن علاج الحمى عن طريق إبرادها بالماء، فقال ﷺ: «الْحُمَّى مِنْ فَيْحٍ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ» (رواه البخاري ومسلم).

ثالثاً: النهي عن سب الحمى:

جاء في السنة النبوية النهي عن سب الحمى، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزْفِرِينَ». قَالَتْ: «الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا». فَقَالَ: «لَا تُسَبِّ الْحُمَّى فَإِنَّهَا تَذْهَبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يَذْهَبُ الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ». (رواه مسلم).

(تُزْفِرِينَ): تَرَعْدِينَ مِنَ الْبَرْدِ.

والسبب في النهي عن سب الحمى هو أنها نافعة للإنسان في الدارين، فهي مكفرة لذنوبه، ونافعة لبدنه كما كشف ذلك الطب الحديث، وقد تنبه لذلك بعض القدماء.

الحمى في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

يتم تشخيص الحمى بارتفاع في درجة حرارة الجسم وتحدث الحمى في حالة حدوث عدوان على جسم الإنسان سواءً عن طريق خلايا بكتيرية أو سرطانية أو فيروسات أو فطريات أو أي جروح أو أمراض داخلية، حيث تلتف الخلايا المناعية حول المكان المصاب أو العضو المريض وتتفاعل مع تلك الأجسام الغريبة وتولد عن هذه المعارك الشرسة مواد تسمى (بيروجينات).

وقد كشفت البحوث العلمية حقائق مذهلة عن تفاعل الجسم البشري لمواجهة المخاطر، حال الإصابة بالجرح أو بالمرض. كما تم اكتشاف الخطوط الدفاعية، والاستجابات الوظيفية التي تحدث بالجسم حال إصابة عضو من أعضائه بالمرض أو الجرح، تلك الاستجابات التي تتناسب مع درجة معاناة العضو المصاب تناسباً طردياً، فبقدر ما تكون شدة إصابة العضو بقدر ما يكون توجيه طاقات الجسم ووظائفه لمنع استفحال المرض أولاً، ولتحقيق الالتئام والشفاء التام ثانياً.

وأثبت العلم الحديث ظاهرة التداعي والانهدام التي تحدث في الجسم البشري حال المرض والإصابة، فعندما يصاب عضو من الأعضاء بجرح أو مرض فإن هذا العضو يشتكي ما ألم به، هذه الشكوى تتمثل في إشارات تنبعث منه إلى مراكز الجهاز العصبي الرئيسية التي تتحكم في وظائف الأعضاء، فتستجيب هذه المراكز بإرسال الأوامر إلى الغدد والأجهزة الحيوية، فتحدث حالة عامة من الاستنفار الذي يكون من نتائجه توجيه جميع الطاقات والعمليات الحيوية لخدمة العضو المصاب وإمداده بما يحتاجه لمواجهة المرض بدءاً بمحاصرة مصدر الخطر وكفه عن الانتشار ومن ثم القضاء عليه إن أمكن، ثم تحقيق الالتئام حتى يعود العضو إلى حالته.

وهذا التداعي يتحقق بالسهر والحمى، والسهر لا يعني يقظة العينين والذهن فحسب، ولكن يقظة جميع أجهزة الجسم وأعضائه وعملياته الحيوية، حتى إنها لتكون في حالة نشاط دائم، وسهر مستمر، والسهر بمعناه الوظيفي (الфизиولوجي) يعني نشاط الأعضاء في وقت يفترض أنها تنام فيه، وهذا هو ما يحدث حال المرض والجراحة، وبصورة مستديمة طوال ساعات الليل، حتى لو أغمضت العينان وشرد الذهن أو نام، إلا أن الجسم لا يكون أبدًا في حالة نوم حقيقي، لأن جميع أجهزته وعملياته الحيوية تكون في نشاطها الذي كانت عليه حال اليقظة، فلا يحدث لها الخمود والتباطؤ الذي يحدث أثناء النوم في حال الصحة.

فليس السهر إذن بسبب الألم كما قد يظن العوام ولكنه عملية مستقلة ومهمة ولا بد منها لمواجهة المرض، وهو محصلة التنبيهات المتبادلة في الجهاز العصبي بين المراكز المختلفة، وللسهر مركز مستقل يشرف عليه ويضمن استمراره.

والحمى تحدث في حال المرض، سواء كان جرحًا، أو غزوًا ميكروبيًا، أو مرضًا داخليًا كالسرطان مثلاً، أما سبب الحمى فإنه نابع من الجسم ذاته، ومن مكان المرض حيث يؤدي التفاف الخلايا المناعية حول العضو المصاب أو المريض، وتفاعلها في عمليات الالتهاب المختلفة ضد الميكروبات والأجسام الغريبة والضارة، يؤدي ذلك إلى تصاعد مواد تعرف باسم (البيروجينات)، التي تنطلق من الكريات البيضاء ومن أنسجة العضو المصاب، فتسري البيروجينات في الدم، وتصل إلى مراكز ضبط الحرارة في المخ لتؤثر في خلاياها تأثيرًا يعدّل من درجة انضباطها وتحسسها لاستشعار التغير في حرارة الدم، بحيث تتنبه عند درجة أعلى من الطبيعي، وتختلف هذه الدرجة تبعًا لدرجة استجابة الجسم والجهاز المناعي لهذا المرض أولاً، ثم لنوع المرض ودرجة الإصابة ثانيًا، والدليل على ذلك عدم ارتفاع الحرارة عند المصابين بهبوط وتدهور في جهازهم المناعي.

أي أن الحمى تحدث كجزء من تفاعل الجسم البشري لمواجهة المرض أو الإصابة، وهذا ما أثبتته العلم أخيراً، وقد كان المعتقد أن الحمى تحدث بتأثير المرض الداخِل إلى الجسم (بيروجينات خارجية).

فوائد الحمى:

توصل الطب الحديث في السنوات الأخيرة إلى اكتشاف عدد من الفوائد التي تنسب للحمى، وهي كالآتي:

١- تم اكتشاف أن قدرة الكثير من الميكروبات سواء البكتيريا أو الفطريات أو الفيروسات على الحياة تكون في أوساط حرارية محدودة، وارتفاع درجة الحرارة إما يدمرها أو يثبط نموها وتكاثرها.

٢- وتؤثر الحرارة أو الحمى بصورة قاتلة على الخلايا السرطانية والجرثومية بصور مختلفة من خلال:

- زيادة رشح الجدران الخلوية لهذه الخلايا المعادية.
- انخفاض درجة القلوية وارتفاع الحمضية فيتغير الأس الهيدروجيني بها.
- تدمير مراكز التنفس الخلوي بصورة غير رجعية.
- تغيير طبيعة التركيبة النووية والبروتينية داخل الخلية.
- تثبيط التكاثر الخلوي في كافة مستويات الانقسام بالتحسس الحراري.
- إبطال تأثير الخلايا السرطانية في كافة مراحل الاختناق الخلوي.
- تهدُّم هائل بنسبة ١٠٠٪ في البنية الوعائية (الدموية) للخلايا السرطانية، وفي نفس الوقت تستحث الحمى وتحسن من هذه البنية في الخلايا السليمة.
- عندما تصل درجة الحرارة إلى ٤١ درجة مئوية فإنها تستحث الالتهاب الخلوي داخل الخلايا السرطانية والمدمرة لها.

٣- تستحث الحمى الخلايا المناعية الآكلة والمحللة.

٤- ارتفاع الأجسام المضادة بعد تعرّف الجسم على العناصر المهاجمة له داخليًا.

٥- تتضافر أجهزة الجسم سواءً الجهاز العصبي والدوري والغدد الصماء والجهاز المناعي بكافة مستوياته المختلفة ومنها الكبد والطحال في إحداث وأحداث الحمى.

٦- تتعاون هذه الأجهزة كافة وتتكامل وتتداخل وظائفياً بالصورة التي تطرد مع العدوان على الجسم.

٧- تحتاج أنسجة الجسم لأكبر قدر ممكن من جزيئات الأكسجين لإتمام تفاعلاتها في حال المرض، وهذا الأكسجين يصل إلى الأنسجة محمولاً على الهيموجلوبين الموجود في كريات الدم الحمراء، ولا يفارق الأكسجين الهيموجلوبين إلا عند ضغط غازي معين وظروف أخرى، وارتفاع الحرارة يعدل من معدل افتراق الأكسجين عن الهيموجلوبين بحيث يتركه إلى الأنسجة عند ضغط أقل وبنسبة أكبر.

ومن آخر ما وصل إليه العلم في العلاج الحراري (أو بالحمى) هو إنتاج جهاز يقوم بتسخين جسم المريض عن طريق تسخين الدم بصورة آمنة من التلوث ١٠٠٪ للقضاء على الفيروسات الكبدية والإيدز وغيرها والخلايا السرطانية والذي حقق نتائج مذهلة في علاج الاستسقاء الكبدي غير السرطاني والسرطاني.

وقد ثبت علمياً أنه عند الإصابة بالحمى تزيد نسبة مادة (الأنترفيرون) لدرجة كبيرة، كما ثبت أن هذه المادة التي تفرزها خلايا الدم البيضاء تستطيع القضاء على الفيروسات التي هاجمت الجسم وتكون أكثر قدرة على تكوين الأجسام المضادة الواقية، فضلاً عن ذلك فقد ثبت أن مادة (الأنترفيرون) التي تفرز بغزارة أثناء الإصابة بالحمى لا تخلص الجسم من الفيروسات والبكتيريا فحسب ولكنها تزيد مقاومة الجسم ضد الأمراض وقدرتها على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها، وبالتالي حماية الجسم من ظهور أي خلايا سرطانية يمكن أن تؤدي إلى إصابة الجسم بمرض السرطان.

علاج الحمى بالماء:

كشف العلم اليوم أن التبريد بالماء يفيد في معالجة كل الحميات الانتانية، وأول ما ينصح به الطبيب اليوم هو عمل الكمادات بالماء البارد ووضع الثلج على رأس المحموم وغير ذلك.

والحمى هي كل ارتفاع لحرارة الجسم، ومن المعروف أن في الجسم مركزاً لتنظيم الحرارة في منطقة بالدماغ تعرف بـ "تحت المهاد" وهي تستشعر حرارة الدم، فإذا ارتفعت قليلاً زادت في إفراز العرق من الجلد ليتم خروج الحرارة من الجسم إلى الجو المحيط، ولكن إذا كانت حرارة الجو فوق الأربعين فلا يمكن لحرارة الجسم أن تخرج إلى الهواء المحيط، ولا بد من استخدام الماء البارد والمثلج.

ورغم أن للحمى أسباباً كثيرة إلا أنها في النهاية تكون بسبب مواد رافعة للحرارة تؤثر على منطقة تحت المهاد وتحدث الرعشة وتقلص العضلات فتزيد من ارتفاع الحرارة، ومن أشهر أسبابها ضربة الشمس والملاريا والأنفلونزا ونوبات البرد والحمى المالطية وغيرها، والمعالجة بالكمادات الباردة والماء المثلج نوع هام من العلاج للأعراض ذاتها، وإذا كانت الأدوية النوعية المضادة للحميات الانتانية لم تكتشف إلا في القرن التاسع عشر، وكذلك مخفضات الحرارة كالأسبرين والكينين فقد كان استعمال الماء البارد هو الوسيلة العلاجية الأولى، وإذا كان النبي ﷺ قد نبه إلى هذه الوسيلة العلاجية الهامة فالإعجاز في دعوته تلك أن تبريد الحمى بالماء ما يزال العلاج العرضي الأمثل والذي يُشرك حالياً مع الأدوية النوعية.

وجه الإعجاز:

يخبر النبي ﷺ بما يجب أن يكون عليه حال المسلمين وحال الأمة الإسلامية من تواد وتعاطف وتراحم؛ لفهم وإدراك درجة هذا التراحم؛ ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً من أنفسنا وهو مثال الجسد الواحد وما يحدث فيه عندما يشتكي عضو من أعضائه، وأخبرنا بأن الجسد يتداعى كله بالسهر والحمى من أجل هذا العضو، ولن يتوقف التداعي حتى تتوقف شكوى ذلك العضو.

والنبي ﷺ بما أوتى من جوامع الكلم وصف لنا ما يحدث في جملة شرطية قصيرة، فعل الشرط فيها: اشتكى، وجواب الشرط: تداعى، فكان الإعجاز علمياً ولغوياً، وذلك من خلال استخدامه ﷺ كلمات تصف حقيقة ما يحدث بجميع معانيها الواردة في اللغة، ولا توجد في لغة العرب كلمة واحدة تجمع حقيقة ما يحدث في الجسم البشري حال المرض إلا هذه الكلمات: اشتكى - تداعى. ولو بحثنا عن أفعال أخرى لتصف حقيقة ما يحدث لاحتجنا إلى عدة أفعال مكان الفعل الواحد (تداعى) مثلاً.

ونحن نسأل: هل وصف النبي ﷺ أمراً لم يكن يعرفه أهل العلم في زمانه؟! نقول نعم، لا في زمانه ولا بعد زمانه ﷺ بقرن أو عشرة قرون أو ثلاثة عشر قرناً، بل بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان؛ فالحديث يخبر بحدوث شكوى للعضو المصاب على الحقيقة لا المجاز. فهل حقاً يشتكي العضو على الحقيقة؟ وكيف يشتكي العضو بلا لسان؟ وهل كان الناس يفهمون أن الشكوى على الحقيقة؟!

إن من يقرأ حقيقة ما يكشفه العلم من انطلاق نبضات عصبية حسية من مكان الإصابة والعضو المريض إلى الدماغ وإلى مراكز الحس والتحكم غير الإرادي وانبعاث مواد كيميائية وهرمونات من العضو المريض، وبمجرد حدوث ما يهدد أنسجته، ومع أول قطرة دم تنزف أو نسيج يتهتك أو ميكروب يرسل سموه بين الأنسجة والخلايا، تذهب هذه المواد إلى مناطق مركزية في المخ والأعضاء المتحكممة في عمليات الجسم الحيوية.

إن من يعرف هذه الحقائق لا يستطيع إلا أن يصفها بأنها شكوى على الحقيقة وليست على المجاز، فالاشتكاء لغة: إظهار ما بك من مكروه أو مَرَضٍ ونحوه.

أليس هذا إخباراً وإعلاماً واستغاثة من ضرر أو نازلة ألمت بالشاكي، ولن تكون الشكوى لغة؟ أليست توجه للجهة التي يظن أنها تتحكم في مجريات الأمور وتملك من الإمكانيات ما تنقذ به الشاكي وترفع عنه ما ألم به وما نزل به من ضرر؟

إن الساعد الأيمن مثلاً إذا أصيب بالمرض فإنه لا يوجه شكواه إلى الساعد الأيسر أو إلى الرجل اليمنى؛ لأنها لا تملك توجيه وظائف الجسم لمواجهة المرض، وإنما

تنطلق النبضات والإشارات والهرمونات إلى المراكز الحيوية بالدماغ وهي التي توجه سائر الجسد لإغاثة العضو المشتكى، وإذا اشتكى العضو تداعى سائر الجسد لشكواه، والتداعي يحدث بمجرد الشكوى، فإن لم توجد شكوى لم يوجد تداع، «إذا اشتكى ... تداعى».

وهذا ما يحدث فعلاً وبجميع معاني التداعي الواردة في اللغة العربية. فقد جاء التداعي في اللغة بعدة معان، ومن تلك المعاني: التداعي بمعنى النداء والاستغاثة، ويأتي بمعنى تجمع وأقبل من جهات شتى، ويعني تهدم وانهار وهزل، ويعني: استعد وتجهز.

فالتداعي بمعنى النداء والاستغاثة نجده في مراكز الإحساس عندما تدعو مراكز اليقظة والتحكم فيما "تحت المهاد"، التي تدعو بدورها الغدة النخامية لإفراز الهرمونات التي تدعو باقي الغدد الصماء لإفراز الهرمونات التي تحفز وتدعو جميع أعضاء الجسم لتوجيه وظائفها لنجدة العضو المشتكى وعلى النحو الذي سبق وصفه.

والتداعي بمعنى التجمع والمسارة هو حقيقة ما يحدث من جميع أجهزة الجسم من توجه بكل أنشطتها وعملياتها الحيوية لخدمة العضو المصاب ومساعدته، وما يحدث في النظام المناعي لا يمكن إلا أن نسميه تداعياً، فإن خلية واحدة تقوم بدعوة كل خلايا الجهاز المناعي الأخرى بمجرد مقابلتها لجسم غريب بل وتدعوها إلى التكاثر والانقسام وتصنيع الأجسام المضادة.

والقلب مثلاً يسرع بالنبضات لسرعة تدوير الدم في الوقت الذي تنقبض الأوعية الدموية بالأجزاء الخاملة من الجسم وتتسع الأوعية الدموية المحيطة بالعضو المصاب لكي تحمل له ما يحتاجه من طاقة وأوكسجين، وأجسام مضادة، وهرمونات، وأحماض أمينية بناءة، هي خلاصة أعضاء الجسم المختلفة كالکبد، والغدد الصماء، والعضلات ومخزن الدهون أرسلت كلها لإمداد العضو المريض بما يحتاج لمقاومة المرض ومن ثم الالتئام.

والتداعي بمعنى التهدم والانهيار يصف فعلاً ما يحدث في سائر أجهزة الجسم، فهي تقوم بهدم بروتيناتها ومخزونها من المواد الدهنية والنشوية - بل وحتى بنيتها

الأساسية - لكي تعطي العضو المصاب ما يحتاج إليه من طاقة ومواد يحتاجها لمواجهة المرض الحادث له، ولقد ثبت ذلك علمياً بتناقص وزن المريض وهزاله على الرغم من استمرار التئام العضو المصاب، ويستمر ذلك إلى أن يتم الشفاء، وبعدها يبدأ بناء ما تهدم من سائر أعضاء الجسد فيما يعرف بطور إعادة البناء.

بل إن طور الهدم والتداعي لا بد من حدوثه حتى ولو قمنا بإعطاء المريض ما يحتاجه من عناصر غذائية سهلة الهضم أو مهضومة، وسواء أعطيناه بالفم أو بالحقن بالوريد، وكل ما استطاعه الأطباء هو التقليل من حدة الهدم وشدته حتى لا يدخل المريض في حالة فرط الانهدام، والتي قد تصل إلى انهيار في جميع وظائف الجسم والوفاة، والهدم يستمر إلى درجة تتناسب مع قوة المرض لدرجة أن العلماء حسبوها وقدروها في كل حالة ووجدوا تناسباً بين مقدار ما يفقده الجسم من وزنه وشدة إصابة العضو.

وهذا التداعي يتحقق في السهر والحمى، والسهر لا يعني يقظة العين والذهن فحسب، ولكن يقظة جميع أجهزة الجسم وأعضائه وعملياته الحيوية حتى إنها لتكون في حالة نشاط دائم وسهر مستمر، والسهر بمعناه الوظيفي يعني نشاط الأعضاء في وقت المفترض فيه أنها تنام، وهذا هو عين ما يحدث في حال المرض والجراحة بصورة مستديمة طوال ساعات الليل والنهار، حتى لو أغمضت العينان وشرد الذهن أو نام إلا أن الجسم لا يكون أبداً في حالة نوم حقيقي؛ لأن جميع أجهزته وعملياته الحيوية تكون في نشاطها الذي كانت عليه حال اليقظة فلا يحدث لها الخمول والتباطؤ الذي يحدث أثناء النوم في حال الصحة والعافية.

والسهر موجود بمعناه، حتى لو نامت عين المريض أو تاه عن وعيه فإن جميع أجهزة الجسم ودوراته الدموية وتفاعلاته الاستقلابية، وجهازه التنفسي، والكلية والقلب تكون في حالة السهر الدائم أثناء المرض، ونعني بذلك أنها تكون في حالة نشاط مساوية لحالة اليقظة ومستمرة عليها طوال الليل والنهار إلى أن تزول شكوى العضو المريض.

ولم يكتشف العلم الحديث حقيقة واحدة تعارض ظاهر النص أو باطنه أو تسيير في نسق بعيد عنه، بل كان النص وصفاً دقيقاً جامعاً شاملاً لحقيقة ما يحدث، بل ما كان يجهل وضحه العلم الحديث على أنه حقيقة واقعة لا تحتاج إلى تأويل.

وفي الحديث إعجاز آخر: فرسول الله ﷺ يخبرنا بالكيفية التي ينبغي أن يكون عليها المسلمون في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم، فمن أراد أن يفقه إلى أي مدى يطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يتوادوا ويتعاطفوا ويتراحموا فعليه أن يسأل علماء الطب والجسم البشري، وأن يبحث وينظر كيف يفعل الجسم الواحد، وبقدر ما يعلم من حقيقة تفاعل الجسم البشري ويتأمل فيها؛ بمقدار ما يفقه مقصد الشريعة وأمرها، ومقدار التعاطف والتراحم المطلوب من المؤمنين.

ومن العجيب أن يستخدم العلماء الغربيون اسماً للجهاز العصبي الذي يتفاعل في حال تعرض الجسم للخطر والمرض بلغتهم وصفوا به حقيقة ما يفعله هذا النظام والجهاز وهو (sympathetic) فكانت ترجمتهم الحرفية: المتواد، المتعاطف، المتراحم، وهو عين ما سماه النبي ﷺ في الحديث: «تَوَادَّهِمْ وَتَرَاحَمَهُمْ وَتَعَاطَفَهُمْ».

أما الأحاديث التي جاءت في علاج الحمى عن طريق استخدام الماء، فقد طابقت الحقيقة العلمية اليوم، والتي تثبت أن الماء من أنجح الوسائل في خفض درجة حرارة الجسم.

وجاء في السنة النهي عن سب الحمى، وفي ذلك إشارة إلى الفوائد الموجودة في الحمى، وقد كشف العلم اليوم الفوائد المتعددة للحمى، بل أثبت العلم الحديث أن للحمى قدرة علاجية، وقد استخدمت في علاج بعض الأمراض. إن هذا كله يشهد بأن ما أخبر به النبي ﷺ هو وحي من عند الخالق العليم ﷻ.

التليينة غذاء ودواء:

لا شك أن هدي النبي ﷺ في الطعام والشراب عظيم الفائدة لصحة الإنسان. ويظهر العلم يومًا بعد يوم هذه الفوائد من خلال الأبحاث المعملية والتجريبية الحديثة. ومن هديه ﷺ تناول حبوب الشعير خبزًا وحساءً وشرابًا، وقد وصفه النبي ﷺ لمدواة المرضى وتخفيف الحزن والغم الذي يعتري النفس الإنسانية بين حين وآخر.

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَخَاصَّتْهَا - أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْيِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ تَرِيدٌ فَصُبَّتِ التَّلْيِينَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «التَّلْيِينَةُ حَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ تُذْهِبُ بَعْضَ الْحُزَنِ». (رواهُ مُسْلِمٌ).

التليينة: حساء (شربة أو مرق) يُعمل من من دقيق الشعير بنخالته، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحًا والتليينة تطبخ منه مطحونًا. وهو رقيق في قوام اللبن، ومنه اشتق اسمه، وقيل: سُمِّيَتْ تليينة لشبهها باللبن لبياضها ورقتها.

والشعير: هو نبات حَوْلِيٌّ من الفصيلة النجيلية ويشبه في شكله العام نبات القمح وهو أقدم غذاء للإنسان.

(حَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ) يُرَوَى بوجهين بفتح الميم والجيم (حَمَّةٌ)، وبضم الميم وكسر الجيم (حُمَّةٌ)، والأول أشهر ومعناه مريحة له أي تريجه وتسكنه، من الإجمام وهو الراحة. (تُذْهِبُ بَعْضَ الْحُزَنِ): إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفرحة.

البحوث العلمية: توافقت البحوث الحديثة في مجال الغذاء والاستطباب بالشعير مع هدي سيد الأنام ﷺ:

أولاً: قوله ﷺ: (التَّلْيِينَةُ حَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ):

قام معهد البحوث الزراعية بجامعة "ألبرتا" بكندا بإجراء بحث عن: أهمية المنتجات المحتوية على منتجات الشعير على صحة مرضى السكر (النوع الثاني غير الوراثي) وتحديد أهمية استخدام منتجات الشعير وتأثيرها على نسبة السكر والدهون في

الدم، وكانت النتيجة النهائية لهذا البحث توضيح أهمية غذاء الشعير وخبز الشعير كوسيلة لزيادة كمية الألياف المطلوبة للجسم القابلة للذوبان وغير القابلة للذوبان، لخفض نسبة السكر والدهون في الدم.

والكوليسترول: هو مركب دهني نتناوله في طعامنا، وتكوّنه أجسادنا ويجري في دمائنا وله حد طبيعي إن زاد عنه تترسب هذه الزيادة على جدران الأوعية الدموية وتضيّقها، وتُعَدُّ زيادته أحد الأسباب المؤدية إلى الإصابة بأمراض القلب والشريين. وأثبتت الدراسات العلمية فاعلية حبوب الشعير الفائقة في تقليل مستوى الكوليسترول في الدم من خلال عدة عمليات حيوية منها:

- تحتوي حبوب الشعير على مركبات مشابهة لفيتامين E الذي يعد من أشهر مضادات الأكسدة التي لها القدرة على تثبيط إنزيمات التخليق الحيوي للكوليسترول.
- تحتوي ألياف الشعير المنحلة على مادة هامة جدًّا وهي البيتا جلوكان (Beta-glucan) التي تتحد مع الكوليسترول الزائد في الأطعمة والأحماض الصفراوية مما يقلل وصوله إلى تيار الدم.
- وتشير نتائج البحوث إلى انخفاض نسبة الكوليسترول العام بنسبة ١٠٪، وانخفاض نسبة الكوليسترول منخفض الكثافة ldl إلى ٨٪، وارتفاع نسبة الكوليسترول عالي الكثافة hdl إلى ١٦٪.
- ينتج عن تخمر الألياف المنحلة في القولون أحماض تمتص من القولون وتتداخل مع استقلاب الكوليسترول^(١) فتعيق ارتفاع نسبته في الدم.
- الشعير ينظم امتصاص السكر إلى الدم مما يحد من ارتفاع السكر المفاجئ لاحتواء أليافه المنحلة القابلة للذوبان على بكتينات تكون مع

(١) استقلاب: أيض: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

الماء هلامًا لزجًا يبطئ من هضم وامتصاص النشويات والسكريات، كما أنه قليل السرعات غني بالألياف المنحلة وغير المنحلة، مما يقلل من الرغبة في تناول الأطعمة السكرية وغيرها، وهذا يساعد على تنظيم نسبة السكر في الدم.

• الشعير يكبح جماح ضغط الدم لسبيين:

- ✓ يحتوي على كمية وافرة من عنصر البوتاسيوم حيث يخلق هذا العنصر التوازن اللازم بين الملح والماء داخل الخلية.
- ✓ الشعير مُدرٌّ للبول مما يقلل من ضغط الدم.

ثانيًا: قوله ﷺ: «تُذْهِبُ بَعْضَ الْحُزْنِ»:

أثبت الباحثون أن الحزن والاكتئاب هو خلل كيميائي، كما أثبتوا أن هناك مواد لها تأثير في تخفيف الاكتئاب والحزن، مثل: عنصر البوتاسيوم والمغنيسيوم ومضادات الأكسدة والميلاتونين وبعض عناصر فيتامين (ب) المركب والسيراتونين، فما علاقة الشعير بذلك؟

يحتوي الشعير على عنصري البوتاسيوم والمغنيسيوم اللذين يؤدي نقصهما إلى سرعة الغضب والانفعال والشعور بالاكتئاب والحزن، وضبط عنصر البوتاسيوم والمغنيسيوم له تأثير في تخفيف الاكتئاب عن طريق تأثير هذين العنصرين على بعض الموصلات العصبية، وانظر إلى قوله ﷺ: «تُذْهِبُ بَعْضَ الْحُزْنِ»، وقول الباحثين: يؤدي إلى تخفيف الاكتئاب.

يشعر الإنسان بالميل إلى الاكتئاب عند تأخر العمليات الفسيولوجية للموصلات العصبية وهذا من أهم أسبابه نقص فيتامين (ب) المركب، والشعير يحتوي على كمية طبيعية من بعض فيتامين (ب) المركب، وهذا مما يساعد على التخلص والتخفيف من الاكتئاب.

إن علاج نقص مضادات الأكسدة مثل فيتامين (هـ) له تأثير فعال في علاج حالات الاكتئاب والشيخوخة وخاصة لدى المسنين، والشعير يحوي كمية كبيرة من مشابهاً فيتامين E المضادة للأكسدة وأيضاً على فيتامين A المضاد للأكسدة.

يحتوي الشعير على الحمض الأميني "تريبتوفان"، الذي يسهم في تخليق أهم الناقلات العصبية وهو "السيروتونين"، والتي تؤثر بشكل واضح في الحالة النفسية والعصبية للمريض.

إن من المذهل حقاً أن نرصد التطابق الدقيق بين ما ورد في فضل التلبينة على لسان نبي الرحمة ﷺ وما أظهرته التقارير العلمية الحديثة التي توصي بالعودة إلى تناول الشعير كغذاء يومي؛ لما له من أهمية بالغة للحفاظ على الصحة والتمتع بالعافية. فهي تخفض الكوليسترول وتعالج القلب وعلاج للاكتئاب وعلاج للسرطان وتأخر الشيخوخة وعلاج ارتفاع السكر والضغط وملين ومهدئ للقولون.

اللبن ومنتجاته وعلاقته بصحة الإنسان؛

النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أخبرنا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً بما توصل إليه العلم الحديث بعد رحلة شاقة من الأبحاث والدراسات حول أهمية اللبن الغذائية والصحية للإنسان، وأن اللبن غذاء كامل أو هو أكمل غذاء للإنسان، ولا يوجد ما هو خير منه للإنسان.

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بَلْبَنَ فَشَرِبَ فَقَالَ: «إِذَا أَكَلْتُمْ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ. وَإِذَا سَقَى بَلْبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزَى مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ». (رواه أبو داود، وحسنه الألباني).

إن اللبن هو خير الأغذية، فهو أول ما يتغذى به الرضيع وتُتمي به الأبدان، سائغاً للشاربين. لقد أشار النبي ﷺ إلى قيمة اللبن الغذائية المتميزة في زمن لم يدرك الناس فيه تركيب اللبن وما يحتويه من عناصر غذائية هامة. ولا يخفى على أحد أهمية اللبن بالنسبة للناقهين وكذلك لكبار السن حيث يكون اللبن جيداً ومغذياً يعطي لهم

كثيرا من المغذيات بطريقة سهلة التمثيل، ويمدُّهم بفيتامين (د) والذي قد يكون مفيداً لكبار السن الذين لا يستطيعون الخروج إلى ضوء الشمس.

• منتجات الألبان والفم والأسنان وهشاشة العظام:

لوحظ انخفاض حدوث تسوس وسقوط الأسنان بزيادة تناول اللبن خاصة وإن إضافة الفلوريد إلى اللبن أكثر تأثيراً في منع تسوس الأسنان من إضافته إلى الماء. وذكر تقرير خبراء المركز الصحي الأمريكي أفضلية منتجات الألبان كمصدر للكالسيوم.

• منتجات الألبان وضغط الدم:

أظهرت الأبحاث أن الغذاء المكوّن من منتجات الألبان الفقيرة في الدهن والخضروات والفاكهة له تأثير مفيد على ارتفاع ضغط الدم.

• التأثير الوقائي لمنتجات الألبان ضد السرطانات:

تشير الكثير من الدراسات إلى دور بروتينات اللبن في الوقاية من السرطانات، وقد أظهرت نتائج مشجعة قدرة منتجات اللبن على منع تكوين الأورام في القولون والثدي.

أكل زيت الزيتون والادّهان به:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(كُلُوا الزَّيْتَ) أَي مَعَ الْخُبْزِ وَاجْعَلُوهُ إِدَامًا. (وَادَّهِنُوا بِهِ) أَمْرٌ مِنَ الْإِدْهَانِ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الدُّهْنِ. يُقَالُ ادَّهَنَ رَأْسَهُ: أَي طَلَاهُ بِالدهنِ وَتَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ بِالرَّأْسِ وَلَا يَشْتَرِطُ التَّوَلَّى بِنَفْسِهِ.

(فَإِنَّهُ) أَيِ الزَّيْتِ يَحْصُلُ (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ كَأَنَّ زَيْتَهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسُسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا وَانْتِفَاعِ أَهْلِ الشَّامِ بِهَا، وَقِيلَ: لِكَوْنِهَا تَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَيَلْزَمُ مِنْ بَرَكَةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ بَرَكَةُ ثَمَرَتِهَا وَهِيَ الزَّيْتُونُ وَبَرَكَةُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ الزَّيْتُ.

وفي هذا الحديث أمران:

الأول: الأمر بأكل الزيت، وكذلك الزيتون لأنه أصل له.

والثاني: الأمر بالادهاان به، والادهاان لا شك يكون بالزيت.

والزيتون يحتوي على الأحماض الدهنية الأمينية ومنها الفينيل والإينين الذي يعطي التيروزين (وهو مشتق من الألانين) وهو من الأحماض العطرية الأساسية والفينيل الأنين يعطي التيروزين، وهو من أحماض الميلانين في الجلد وهذه الصبغة (الميلانين) هي التي تصبغ البشر حسب كميتها في الجلد؛ فإذا كانت صبغة كثيفة أعطت الجلد الأسود، وإذا خفت أعطت اللون الأصفر وإذا غابت تمامًا (شدوذ ومرض) أعطت اللون الأبيض للشعر والجلد والرموش.

ولهذا الصبغة (الميلانين) أهمية كبيرة للإنسان فالأفريقي يعيش في منطقة شديدة الحرارة ساطعة الشمس وهذا يتطلب حماية للناس، هذه الحماية تتوفر بتوفر اللون الأسود (الميلانين)، وهذا ملحوظ في الشخص القمحي اللون عندما يقف في الشمس طويلاً فإنه يسمر، لأن الاسمرار وسيلة دفاع عن الجلد ضد الشمس، وهذا سبق علمي خطير، حيث أن شجرة الزيتون تعطي الزيت والأحماض الأمينية، ومنها الأحماض المسئولة عن إعطاء اللون الأسود (الصبغ الجلدي).

الزيتون والعلم الحديث:

لأول مرة في التاريخ اجتمع ستة عشر من أشهر علماء الطب في العالم في مدينة روما في الحادي والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٩٧م ليصدروا توصياتهم وقراراتهم الموحدة حول موضوع "زيت الزيتون وغذاء حوض البحر المتوسط"، وأصدر هؤلاء العلماء توصياتهم في بيان شمل أكثر من ثلاثين صفحة استعرضوا فيها أحدث الأبحاث العلمية في مجال زيت الزيتون وغذاء حوض البحر المتوسط، وأكدوا في بيانهم أن تناول زيت الزيتون يسهم في الوقاية من مرض شرايين القلب التاجية وارتفاع كولسترول الدم، وارتفاع ضغط الدم، ومرض السكر، والبدانة.

وقد دهش الباحثون حديثاً حينما اكتشفوا أن سكان جزيرة كريت في البحر المتوسط هم أقل الناس إصابة بأمراض القلب والسرطان في العالم أجمع، ودهشوا أكثر حينما عرفوا أن أهالي جزيرة كريت يستهلكون زيت الزيتون أكثر من أي شعب آخر، فحوالي ٣٣٪ من السعرات الحرارية التي يتناولونها يومياً تأتي من زيت الزيتون.

ورد في كتاب "٨ أسابيع للوصول إلى الصحة العامة": يحتوي الزيتون على الأحماض الدهنية غير المشبعة، وحيدة الرابطة المزدوجة، وهو ما يميزه عن بقية الزيوت وأنه يجب استبدال كل أنواع الدهون التي يتناولها الإنسان، وخاصة بعد سن الأربعين بزيت طازج، حيث ثبت ومن خلال التجارب المستفيضة أنه سبب في علاج كثير من الأمراض بإذن الله ومن هذه الأمراض ما يلي:

فزيت الزيتون الأسود الصافي نجده مسجلاً في دستور الأدوية في فرنسا، فهو دواء معترف به رسمياً، يذيب الدهون ويساعد في تقوية الكبد، وعلاج الكبد الدهني، وبذلك يزيد من النشاط ومن ناحية أخرى فقد ذكر الكتاب أن الدواء المعروف في الأسواق باسم Essential Fort يحتوي على نسبة عالية من زيت الزيتون، وهو الذي يوصف أساسياً لمرضى الكبد، كما أنه يحسن من وظائف الكبد، وخاصة أنه مضاد للسموم، ومن هنا فهو يزيد من قدرة الكبد على القيام بإزالة السممية.

واكتشف علماء يابانيون أن تعريض الجلد لزيت الزيتون ذي النوعية الجيدة بعد التعرض للشمس يقلص من احتمالات الإصابة بسرطان الجلد. ويعتبر زيت الزيتون غنياً بالمواد المانعة للتأكسد التي يُعتقد أنها تمتص التأثيرات الضارة للإشعاعات فوق البنفسجية، لكنه لا يمنع الأشعة فوق البنفسجية من اختراق الجلد.

وأجريت دراسة على ٧٦ شخصاً غير مصاب بأي أمراض قلبية لمعرفة تأثير زيت الزيتون على ضغط الدم فوجد الباحثون أن ضغط الدم قد انخفض بشكل واضح عند الذين تناولوا زيت الزيتون في غذائهم اليومي، وكان انخفاض ضغط الدم أشد وضوحاً عند الذين تناولوا ٤٠ جراماً من زيت الزيتون يومياً.

وذكرت دائرة المعارف الصيدلانية الشهيرة "مارتندل" أن زيت الزيتون مادة ذات فعل ملين لطيف، ويعمل كمضاد للإمساك، كما أن زيت الزيتون يلطف السطوح الملتهبة في الجلد، ويستعمل في تطرية القشور الجلدية الناجمة عن الأكزيما وداء الصدف. وإذا شرب بالماء الحار سكن المغص، ويعالج القولون، ويطرد الديدان، ويفتت الحصى ويصلح الكلى، والاحتقان به يسكن المفاصل، ويعالج أوجاع الظهر، ويمنع الشيب ويصلح الشعر ويمنع سقوطه، ويقطع العفن ويشد الأعضاء، والاكتحال به يقلع البياض ويحد البصر، وينفع من الجرب السلاق.

وجه الإعجاز:

ما تقدم يؤكد أهمية زيت الزيتون وفوائده، وبعد أن كان ينتج بكميات قليلة ولا يؤبه له كانت نتائج هذه الأبحاث كالدعاية له فصار الطلب عليه كثيرًا وارتفعت أسعاره كثيرًا.

وقد أمرنا نبينا الأكرم ﷺ بتناوله والإدهان به قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان بقوله: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»، يأمرنا بتناوله وهو غير شاك ولا يخاف أن تظهر بعد أيام أو أشهر أمراض أو عاهات جراء تناوله، ولا شك أن الذي يأمر بك أمر هو غير متيقن منه فإنه يضع لنفسه نوعًا من الإحترازاات والتحوطات بأن يحيل الخبر إلى قائله أو يخبرك بأن هذا العلاج في طور التجربة كما تفعل كثير من مراكز الأبحاث اليوم.

فالسؤال إذن من الذي أخبر نبينا محمدًا ﷺ بقيمة زيت الزيتون، والتي أثبتتها البحوث العلمية الحديثة، وقد أمر ﷺ بذلك وهو رجل أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ويعيش في زمن لم تكن فيه أي من وسائل البحوث والتقنية المتوفرة اليوم، لا في بلاد الحجاز ولا في أي مكان من العالم؟

المشي حافياً أحياناً:

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رحمته الله قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلوات الله وسلاماته عليه يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَفِيَ أحياناً. (رواه أبو داود، وصححه الألباني). (نَحْتَفِي): أي نمشي حفاةً بدون حذاء. إن للمشي آثار إيجابية على المستوي الجسدي، والنفسي، والعقلي، والروحي. وأمرنا رسولنا صلوات الله وسلاماته عليه أن نفعل حيناً بعد حين، نوعاً خاص من المشي، وهو المشي حافياً.

ما هو الرفلكسولوجي؟

الرفلكسولوجي (Reflexology) تترجم بالعربية بعلم الانعكاس، وفي بعض المراجع المترجمة أو المعربة يعرف بعلم الإرتكاس. وهو علم يهتم بدراسة وممارسة الضغط - بطريقة علمية - على نقاط معينة في اليدين والقدمين، تسمى بمناطق ردات الفعل. ويُصنف هذا العلم من الطب المكمل للطب الكلاسيكي الذي تتداوى به.

ويهدف علم الانعكاس إلى مساعدة الجسم على استعادة توازنه الطبيعي. ويُنشئ ظروفاً إيجابية تساعد على معالجة نفسه بنفسه، لانعكاس الحالة الصحية على القدمين، وبسبب الاتصال الوثيق بين مختلف الأعضاء، والأعصاب، والغدد في الجسم، وبين مناطق ردات الفعل المعينة في باطن القدم والأصابع وأطرافها وجوانب القدمين، وذلك بواسطة الشبكة الحسية. حيث يوجد بالقدمين ٧٢٠٠ نهاية عصبية، تتصل بباقي أجزاء الجسم من خلال الحبل الشوكي والدماغ.

عمل علم الانعكاس:

يقوم عمل هذا العلم على تنشيط النقاط الخاصة برّد الفعل المنعكس الموجودة بالقدمين أو اليدين، وذلك بالضغط بالأصابع أو أداة خشبية، ويؤثر هذا الضغط مباشرةً على الغدد، والأعصاب، وبقيّة أعضاء الجسم، والتي بدورها تسهل جريان الدورة الدموية، والطاقة الحيوية بشكل أفضل. ومن هذه التأثيرات: التخلص من التوترات العضلية، والنفسية، والعقلية، التي تؤثر سلباً على الصحة العامة.

فرضيات وقواعد:

إذا استبدلنا أدوات العلاج بعلم الإنعكاس - إيهام المعالج أو القطعة الخشبية - بضغط الجسم على الحصى والحجارة. وبفرض صحة المكان (يقصد به خلو المكان من الملوثات والتي قد تسبب الضرر كالزجاج المكسر مثلاً) مقابل نظافة أدوات العلاج بالانعكاس. وبالمقارنة مع أهم قواعد علم الانعكاس وهي: أن يتم تنشيط النقطة المتصلبة أو المؤلمة في القدم - بالضغط عليها - بشرط أن لا تتجاوز الضغطة على نصف الدقيقة، وأن يتم علاج أي نقطة متصلبة أو مؤلمة حتى وإن لم يعرف المعالج أو المريض إلى أي عضو تتبع، لأنه لو لم تكن هناك مشكلة في العضو التابع لهذه النقطة في القدم، لَمَا كانت هناك نقطة متصلبة أو ألم، وأن لا نعالج النقطة الواحدة أكثر من مرتين يومياً.

هذه القواعد يمكن توفرها في المشي حافياً أيضاً عن طريق علاج النقاط المتصلبة وغيرها، ولكن تتم معالجة المناطق عشوائياً، ولن تكون مدة الضغط لأكثر من نصف دقيقة إلا إذا تعمد عدم المشي. إلا أنه في المشي حافياً لن يكون هناك علاج للنقاط التي في ظهر وبجانب القدمين. ومع ذلك فإنه من الممكن أن نستنتج بعض الفوائد لهذا النوع من المشي بالمقارنة مع علم الإنعكاس وبصورة عامة ومختصرة كما يلي:

المشي حافياً وأثره على الجسم:

الضغط على مناطق رَدّ الفعل في القدم لبعض الوقت أثناء المشي حافياً، يحث الكبد، والقولون، والجلد، والرئتين، على القيام بوظائفهم الحيوية، ويستخرج السموم الموجوده فيها بعيداً عن الجسم.

كما أنه يمكننا - كما يناظره في علم الإنعكاس - أن نتعرف على وجود الخلل في أي عضو في الجسم، حتى وإن لم يتم الكشف عن وجود علة في ذلك العضو، وذلك بشدة الألم الحاصلة عند نقطة رد الفعل دون غيرها في القدم. إن عملية ضغط الجسم على نقطة الانعكاس، تقوم بإرسال موجة من النشاط - أكسجين وغذاء... - والتي تحفز الجهاز الدوري، والأعصاب؛ لمساعدة العضو المصاب والقضاء على التجلطات والاحتقانات التي توجد فيه.

المشي حافيا وأثره على النفس والعقل:

هذا النوع من المشي يمد الجسم بالحيوية والطاقة اللازمة. فمثلاً: تدفق الدم لخلايا الجسم المحمّل بالأكسجين، والطاقة، يحارب كافة حالات التعب المزمن والكسل. ويعمل أيضاً على إزالة الأحاسيس السلبية. ويعيد التوازن العضوي والفكري. وهذا بدوره يساعد على تجلي الأفكار، وزيادة القدرة على التركيز والانتباه، ويساعد على إزالة الضغط النفسي الذي يدمر مناعة الجسم، ويجعله عرضة للإصابة بالأمراض العضوية.

المشي حافياً والطاقة:

غالباً ما تكون النقاط في القدمين مؤلمة أكثر مما هي في اليدين وبقية أعضاء الجسم، لأنه بحسب قانون الجاذبية، ووقوفنا الكثير على قدمينا، ترسب مواد معينة تسبب إغلاق لمسارات أو تيارات الطاقة الكهرومغناطيسية، والضغط على هذه النقاط المتصلبة يساعد على فتح القنوات لهذه الطاقة. ويتسنى - بالاتصال المباشر - لذبذبات الطاقات المنبعثة من المعادن والألوان الموجودة في الحصى والحجارة أن تسير هذه الطاقات في مداراتها بحركة طبيعية، فتعود بذلك الحيوية إلى جميع الأعضاء التابعة لهذه المسارات.

المشي حافياً وأثره على الروح:

الجانب الروحي يسمو بالطاعات. والمشي حافياً هو طاعة لأمر رسولنا ومعلمنا ﷺ. وإن عملية تذكّر الأجر - الذي أعده الله ﷻ لمن أطاع أمره ابتغاء وجهه الله الكريم - في الدنيا والآخرة أيضاً يزيد من قوة الإيمان واطمئنان القلب.

علم الانعكاس محدود الإمكانيات:

وكما أن علم الانعكاس محدود الإمكانيات - إذ لا يستطيع بواسطته إيقاف أي علاج بالأدوية أو الامتناع عن إجراء أي عملية جراحية - فإنه يمكن القول بإمكانية محدودة المشي حافياً أيضاً. ويمكن اعتبار المشي حافياً لبعض الوقت علاجاً مكملًا، ووقائياً، كما هو الحال في علم الانعكاس. وهذا واضح في نصائح بعض أطباء الطب

الحديث لبعض الحالات الطبية: كالفطريات في الأقدام، أو ما يسمى بمرض قدم الرياضيين، أو دوالي الساقين أو القدم المفلطحة المؤلمة.

أما السؤال كم من الوقت نحتاج أن نمشي؟ وكم عدد المرات التي نمشيها في الأسبوع؟ فالإجابة عليها تعتمد على: طبيعة الأرض ومقاييس الحصى الذي سوف نسير عليها، وعلى سُمك جلد القدم، والوزن، والعمر، ومقدار الضغط على القدم، وكيفية توزيع هذا الضغط. والإجابة على هذه التساؤلات تكمن في كلمةٍ من أوتى جوامع الكلم ﷺ: «أحياناً». فهي تفي بالغرض كما يفهمها المطبق لهذه السنة. ومن أفضل المعايير الدينية والعقلية: كل إنسان على نفسه بصيرة، ولا ضرر ولا ضرار.

إن المصدق برسالة الرسول ﷺ، والمطيع لأوامره، له الأجر في الدنيا والآخرة. وكما أن عدم معرفة الحكم من تطبيق أي سنة لا يعني الحرمان من الحصول على منافعتها، فإن معرفة الحكمة أو الفوائد المرجوة من تطبيقها تزيد من قوة الإيمان.

الإعجاز العلمي في سور الهرة:

أكد الرسول ﷺ في العديد من الأحاديث الصحيحة أن القطط طاهرة غير نجسة، وكان يسميها من الطوافين والطوافات في البيوت، وكان يتوضأ من الماء الذي شربت منه القطعة واعتبره طاهراً. فاهرة طاهرة البدن، طاهرة الريق، ريقها طاهر، فسورها طاهر، أي بقية شراها، أو بقية ما تأكله طاهر.

عَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ ^(١) - أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ ^(٢) حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَأَى أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَتَعْجِبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي». فَقُلْتُ: «نَعَمْ». فَقَالَ إِنَّ

(١) وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ: أي أنه أبا قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان والد زوجها.

(٢) فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ: أي أَمَلَهُ.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَافَاتِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وَعَنْ دَاوُدَ بْنِ صَالِحِ بْنِ دِينَارِ التَّمَارِ عَنْ أُمِّهِ أَنَّ مَوْلَاهَا أَرْسَلَتْهَا بِهَرِيسَةٍ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَوَجَدَتْهَا تُصَلِّي فَأَشَارَتْ إِلَيْهَا أَنْ ضَعِيهَا فَجَاءَتْ هَرَّةٌ فَأَكَلَتْ مِنْهَا فَلَمَّا انْصَرَفَتْ أَكَلَتْ مِنْ حَيْثُ أَكَلَتِ الْهَرَّةُ فَقَالَتْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الطَّوَافِينَ عَلَيْكُمْ». وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْغِي إِلَى الْهَرَّةِ الْإِنَاءِ حَتَّى تَشْرَبَ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا» (رواه الدارقطني وغيره، وصححه الألباني).

والسؤال الذي يطرح نفسه:

هل كان الرسول الأُمِّي ﷺ طبيباً مخبرياً ليقول إن الهرة طاهرة وليست بنجس، وقال إن لعاب الكلب نجس، وهذا شيء معروف للجميع اليوم وأثبت علمياً، فكيف علم بأنه لا يوجد في الهرة جراثيم؟ إن الحقائق العلمية والتجريبية الموثقة عن الهرة مطابقة لما جاء به النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً.

إن من عادات القط المعروفة تنظيفه لنفسه حتى إن العالم "باستير" قال إن القطط حيوانات نظيفة بسبب قضاائم يومهم في تنظيف أنفسهم، ولا يوجد منطقة في جسم القط إلا ويصلها هذا التنظيف.

ونظراً لتعرض جلد القط للبيئة الخارجية لن يكون من المفاجئ أن نعلم أن هناك خلايا فيه تعمل عمل دفاعي مثل الكريات البيضاء، والجلد يحوي خلايا عديدة تعدل من حساسية خلايا الأدمة. أما سطح اللسان فهو مغطى بعدد من التتوءات المدببة المشارية الشكل، وهذه التتوءات المعقوفة الكبيرة المخروطية يجعلها مبرد حقيقي أو فرشاة مفيدة جداً لتنظيف الجلد. فالقطط مجهزة بأفضل آلة للتنظيف وهي اللسان فالسطح الخشن يزيل الشعر الميت وينظف الوبر المتبقي.

إنه ليس من المستغرب أن القط يجب الحليب ولكن طريقة استعماله للسانه للعلق الحليب من الصعب تصورها، وعندما تتحسس لسان القط ستجد أنه مغطى بتتواءات حادة تعمل عمل أسنان المشط وكان البعض يظن أن هذه التتواءات تستخدم كجيوب صغيرة لتحمل السائل إلى الفم لكي يتم ابتلاعه ولكن بدلاً من هذه الطريقة التي تصور البعض أن القط يشرب بها فإن القط يجعل بطن اللسان لسطح السائل أو الحليب حيث يحمل السائل عليه بطريقة لا تجعل أي شيء منه يعود للوعاء.

وقد قام أحد الباحثين بفحص مجموعات مختلفة من العينات لأعمار مختلفة من القطط ومن أماكن مختلفة من جسم الحيوان (الظهر - باطن الكف والقدم - محيط الفم - الذيل) حيث أخذ مسحات للدراسة وتم زراعتها على أوساط الزرع الخاصة بالجراثيم (سلبية جرام - إيجابية جرام - وسط EMB - وسط Moler henton - وسط Blood agar)، وقد تم أخذ عينات خاصة من الجدار الداخلي للفم وسطح اللسان وتوصل للنتائج التالية:

١- كل النتائج المأخوذة من السطح الخارجي كانت سلبية حتى بعد إعادة الزرع لعدة مرات.

٢- نسبة المزروعات التي أعطت نتيجة سلبية كانت ٨٠ ٪ بالنسبة للعينات التي أخذت من جدار الفم.

٣- أخذت عينات من سطح اللسان وكانت نتائجها سلبية.

٤- نوع الجراثيم التي ظهرت أثناء الدراسة بشكل عام كانت من الزمر الجرثومية التي تعتبر من الزمر الطبيعية التي تتعايش عند الإنسان بنسب محددة (أنتروباكتري - ستريبتوكوكس - ستافيلوكوكس) وكانت بأعداد أقل من ٥٠٠٠٠ مستعمرة (خمسين ألف مستعمرة).

٥- لم يظهر لديه في الزراعة أي زمرة جرثومية معقدة.

إن التحليل المخبري الموثق من عدة مصادر يثبت أن الهر ليس عليه جراثيم ولا ميكروبات وأن لعبها طاهر مطهر.

أقوال أطباء مختصين بعلم الجراثيم:

قال الدكتور جورجس مقصود (رئيس قسم المخابر في مشفى البيطرة): «نادرًا ما نجد جراثيم على السطح الخارجي للقط وإن وجد فإن القط سيكون مريضًا». والقطط تكره الماء وتبتعد عنه لأن الماء هو موطن مثالي للبكتيريا وخصوصًا إن كان راكدًا والقطط تحافظ على درجة حرارتها ثابتة فتبتعد عن الشمس ولا تقترب من الماء لكي لا تنتقل البكتيريا لها وهذا يعلل عدم وجود جراثيم على فراء القطط الذي تحتفظ به جاف دائمًا.

وجه الإعجاز:

من هذه النتائج الطبية والتجارب التي أجريت في المختبرات المختصة بالجراثيم يتبين أن الهر جسدته نظيف بالكامل، وأن الله ﷻ زوّد هذا القط بغدد تحمي جلده من الجراثيم وبلسانٍ فيه تنوّات يساعد على تنظيف الجسد ويصل إلى كل الأماكن تقريبًا، وحتى قمة الرأس ينظفه القط بظهر كفه، ويتبين كذلك أن لعابه فيه نسبة جراثيم أقل مما عند الإنسان بمقدار الربع وفيه مادة معقمة ومطهرة، وأنه عندما يشرب من وعاء يشرب منه الإنسان لا يسقط شيء من فمه في هذا الوعاء.

و من الأحاديث النبوية الشريفة التي مرت علينا يظهر لنا أن النبي ﷺ عندما اعتبر سؤر الهرة طاهر وتوضأ به أنه أعطانا إشارة طبية إلى طهارة هذا الهر وإلا لَمَا كان توضأ بسؤره. فسبحان الله كيف عرف النبي ﷺ أن الهر ليس بنجس لو لم يكن رسول الله ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى.

علاج عرق النساء:

ما هو عرق النساء؟ هو مرض يصيب الإنسان فيُقْعِده تقريبًا عن الحركة بسبب آلام شديدة تقع في أسفل الظهر عند الورك الأيمن أو الأيسر أو كليهما. وسمي بذلك: لأن ألمه يُنْسِي ما سواه.

إن مرض عرق النساء ليس بالجديد بل هو مرض قديم ومعروف، وأما علاجه فإن العلماء اليوم قد وجدوا له ما يخففه أو يعالجه ويزيله، إلا أن هذا المرض القديم لم

يكن يُعرَف له علاج ناجع ومفيد سوى النوم بالفراش والاستسلام له، ولكن نجد أن رسولنا ﷺ وقد عاش في القرن السادس الميلادي أي قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أوصى المريض بعرق النسا بعلاج لم يعرفه من قبله أحد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: « شِفَاءُ عِرْقِ النَّسَا أَلِيَّةُ شَاةٍ أَعْرَابِيَّةٍ تُذَابُ ثُمَّ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةً أَجْزَاءٍ ثُمَّ يُشْرَبُ عَلَى الرِّيقِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُزْءٌ ». (رواه ابن ماجه في سننه، والحاكم في المستدرک وصححه، وأقره الذهبي والألباني).

من وصايا الحديث النبوي هذا نستخلص بأن الإلية يجب أن تكون لكبش عربي ويتم تقطيعها إلى أوصال صغيرة ثم تذاب ثم يقسم زيتها إلى ثلاثة أقسام ثم يشرب كل قسم في يوم على الريق أي قبل تناول أي شيء قبله.

بيان الشروط الواردة في الحديث النبوي الشريف:

١ - جاء في علاج عرق النسا أن تكون إلية شاة عربية وهي التي ترعى في الطبيعة وتعيش على النباتات الطبيعية والحشائش الغنية بمادة أميغا ٣ مثل نبات الشيح والقيصوم فالشاة الأعرابية بالغريزة ترعى الأعشاب المفيدة، وتبتعد عن الأعشاب السامة.

ولقد اكتشف العلم الحديث أكثر من ٧٠٠ دواء من الأعشاب البرية فالشاة الأعرابية ترعى على النباتات البرية المفيدة وتهضمها وتحول زيوتها المفيدة إلى دهون تتركز في إليتها.

٢ - يتم تقطيع الإلية إلى أوصال صغيرة ثم تذاب ثم يقسم زيتها إلى ثلاثة أقسام ثم يشرب كل قسم في يوم على الريق أي قبل تناول أي شيء قبله، فما الحكمة العلمية المستقاة من هذه الشروط التفصيلية؟

أما في قوله (تُذَابُ) ففائدة ذلك هو لتعقيم الإلية برفع درجة الحرارة إلى درجة متوسطة كافية لقتل البكتريا والجراثيم إضافة لتذويب الدهون الغير مشبعة، ولكن دون الوصول إلى درجة حرارة عالية مثل ما يحدث في عملية القلي بالزيوت، حيث يتغير الشكل الهندسي للدهون الغير المشبعة من شكل الجيد للجسم البشري والمتوفر في

الحالة الطبيعية للزيوت النباتية، إلى الشكل غير الطبيعي والذي تتحول فيه هذه الدهون إلى مواد ضارة بصحة الإنسان.

أما تقسيمها إلى ثلاثة أقسام لا أكثر ولا أقل فإن زيادة الجرعة إلى أكثر من ثلاثة قد يؤدي إلى تزنج وفساد الدهن بتعرضه للتأكسد الذي يكتشف بتغير طعمه، وأما إنقاص الجرعات إلى أقل من ثلاث فهو لأن الكمية الكبيرة من هذا الزيت الحيواني قد يؤدي تناولها دفعة واحدة إلى حدوث أعراض أو إصابة بتصلب الشرايين المفاجئ أو ما يسمى بالجلطة.

٣- وأما قوله (عَلَى الرِّيقِ) فيبين أهمية أن يتناول الإنسان السائل الدهني على الريق حيث إن تناول الإنسان السائل على الريق يعني عدم وجود دهن آخر يمكن أن ينافس دهن الإلية ويعرقل استئثارها بالعديد من السوائل والأنزيمات المهمة، مثل سوائل المرارة والبنكرياس التي تعمل على تسهيل مرور الدهون عن طريق جدار القناة الهضمية إلى داخل الجسم، ومثل الإنزيمات التي تعمل ضمن الجدار الخلوي كي تحول دهون الإلية من نوع "أوميغا ٣" إلى "البرستجلندينات" النافعة من الصنف الثالث والتي تخفف الالتهابات والآلام الناتجة عن مرض عرق النسا.

دور الدهون في علاج عرق النسا:

قام الدكتور زهير بن رباح قرامي؛ وهو طبيب متخصص في مجال أمراض الروماتويد والروماتيزم - وهو يعمل حالياً في مستشفى خاص رئيساً لقسم العلاج الطبيعي - قام بمعالجة بعض من ابتلى بعرق النسا، فتحقق له أن تناول هذه الألية بالكيفية التي أرشد لها الرسول الكريم ﷺ قد أفضى لنتائج طيبة؛ ولذلك فإنه قد أنجز بحثاً بعنوان "علاج عرق النسا بألية شاة أعرابية" إذ ذكر فيه آليّة الاستشفاء بألية الشاة الأعرابية، وكيف أن هذه الألية تحتوي على مجموعة من الدهون منها نوع مفيد جداً في هذا المجال اسمه (أوميغا ٣).

كما أنه ذكر بعض الحكم التي يشير إليها الرسول ﷺ عندما يرشد إلى اختيار الشاة الأعرابية، وأن يتم تناولها شرباً بعد الإذابة وأن يتم ذلك على ثلاث دفعات كل

يوم دفعة؛ مبيناً كذلك ما الذي يحدث لدهن الألية عند امتصاص الأمعاء لها وبخاصة لدى تناولها على الريق. وقد شفع بحثه بشهادات بعض الذين حصل لهم الشفاء بتعاطي هذه الوصفة النبوية.

وجه الإعجاز:

إن من يعطي وصفة طبية لآخر فهو أحد اثنين إما أن يكون طبيباً وإما أن يكون قد أخبر من مصدر آخر أعلم بهذا المرض منه! ورسولنا محمد ﷺ لم يكن طبيباً ولم يُعرف عنه أنه كان يمارسه بل لا يُعرف في زمنه مَنْ كان يصف العلاج بهذه الصورة ممن كان يمارس الطب في زمنه، فإن وصفة العلاج التي مرت بنا هي فريدة من نوعها لم يسبق أن دونها أحد من الحكماء ولا الأطباء. بقي إذن الاحتمال الآخر وهو أن الله ﷻ هو الذي أخبر النبي محمداً ﷺ.

التداوي بأبوال الإبل:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلِ ثَمَانِيَّةٍ، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ فَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَفَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ، فَتَصِيبُونَ مِنَ اللَّبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا» قَالُوا: «بَلَى»، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ اللَّبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَصَحُّوا. (رواه البخاري ومسلم).

ومعنى (استَوْخَمُوا الْأَرْضَ): أي استثقلوها ولم يناسبهم سُكْنَاهَا.

ومما جاء في التداوي بأبوال الإبل أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي أَبْوَالِ الْإِبِلِ وَاللَّبَانِهَا شِفَاءً لِلدَّرْبَةِ بَطُونُهُمْ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وحسنه الأرناؤوط، وضعفه الألباني).

والدَّرْبُ: هو الداء الذي يَعْرِضُ للمعدة فلا تَهضمُ الطَّعَامَ وَيَفْسُدُ فيها ولا تُسَكِّهه، أي هو فساد المعدة حتى لا يثبت الطعام فيها، وقيل من معانيها: الدَّرْبُ: داءٌ يكون في الكبدِ بَطِيءُ البرءِ.

وأجاز جمهور العلماء التداوي بأبوال الإبل.

إن الجمل يستطيع تحمل درجات الحرارة حتى ٧٠ درجة مئوية فوق الصفر، والجمل ذو السنامين يتحمل برودة تصل إلى ٤٠ درجة تحت الصفر!

والجمل يستطيع شرب الماء العذب والمالح! ولديه القدرة على تحمل العطش لأكثر من شهر. ويستطيع الجمل السير في الصحراء مهما كانت الظروف من غبار وعواصف وحرارة. وقد أثبت العلماء حديثاً الفوائد العظيمة في ألبان الإبل وأبوالها وذلك في علاج العديد من الأمراض، وهذا ما حدثنا عنه الرسول الكريم ﷺ.

حقائق علمية مذهشة في الجهاز البولي للإبل:

إن الكليتين في الإنسان وفي سائر الحيوانات تعمل على طرد مادة البولينا (اليوريا) وطرحها في البول، بينما يختلف الأمر كلياً في الإبل، فكليته لها القدرة على التحكم في إخراج اليوريا مع البول، والقدرة الأكثر عجباً هي أن الكليتين لا تكتفي بمنع خروج اليوريا مع البول فقط بل تخلصانها من البول وتعيدها إلى الدم حتى تعود إلى المعدة بآلية عجيبة ليتم تصنيعها داخل المعدة وإنتاج البروتين، وهذه الصفة خاصة بالإبل، ولها أهمية كبيرة في تحمّل الإبل للجوع، وبذلك تصبح المادة السامة (اليوريا) مصدرًا غذائيًا جيدًا عند الإبل حيث يضاف ذلك البروتين المصنّع في المعدة إلى النباتات الفقيرة بالبروتين والتي لا يوجد غيرها في المراعي، وخاصة في سنوات القحط والجفاف.

وعند زيادة كمية اليوريا عن حاجة الإبل فإن الكمية الزائدة من اليوريا تخرج مع البراز ولا تعود إلى الكليتين، وهذا الأمر يجعل بول الإبل خالياً من الأضرار الناتجة عن تناول المادة السامة (اليوريا).

ومن الحكمة الإلهية أن الإبل تتغذى على النباتات بطريقة مختلفة عن سائر الحيوانات الأخرى بسبب خلقها المتميز بإذنه تعالى، لذا فإنها تتغذى على نباتات مختلفة بالإضافة إلى أن خفافها تحملها إلى مناطق بها نباتات لا تستطيع غيرها من الحيوانات الوصول إليها، كما أن طريقة تغذيتها بقضمها من كل نبات قزمة أيضاً يُظهر حكمة إلهية لإظهار تنوع المواد الفعالة المتواجدة في النباتات في أبوالها وسيحصل عليها

الإنسان جاهزة في أبوالها بدلاً من محاولة فصلها بالطرق الشاقة والمكلفة من قبل الإنسان.

وقد تم عزل بكتريا من بول الإبل وأثبتت التجارب البحثية أن تلك البكتريا تمتلك قدرة عالية على مكافحة بعض الميكروبات الممرضة شملت البكتريا الفطريات والخميرة الممرضة، وهذه البكتريا ستضيفي على أبوال الإبل دوراً في العلاج سواء عن طريق المكافحة الحيوية لمسببات الأمراض أو عن طريق ما تفرزه من مضادات حيوية.

القدرة العلاجية لبول الإبل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

استطاع العلم أن يتوصل إلى كثير من الحقائق العلمية التي كانت غائبة عن أذهان الناس وعن معارفهم إلى وقت ليس بالبعيد، فمن خلال الاكتشافات الطبية والتائج المخبرية توصل العلماء إلى كثير من الفوائد العلاجية في أبوال الإبل، ولا يزال البحث مستمرًا إلى يومنا هذا، ومما جاء في ذلك:

١- بول الإبل يعالج أنواعاً من السرطان:

أجريت تجربة علمية ومخبرية في كلية الزراعة في جامعة الكويت وذلك بالتعاون مع مكتب الطب الإسلامي في الكويت عام ١٩٨٨م، حيث أجريت في هذه التجربة عملية حقن نباتات مسرطنة بتركيز مختلفة من بول الإبل، وذلك بغرض إمكانية تثبيط نمو الخلايا السرطانية ببول الإبل. وهذه الدراسة استندت إلى أن البدو في الكويت والصحراء العربية يعالجون السرطان ببول الإبل.

وقد خلصت هذه التجربة إلى أن بول الإبل قد أوقف نمو الخلايا السرطانية بعد عدة أسابيع من استعماله وأنه يمكن أن يفيد في علاج سرطان الجهاز الهضمي وسرطان الدم.

٢- بول الإبل علاج نافع لداء الاستسقاء وأمراض الكبد:

من التجارب الجيدة في ذلك التجارب التي أجراها عميد كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة السودانية البروفسور أحمد محمد أحمداني، وقد أجريت على (٢٥) مريضاً، حيث جرى تشخيص لأكباد المرضى قبل بداية الدراسة بالموجات الصوتية،

وتم اكتشاف أن كبد خمسة عشر مريضاً من الخمسة وعشرين مريضاً في حالة تشمع، وبعضهم كان مصاباً بتليف الكبد بسبب مرض البلهارسيا، وطريقة العلاج كانت عن طريق إعطاء جرعة يومية محسوبة من بول الإبل (بمقدار ١٥٠ مل) مخلوطة مع لبنه.

وقد استجاب جميع المرضى للعلاج باستخدام بول الإبل، وبعد خمسة عشر يوماً من بداية التجربة انخفضت بطون أفراد العينة وعادت لوضعها الطبيعي، وشفوا تماماً من الاستسقاء، وهو تجمع السوائل في تجويف الجسم نتيجة مشاكل في الكبد.

وبعض أفراد العينة من المرضى استمروا برغبتهم في شرب جرعات بول الإبل يومياً لمدة شهرين آخرين، وبعد نهاية تلك الفترة أثبت التشخيص شفاءهم جميعاً من تليف الكبد، وقال البروفسور أحمداني في ندوة نظمها جامعة الجزيرة: إن بول الإبل يحتوي على كمية كبيرة من البوتاسيوم، كما يحتوي على زلال وماغنسيوم، إذ إن الإبل لا تشرب في فصل الصيف سوى أربع مرات فقط ومرة واحدة في الشتاء، وهذا يجعلها تحتفظ بالماء في جسمها لاحتفاظه بمادة الصوديوم، إذ إن الصوديوم يجعلها لا تدر البول كثيراً؛ لأنه يرجع الماء إلى الجسم، وأوضح أن مرض الاستسقاء ينتج عن نقص في الزلال، أو في البوتاسيوم، وبول الإبل غني بهما، وأشار إلى أن أفضل أنواع الإبل التي يمكن استخدامها بولها في العلاج هي الإبل البكرية.

٣- بول الإبل ودوره في علاج أمراض الجهاز الهضمي:

من التجارب الحديثة في ذلك التجربة التي أجرتها الدكتورة سناء أحمد خليفة، حيث قامت تجربتها على دراسة التغيرات النسيجية المرضية في أمعاء الأرانب والتي تظهر عند إصابة الحيوانات ببكتريا القولون ثم دراسة تأثير المعاملة بعقار "الباكترِيم" وأيضاً بأبول الإبل على الأنسجة المصابة وذلك من خلال تتبع التغيرات النسيجية والخلوية والكيمياء نسيجية بتلك الأنسجة ولمعرفة القيمة العلاجية لكل منها.

وأظهرت هذه التجربة المقدرة العالية لبول الإبل في القضاء على هذه البكتريا وإيقاف الإسهال، مع ملاحظة عدم وجود أي آثار جانبية سلبية على الأرانب التي عولجت ببول الإبل. وخلصت الدكتورة سناء خليفة في نهاية تجربتها إلى أن بول الإبل له

فعالية عالية ضد الميكروبات الممرضة والتي تسبب أمراضًا مختلفة للإنسان والحيوان والنبات، وأنه يمكن استخدام بول الإبل كمضاد فعال ضد الإسهال للإنسان والحيوان.

٤- بول الإبل وعلاج الأمراض الجلدية:

أثبتت التجارب الحديثة قدرة بول الإبل في علاج بعض الأمراض الجلدية، فقد قامت الدكتورة أحلام العوضي بتجربة في عام ١٩٩٨م على بعض الأشخاص لعلاجهم بأبوال الإبل وتم علاجهم من عدد من الأمراض الجلدية بالإضافة إلى الجروح.

وذكرت الدكتورة أحلام أن بول الإبل استخدم لعلاج السعفة (التينيا) والدمامل والجروح التي تظهر في جسم وشعر الإنسان سواءً في الرأس أو الوجه بالإضافة إلى علاج القروح التي تكون يابسة أو رطبة يسيل منها الصديد.

٥- اكتشاف مضاد حيوي ذو فعالية عالية من بول الإبل:

توصلت منال القطان من خلال أطروحتها التي أشرفت عليها الدكتورة أحلام العوضي عام ٢٠٠٢م إلى مستحضر طبي من بول الإبل، وتمت تسميته (أ- وزرين)، وأثبتت التجارب العملية أن بول الإبل في صورته الطبيعية حتى لو صيغ في صورة مستحضر طبي ظهرت له فعالية عالية للقضاء على الفطريات، والبكتيريا والخميرة المسببة للأمراض الجلدية، وأثبت المستحضر فعالية في علاج العديد من المتطوعين خاصة أن منهم من لم يفلح معهم العلاج الطبي بصورة فعالة وهي حالات إصابة الأظافر بالفطريات والخميرة، كما كان للمستحضر دور فعال في علاج الجروح، الشقوق الشرجية، الحساسية، والدمامل.

ومن مزايا المستحضر كما تقول الدكتورة أحلام: أنه غير مكلف، ويسهل تصنيعه، ويعالج الأمراض الجلدية: كالإكزيما، والحساسية، والجروح، والحروق، وحب الشباب، وإصابات الأظافر، والسرطان، والتهاب الكبد الوبائي، وحالات الاستسقاء، بلا أضرار جانبية، وقالت: إن بول الإبل يحتوي على عدد من العوامل

العلاجية كمضادات حيوية (البكتيريا المتواجدة به والملوحة واليوريا)، فالإبل تحتوي على جهاز مناعي مهياً بقدرة عالية على محاربة الفطريات والبكتيريا والفيروسات، وذلك عن طريق احتوائه على أجسام مضادة.

٦- بول الإبل يطيل الشعر ويمنع تساقطه ويزيل القشرة:

أجرت الباحثة السودانية منى شيخ إدريس في جامعة "الأحفاد للبنات" عام ١٩٨٩م دراسة على بول الإبل؛ والسبب في دراستها هذه أنها وجدت أن النساء البدويات في القبائل التي ترعى الإبل - خاصة في المغرب العربي- يغسلن شعرهن بصورة منتظمة ببول الإبل الذي يعمل كمنظف يزيل القشرة، ويمنع التساقط، ويعتقدن أنه يطيل الشعر.

وخلصت دراستها إلى أن بول الإبل يحتوى على قدر عالي من مركبات الكبريت والثيوسلفيت، وهي أهم مكونات الشامبو ومنظفات الشعر بالإضافة إلى تجربة عملية لعلاج مرض الجرب في الجمال ببول الإبل، فتوصلت منى إلى نتائج مذهلة في إنبات الشعر في الجمال التي أصابها الجرب.

وتواصل الدكتورة أحلام العوضي في سرد فوائد بول الإبل فتقول: كما أن في بول الإبل علاجاً لأوجاع البطن وخاصة المعدة والأمعاء، وأمراض الربو وضيق التنفس، وانخفاض نسبة السكر في المرضى بدرجة ملحوظة، وعلاج الضعف الجنسي، ويساعد على تنمية العظام عند الأطفال، ويقوي عضلة القلب، ويستخدم كمادة مطهرة لغسل الجروح والقروح، وخاصة بول الناقة البكر، ولنمو الشعر وتقويته وتكاثره ومنع تساقطه، ولمعالجة مرض القرع والقشرة، كما يستخدم بول الإبل في مكافحة الأمراض بسلالات بكتيرية معزولة منه، وقد عولجت به فتاة كانت تعاني من التهاب خلف الأذن يصاحبه صديد وسوائل تسيل منها، مع وجود شقوق وجروح مؤلمة، كما عولجت به فتاة لم تكن تستطيع فرد أصابع كفيها بسبب كثرة التشققات والجروح، وكان وجهها يميل إلى السواد من شدة البثور.

وتقول الدكتوراة أحلام أيضًا: إن أبوال الإبل تستخدم أيضًا في علاج الجهاز الهضمي، وأشارت إلى أن الأبحاث التي أجرتها هي على أبوال الإبل أثبتت فاعليتها في القضاء على الأحياء الدقيقة كالفطريات والخمائر والبكتيريا.

هذه هي بعض الفوائد العلاجية لبول الإبل، ولا تزال هناك الكثير من الدراسات العلمية التي تجرى على بول الإبل، وسيكشف لنا المستقبل عن نتائج هذه الدراسات.

وجه الإعجاز:

بعد هذا السرد لهذه الفوائد العلاجية التي توصل إليها العلم الحديث في مجال التداوي ببول الإبل، نعلم أنه لم يبقَ هنالك أي محل لأدنى شك في أن أبوال الإبل لها قدرة علاجية فاعلة على مستويات متعددة، وخصوصًا أمراض الجهاز الهضمي وأمراض الكبد والأمراض الجلدية.

وهذا كله يتوافق مع التوجيهات النبوية والتي أشارت إلى أن أبوال الإبل - من دون سائر الأبوال - لها قدرة علاجية، ولم تكتفِ الأحاديث بالإشارة إلى ذلك فقط، بل نجدها تصف بول الإبل لعلاج حالات مرضية معينة.

سؤال وجوابه:

قد يقول قائل إن العصر الذي عاش فيه النبي ﷺ كان من الطبيعي أن يشرب الناس حليب الإبل، وقد أمر بشرب حليب الإبل ليس لحكمة طبية بل لأنه عادة!

والجواب: إن العصر الذي عاش فيه النبي ﷺ كانت تنتشر فيه الكثير من أنواع الغذاء والشراب، فلماذا حرّم الخمر؟ ولماذا حرّم أكل السباع وأكل لحم كل ذي ظفر؟ ولماذا لم يأمر قومه بأكل لحم الحمار مثلاً؟ إذاً عندما سنّ النبي الأعظم أكل التمر وشرب ألبان الإبل وغير ذلك من الهدى النبوي الشريف إنما تقصّد هذه الأنواع لما فيها من الفائدة والشفاء.

الحجامة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مُحْجَمٍ، وَكَيْةٍ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ» (رواه البخاري).

وقد أوصت الملائكة النبي ﷺ وأُمته بالحجامة: فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي فِي بِمَلٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا كُلُّهُمْ يَقُولُ لِي عَلَيكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحِجَامَةِ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

الحجامة هي سحب الدم الفاسد من الجسم الذي يسبب مرض معين أو قد يسبب مرض في المستقبل بسبب تراكمه وامتلائه بالأخلاق الضارة.

والحجامة تنقي الدم من الأخلاق الضارة التي هي عبارة عن كريات دم هرمية وضعيفة لا تستطيع القيام بعملها على الوجه المطلوب من إمداد الجسم بالغذاء الكافي والدفاع عنه من الأمراض فبالحجامة تسحب هذه الأخلاق الضارة من كريات الدم الحمراء والبيضاء ليحل محلها كريات دم جديدة.

تكرار الحجامة:

إن تكرار الدواء، ومنه الحجامة، وأخذه على شكل جرعات متتالية ينبغي أن يكون حسب خبرة الطبيب المعالج ونوع المرض وإمكانية بُرئه، لأن كثيراً ممن يأخذون بالأسباب التي أمرنا بها شرعاً يغفلون عن هذا الأمر.

الحالات التي تفيد فيها الحجامة:

تفيد الحجامة فيما يقرب من ثمانين حالة ما بين مرض وعرض، وذلك طبقاً لنتائج الخبرة العملية التي سجلها الممارسون، كالروماتيزم، والنقرس، والشلل النصفي، والكلية، وضعف المناعة، والبواسير وتضخم البروستاتا، والغدة الدرقية، والضعف الجنسي، وارتفاع ضغط الدم، وقرحة المعدة، والقولون العصبي، والتبول اللاإرادي في الأطفال فوق خمس سنوات، وضيق الأوعية الدموية، وتصلب الشرايين، والسكر، ودوالي الساقين والخصية، والسمنة، والنحافة، والعقم، والصداع الكلبي

والنصفي، وأمراض العين، والكبد، والكلى، وضعف السمع، والتشنجات، وضمور خلايا المخ، ونزيف الرحم، وانقطاع الطمث، وغير ذلك كثير.

استطبابات الحجامه في هدي النبوة:

١- تَبَيُّغُ الدَّم: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا هَاجَ بِأَحَدِكُمُ الدَّمُ فَلْيَحْتَجِمْ؛ فَإِنَّ الدَّمَ إِذَا تَبَيَّغَ بِصَاحِبِهِ يَقْتُلُهُ». (أخرجه ابن جرير الطبري في "تهذيب الآثار" وهو في "السلسلة الصحيحة" للألباني).

والتبيغ هو التهيج، والمعنى زيادة الدم أو تهيجه وأكثر ما يحدث في ارتفاع التوتر الشرياني المترافق باحتقان الوجه والملتحمتين والشفنتين واليدين والقدمين ويحدث أيضًا في فرط زيادة كرات الدم الحمراء والتي تحدث بأسباب عديدة.

٢- أوجاع الرأس أو الصداع: عَنْ سَلَمَى خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: مَا كَانَ أَحَدٌ يَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا فِي رَأْسِهِ إِلَّا قَالَ: «اِحْتَجِمْ». وَلَا وَجَعًا فِي رِجْلَيْهِ إِلَّا قَالَ «اخْضِبْهُمَا». (رواه أبو داود، وحسنه الألباني).

٣- الشقيقة (الصداع النصفي): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اخْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فِي رَأْسِهِ مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ. (رواه البخاري).

٤- علاج الوثء - وهو التواء المفصل العنيف: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَجَمَ عَلَى وَرِكَيْهِ مِنْ وَثْءٍ كَانَ بِهِ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

٥- علاج الآلام: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اخْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ عَلَى ظَهْرِ الْقَدَمِ مِنْ وَجَعٍ كَانَ بِهِ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

6- علاج الخراج:

عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: جَاءَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَهْلِنَا وَرَجُلٌ يَشْتَكِي خُرَاجًا بِهِ أَوْ جَرَا حًا فَقَالَ: «مَا تَشْتَكِي؟»، قَالَ: خُرَاجٌ بِي قَدْ شَقَّ عَلَيَّ. فَقَالَ: «يَا غُلَامُ ائْتِنِي بِحَجَّامٍ». فَقَالَ لَهُ: «مَا تَصْنَعُ بِالْحَجَّامِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟». قَالَ: «أُرِيدُ أَنْ أُعْلِقَ فِيهِ مِحْجَمًا». قَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّ الدُّبَابَ لَيُصِيبُنِي أَوْ يُصِيبُنِي الثَّوْبُ فَيُوْذِنُنِي وَيَشُقُّ عَلَيَّ».

فَلَمَّا رَأَى تَبَرُّمَهُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مُحْجَمٍ أَوْ شَرَبَةٍ مِنْ عَسَلٍ أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتُوِيَ». قَالَ: فَجَاءَ بِحَجَّامٍ فَشَرَطَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ. (رواه مسلم). (الخُراج): تجمع صديديٍّ محدود في جزء متورِّم ملتهب من الجسم ينشأ عادةً من عدوى بكتيريّة.

آلية تأثير الحجامة:

تشابه آلية تأثير الحجامة آلية تأثير الإبر الصينية والنقاط الانعكاسية في الجسم حيث تبنى آلية هذه الوسائل على نظرية مسارات الطاقة في الجسم وهي نظرية صينية قديمة تفترض وجود مسارين للطاقة أحدهما يسمى (الين) والآخر يسمى (اليانج) وذلك في مفهوم عام من الطاقة يسمى (تشاي) أو القوة الحيوية، وهذان المساران متكاملان على الرغم من كونهما متعارضين، ويجب أن يكونا في حالة توازن حتى ينعم الجسم بالصحة والقوة.

وهذه القوة الحيوية تدور في الجسم في مسارات تشابه مسارات الدم واللمف والأعصاب، وسمّوها خطوط "الميريديان" أو خطوط الطول والعرض، ويمكن رصد هذه المسارات الآن بالطرق الإلكترونية ووسائل أخرى، وهناك ٢٦ دائرة رئيسة من خطوط "الميريديان" وكل دائرة مقترنة بوظيفة أو عضو من وظائف وأعضاء الجسم.

وتشكل خطوط "الميريديان" شبكة تغطي كل الجسم من الأمام والخلف والأطراف العليا والسفلى، ويوجد عليها ٣٦١ نقطة يمكن استخدامها لإحداث التوازن المفقود في بعضها فيشفى العضو المعطوب.

وقد صُمِّمَت أجهزة حديثة للجمع بين العلاج بالحجامة الجافة والعلاج بالإبر الصينية وتوضع على نفس نقاط الحجامة ونقاط الإبر الصينية.

ويعالج بهذه الأجهزة أمراض الشريان التاجي في القلب وارتفاع ضغط الدم، وخفقان القلب، وارتفاع الدهون في الدم، والتهاب المعدة وقرحة المعدة والاثني عشر، والإسهال المزمن، والتهاب الكبد المزمن، وحصوات المرارة، والتهاب البروستاتا،

والعجز الجنسي، والشلل النصفي للوجه، والصداع والشقيقة، وتصلب الرقبة وآلامها وعرق النساء، وآلام أسفل الظهر، والانزلاق الغضروفي وآلام فقرات الظهر، ومرض الروماتويد، وآلام القدم، ودوار البحر والسيارات، والاضطرابات العقلية عند المسنين، وإسهال الرضع، وآلام الأسنان، وضعف السمع، والتهابات الخصية المصحوبة بتجمع مائي، والربو والالتهابات الرئوية والسعال والنزلات الشعبية، وحتى نزلات البرد.

وأهم الأمراض التي يمكن أن تفيد في علاجها الحجامة الرطبة الآلام الروماتيزمية المزمنة، الصداع المزمن نتيجة لارتفاع ضغط الدم، ضغط الدم المرتفع، البواسير، الإكزيما الحادة والمزمنة وبعض الأمراض الجلدية، هبوط القلب المصحوب بارتشاح في الرئتين، أمراض الصدر والقصبة الهوائية وآلام المرارة والأمعاء وآلام الخصية، وانقطاع الطمث الأولي والثانوي.

كما تساعد الحجامة الجافة والرطبة في تسكين الآلام وتخفيف الاحتقان بصفة عامة في كثير من الأماكن في الجسم خصوصاً في بعض أمراض الرئة الحادة، واحتقانات الكبد، والتهابات الكلية، والتهاب غشاء التامور، والآلام العصبية القطنية والوربية، والوجع الناحس.

العلاج بالحجامة في الطب الحديث:

تنتشر في كثير من البلاد الأوروبية والأمريكية جامعات ومعاهد لتعليم الطب البديل أو الطب المكمل ومراكز علاجية كثيرة مبنية على وسائله المتعددة وتحتل الحجامة موقعاً بارزاً بين هذه الوسائل تعليمياً وتطبيقاً.

الأبحاث العملية والسريية:

أجرى عدد من الأطباء والباحثين عدة أبحاث سريرية على كثير من المرضى خصوصاً أولئك الذين يعانون من أمراض استعصى على الطب الغربي التقليدي علاجها، وقد أجريت عدة أبحاث عملية لتقييم هذه الوسيلة علاجياً، وكان أبرز هذه الأبحاث بحث للدكتور عصام المقدم أخصائي الجراحة العامة بمستشفى التأمين

الصحي بالقاهرة ألقاه في "المؤتمر العالمي للطب البديل"، والذي أقامته إحدى المستشفيات العسكرية بالمنطقة الشمالية بالمملكة العربية السعودية.

أجرى الدكتور عصام المقدم بحثه على سبعين مريضاً يعانون من أمراض واختلالات عديدة، وقد عولج بعض هؤلاء المرضى بالحجامة بمفردها وبعضهم بالحجامة والعلاج التقليدي مصاحباً لها، وقد تحسنت حالة ٥٦٪ منهم تحسناً واضحاً، وتحسنت حالة ٤٣٪ منهم تحسناً أقل من الأول، ومن لم يستفد من الحجامة ١٪ فقط من هؤلاء المرضى.

وتؤكد أحاديث النبي ﷺ وهذه الأبحاث العملية أن الحجامة طريقة علاجية فعالة وبسيطة وغير مكلفة لبعض الأمراض وأنها ليست الوسيلة الوحيدة لعلاج جميع الأمراض كما يظن كثير من الناس؛ بل هي إحدى الوسائل العلاجية التي تفيد في بعض الأمراض بنسبة من الشفاء تقل أو تكثر تبعاً لظروف وأسباب عديدة.

وجه الإعجاز:

استخدمت الحجامة في عدد من الحضارات القديمة وعرفها العرب في جاهليتهم وأقرهم الرسول ﷺ على استخدامها ثم انتقلت إلى أوروبا عبر الوجود الإسلامي في الأندلس واستمر استخدامها إلى اليوم وقد أوصى رسول الله ﷺ باستخدامها في حالات أوجاع الرأس الشديدة (الصداع) التي سببها ارتفاع ضغط الدم والصداع الوعائي، وحالات الصداع النصفي (المعروف بالشقيقة) وحالات تهيج الدم نتيجة لارتفاع التوتر الشرياني وزيادة عدد كريات الدم الحمراء وفي حالات الالتواء العنيف للمفاصل وحالات الآلام الشديدة.

وقد أكدت البحوث الطبية كل ذلك، وتعتبر الحجامة شبيهة بعمل الإبر الصينية أو التدليك فتؤثر على الجزء المصاب أو الذي يعاني من الآلام إذ تنطلق نبضات حسية من مكان الإصابة أو الألم على هيئة استغاثة إلى مراكز الحس والتحكم غير الإرادي بالدماء فتنبعث في الحال أعداد من المواد الكيميائية والهرمونات من الجزء المصاب أو المريض إلى مناطق مركزية في المخ فيرسل المخ على الفور إلى الأجهزة

المتحكمة في عمليات الجسم الحيوية المختلفة أمراً بإسعاف الجزء المصاب أو المتألم وإعاقته على تجاوز إصابته أو مرضه بالوسائل المناسبة، وأفضل العلاج ما يقوم به جسد الإنسان بذاته لمختلف الأجزاء فيه كما أثبتت البحوث الطبية المختلفة.

إن هذا الكم من المعلومات الدقيقة والتي تؤكد أن للحجامة تأثيراً مباشراً وسريعاً في تحقيق تغيرات إيجابية فعالة في جسم الإنسان، بالإضافة إلى ما ينتج عنها من إزالة لأمراض عديدة، إن هذا التوافق في نتائج الأبحاث الحديثة وبين نتائج عملية الحجامة القديمة، لم يكن وليد يوم وليلة بل هو حصاد جهود مضيئة وبحوث كثيرة وتجارب متكررة أخذت الوقت الكبير للوصول إلى صحة نتائج هذه العملية البسيطة والمسماة الحجامة.

إن هذه العملية العلاجية أمر بها نبينا الأُمِّي ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً في بيئة بدوية ليس لديها أبسط مقومات البحث التجريبي كالذي نجده اليوم من المختبرات والأجهزة الدقيقة والتكنولوجيا المتقدمة، ومع ذلك نجد كل هذه النتائج المذهلة التي إن دلت على شيء إنما تدل على أن نبينا ﷺ هو رسول الله بحق وأنه لا ينطق عن الهوى بل هو رسول يوحى إليه الوحي فيبلغه من غير زيادة أو نقصان.

أحاديث تحنيك المولود:

يظهر اهتمام الدين الإسلامي بتحنيك المولود من خلال الروايات التي تذكر حرص النبي ﷺ على تحنيك حديثي الولادة، حتى أصبح ذلك سنة ثابتة عنه ﷺ.
فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُؤْتِي بِالصَّبِيِّانِ فَيَبْرِكُ عَلَيْهِمَا وَيُحَنِّكُهُمَا. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، قَالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ، فَاتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ قُبَاءً فَوَلَدْتُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَعَهَا، ثُمَّ تَقَلَّ فِيهِ فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ فَبَرَكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي

الإسلام، ففرحوا به فرحاً شديداً، لائمتهم قيل لهم إن اليهود قد سحرتكم فلا يؤلد لكم. (رواه البخاري ومسلم).

الحنك من الإنسان والدابة باطن أعلى الفم من داخل، والتحنك أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فمه.

واتفق العلماء على استحباب تحنك المولود عند ولادته بتمر، فإن تعذر فما في معناه وقريب منه من الحلوى، فيمضغ المحنك التمر حتى يصير مائعة بحيث تبتلع ثم يفتح فم المولود ويضعها فيه ليدخل شيء منها جوفه.

تحنك المولود في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

وقد كشف العلم الحديث عن فوائد تحنك المولود، وأثبت أن له دوراً وقائياً وعلاجياً للمولود، إن مستوى سكر الجلوكوز في دم الأطفال اليافعين والبالغين يتراوح ما بين ٧٠ - ١٢٠ ملليجرام لكل ١٠٠ مليلتر من الدم في حالة الصيام، ويرتفع بعد الأكل أو شرب مواد سكرية إلى أقل من ١٨٠ ملليجرام خلال ساعة، ثم يعود ليهبط لمستواه خلال ساعتين.

أما بالنسبة للمولودين حديثاً فإن مستوى السكر في الدم يكون منخفضاً، وكلما كان وزن المولود أقل كلما كان مستوى السكر منخفضاً، وبالتالي فإن مواليد الخداج - وزنهم أقل من ٥, ٢ كجم - يكون مستوى السكر لديهم منخفضاً جداً، بحيث يكون في كثير من الأحيان ٢٠ ملليجرام لكل ١٠٠ مليلتر من الدم.

وأما المواليد أكثر من ٥, ٢ كجم فإن مستوى السكر في الدم لديهم يكون عادة فوق ٣٠ ملليجرام، ويعتبر هذا المستوى - ٣٠ ملليجرام أو أقل عند من يكون وزنهم أكثر من ٥, ٢ كجم، أو ٢٠ ملليجرام أو أقل عند المواليد الخداج - هبوطاً شديداً في مستوى سكر الدم، وقد يؤدي ذلك إلى الأعراض الآتية:

- أن يرفض المولود الرضاعة.
- ارتخاء العضلات.
- توقف متكرر في عملية التنفس وحصول ازرقاق في الجسم.

- اختلاجات ونوبات من التشنج.
- وقد يؤدي ذلك إلى مضاعفات خطيرة مزمنة وهي:
- تأخر في النمو.
- تخلف عقلي.
- شلل دماغي.
- إصابة السمع أو البصر أو كليهما.
- نوبات صرع متكررة (تشنجات).

وإذا لم يتم معالجة الحالة في حينها قد تنتهي بالوفاة، رغم أن علاجها سهل وهو إعطاء سكر الجلوكوز مذاباً في الماء إما بالفم إذا كان المولود قادراً على البلع، أو بواسطة الوريد إذا لم يكن قادراً على البلع، مع معالجة الإنتانات والأمراض الأخرى المصاحبة، مع توفير الأكسجين بالحضانات وخاصة لدى مواليد الخداج.

وجه الإعجاز:

إن قيام الرسول ﷺ بتحنيك الأطفال المواليد بالتمر بعد أن يأخذ التمرة في فيه ثم يحنكه بها ذاب من هذه التمرة بريقه الشريف فيه حكمة بالغة، فالتمر يحتوي على السكر (الجلوكوز) بكميات وافرة وخاصة بعد إذابته بالريق الذي يحتوي على أنزيمات خاصة تحول السكر الثنائي (سكروز) إلى سكر أحادي، كما أن الريق ييسر إذابة هذه السكريات وبالتالي يمكن للطفل المولود أن يستفيد منها.

وبما أن معظم أو كل المواليد يحتاجون للسكر (الجلوكوز) بعد ولادتهم مباشرة فإن إعطاء الطفل التمر المذاب يقي الطفل من مضاعفات نقص السكر الخطيرة والتي سبقت الإشارة إليها.

إن استحباب تحنيك الطفل بالتمر هو علاج وقائي ذو أهمية بالغة، وهو إعجاز طبي لم تكن البشرية تعرفه وتعرف مخاطر نقص السكر، وإن المولود - وخاصة إذا كان خداجاً - يحتاج دون ريب بعد ولادته مباشرة إلى أن يعطى محلولاً سكرياً، وقد دأبت

مستشفيات الولادة والأطفال على إعطاء المولودين محلول الجلوكوز ليرضعه المولود بعد ولادته مباشرة، ثم بعد ذلك تبدأ أمه بإرضاعه.

إن هذه الأحاديث الشريفة المتعلقة بتحنيك الأطفال تفتح آفاقاً مهمة جداً في وقاية الأطفال وخاصة الخداج من أمراض خطيرة جداً بسبب إصابتهم بنقص سكر الجلوكوز في دمائهم، وأيضاً فإن إعطاء المولود مادة سكرية مهضومة جاهزة يوضح إعجازاً طبياً لم يكن معروفاً في زمنه ﷺ ولا في الأزمنة التي تلتها حتى اتضحت الحكمة من ذلك الإجراء في القرن العشرين.

نعم الإدام الخل:

جاء في بعض الأحاديث النبوية الإخبار عن بعض الأنواع من الأطعمة، وبيان ما لها من فائدة، ومن تلك المطعومات الخل، فقد مدحه النبي ﷺ وبيّن أن له مكانة سيادية، وأنه من خير ما يأتدم به الإنسان. ونحن اليوم نسمع عن كثير من البحوث العلمية التي تمتدح الخل وتعدد ما فيه من فوائد.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «نِعْمَ الْأُدْمُ - أَوْ الْإِدَامُ - الْخَلُّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الْأُدْمَ فَقَالُوا: «مَا عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ». فَدَعَا بِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ بِهِ وَيَقُولُ: «نِعْمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ، نِعْمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنِ طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ فَلَقَا مِنْ خُبْزٍ فَقَالَ: «مَا مِنْ أُدْمٍ؟». فَقَالُوا: «لَا، إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ». قَالَ «فَإِنَّ الْخَلَّ نِعْمَ الْأُدْمُ». قَالَ جَابِرٌ: «فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الْخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ». وَقَالَ طَلْحَةُ: «مَا زِلْتُ أُحِبُّ الْخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِنْ جَابِرٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(نِعْمَ) كلمة مدح، (الأُدْم) بِضَمِّ الهمزة والدال، وَيَجُوزُ إِسْكَانُهَا، جَمْعُ إِدَامٍ، والإدام هو ما يؤتدم به الخبز، أي يطيب أكله به ويتلذذ الأكل بسببه، مائعاً كان أو جامداً.

والخلُّ معروف، وهو حامض الخليك، وهو عبارة عن سائل قابل للمزج بالماء بأي نسبة. وقد عُرِفَ الخل منذ القدم حيث كان يصنع من التمر منذ ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، واستُخدم في روما القديمة بمفرده أو مع الملح أو عسل النحل كمادة مضافة للأغذية لغرض الحفظ.

وقد وُصف الخل في الطب الحديث بأنه مرطب ومنعش، ومُدرّ للبول والعرق ومنبه للمعدة ومحلل لألياف اللحم والخضراوات الخشنة، كما أنه يعطى كترياق للتسمم بالقلويات، ويطبق ظاهراً كعلاج للثعلبة والقرعة، ويغسل به القروح والجروح الجلدية، ويدلك به جلد الصدر والبطن بعد تمديده كمنشط عام، ويمسح به جبين المريض المصاب بالحمى تخفيفاً للصداع.

وقد ينشق عن طريق الأنف لإنعاش المريض المصاب بالغشي، ويغرغر به الفم والبلعوم لشد اللثة وقطع نزيفها وتطهير الفم. ويعد خل التفاح من أحسن أنواع الخل.

وثبت أن الخل فعلاً قاتل للجراثيم، كما أن الخل له فعالية مضادة للجراثيم ضد العديد من الجراثيم الممرضة للإنسان وحتى الجراثيم المقاومة، ومنها جراثيم المكورات العنقودية الذهبية، والسالمونيلا، وجراثيم المكورات المعوية الحساسة والمقاومة للفانكوميسين، والمكورات العنقودية الحساسة والمقاومة للمثسلين.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن تعاطي الخل مع الغذاء يعتبر أحد المعالجات لتفادي التسمم الغذائي، وأشاروا إلى أن الخل ثبط وبشكل كامل نمو ٣٤ عترة بكتيرية strain، وظهر أن الخل بتركيز ١ .٪ كان كافياً لتثبيط نمو جميع العترة البكتيرية.

ولوحظ أن الخل يخفض سكر الدم عند إعطائه عن طريق الفم.

وعلى الجانب الآخر فإن للخل فعلاً مضاداً للالتهابات، فحينما يطبق موضعياً المستحضر الحاوي على الصبر والخل، فإنه يثبط الالتهابات الحادة المحدثه بإداة الكاراجينان والهستامين والسيروتونين والنستاتين، وكذلك الالتهاب المحدث بغرس القطع القطنية، ولوحظ أن الفعالية المضادة للالتهابات لـ ١٠٠٠ ملجم/ كجم من هذا المستحضر تعادل فعالية ٣٠٠ ملجم/ كجم من الأسبرين.

ولللخل قدرة على زيادة عمليات الأيض ^(١) داخل الجسم، مما يساعد في استهلاك مزيد من الطاقة كما يحصل أثناء الرياضات الخفيفة، مما يساعد في تخفيف الوزن، خاصة لمن لا يستطيعون ممارسة الرياضة مثل كبار السن ومن يعانون من مشاكل مفصلية تُعجزهم عن ممارسة الرياضة.

والجرعة المناسبة لذلك هي ملعقتا طعام تؤخذ مباشرة في الفم، أو تخفف في كوب ماء صغير، أو تضاف إلى صحن سلطة؛ كي نتجنب حرقه المعدة لمن كانت معدتهم حساسة، ولا صحة للقول بأن الخل يؤدي إلى حدوث قرحة المعدة. وهناك فوائد أخرى للخل هي:

- للأوجاع العضلية والمفصلية: توضع كمادات من الخل على مناطق الألم.
- يخفف آلام لسعة النحل بوضع كمادات من الخل الممزوج بالملح.
- مطهر للفم: تخلط ثلاث ملاعق خل في كوب ماء ويمضمض بها ٣ مرات يومياً.
- يستعمل كمضاد للتسمم بالمواد القلوية (المنظفات).
- يخفف السخونة بوضع كمادات منه على الرأس.
- ينظف اللسان المكسو بالطبقات السوداء نتيجة تعاطي المضادات الحيوية وغيرها.
- يساعد في وقف الإسهال: يتم تناول ثلاثة فناجين صغيرة من الخل يومياً، ويعود ذلك لخصائص الخل القابضة نوعاً ما، وإلى تأثيره المطهر للأمعاء.

(١) الأيض: الاستقلاب: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

وجه الإعجاز:

يتضح من السرد السابق مدى أهمية الخل، وما له من فوائد متعددة وهامة، وبالتالي فهو مادة نافعة تستحق المدح والتأكيد على استخدامها في الإئتدام، وهو ما نبهنا إليه نبينا محمد ﷺ قبل فترة طويلة جداً؛ حرصاً منه ﷺ على الدلالة على كل ما فيه نفعنا ومصلحتنا. وهذا التطابق الواضح بين حديث نبينا محمد ﷺ وبين ما اكتشفه العلم الحديث هو أحد الأدلة المتجددة والبيانات المتتابعة على صدق هذه الرسالة، وأنها من عند الذي أحاط علماً بكل شيء ﷻ.

حديث المفصل:

عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ وَحَمَدَ اللَّهَ وَهَلَّلَ اللَّهَ وَسَبَّحَ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السَّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحَزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ». (رواه مسلم).

المفصل هو الالتقاء بين أي عظمتين أو عظمة وغضروف أو غضروفين في أي موضع بجسم الإنسان ما دام بينهما فاصل.

استدل بهذا الحديث على الإعجاز العلمي للسنة؛ لأن عدد المفاصل المذكورة في الحديث النبوي، هو نفس العدد الذي توصل إليه علم الطب الحديث. فبعد أربعة عشر قرناً من الزمان، أثبت العلم الحديث في التشريح للأعضاء، أن جسم الإنسان يحتوي على (٣٦٠) مفصلاً، موزعة على جميع مناطق الجسم في الإنسان البالغ، كما ورد في الحديث الشريف.

ويستدل بهذا الحديث على أمراً آخر وهو أن لفظة «خلق» على وزن «فعل» إنما يدل دلالة واضحة، على أن عملية تعظم الأنسجة الغضروفية بعظام الجنين، واستمرارها حتى البلوغ، وإلا لم يذكر عدد عظام الجسم الأولية (٣٦٠)، التي تنتهي إلى (٢٠٦) في الإنسان البالغ.

عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً كما كانت:

في قوله ﷺ الذي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»، إشارةً إلى عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، وهذا ما نشهد تباشيره في أيامنا هذه، وهو عودة أرض الجزيرة العربية إلى خصوبتها وخضرتها بعد مرور القرون العديدة عليها، وهي صحراء جرداء قاحلة.

هذا الحديث بأنه يحوي حقيقتين علميتين تتعلقان بأرض العرب:

إحدهما: أن أرض العرب كانت أرضاً خصبة، وأكدها الدراسات العلمية فقد نشرت مجلة (أهلا وسهلا) في عددها الصادر في شهر يناير ١٩٨٨م مقالة تحت عنوان: "الآثار في المملكة تكشف غموض عشرة آلاف سنة" جاء فيها: «وهناك من الدلائل ما يثبت أن صحارى الجزيرة العربية كانت في أوقات سابقة أكثر ملاءمةً للمعيشة مما أصبحت عليه بعد ذلك، وحتى وقت متأخر نسبياً أي إلى حوالي عشرة آلاف عام خلت كان الربع الخالي الذي يعد من أشد صحاري العالم جفافاً يزخر بالعديد من فصائل الحيوانات مثل الغزال وبقر الوحش والأسد وفرس الماء مما يكون أمثالها في أراضٍ إفريقية».

والحقيقة الثانية في الحديث الشريف أن أراضي العرب ستعود أراضي خصبة ذات مروج وأنهار كما كانت قبل عشرة آلاف عام، وقد عادت فعلاً وانتشرت فيها المزارع الكبيرة وأنشئت فيها السدود الكثيرة وامتدت منها أقنية الماء كالأنهار.

إن علماء الغرب درسوا تاريخ الأرض في الماضي فوجدوا أنها تمرّ بأحقاب متعددة من ضمن هذه الأحقاب المتعددة حقبة تسمى العصور الجليدية، وهو أن كمية من ماء البحر تتحول إلى ثلج وتتجمع في القطب المتجمد الشمالي ثم ترحف نحو الجنوب وعندما ترحف نحو الجنوب تُغطي ما تحتها وتُغيّر الطقس في الأرض، ومن ضمن تغيير الطقس تغيير يحدث في بلاد العرب فيكون الطقس بارداً وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم أمطاراً وأنهاراً.

التقى عالمٌ مسلمٌ بعالمٍ من أشهر علماء الجيولوجيا، ومتخصّصٌ في المنطقة الواقعة بين إفريقية، والجزيرة العربية، فسأله هذا العالمُ المسلمُ: «هل عندك دليلٌ على أنّ أرض العرب كانت بساتين وأنهاراً؟»، فقال: «هذا معروفٌ عندنا، وهذا شيءٌ يعرفه العلماءُ المتخصّصون»، قال له: «ما الدليلُ؟»، قال: «في الجزيرة العربية رواسبٌ نهريةٌ، تلاحظُ في أماكنٍ عدّة، وقد عُثِرَ على قريةٍ مدفونةٍ تحت الرمالِ في الربع الخالي، وفيها مناطقٌ متحجرةٌ، وقد عُثِرَ على مناطقٍ أخرى متحجرةٍ، فلمّا فُحصتْ إذا هي جذوعُ لأشجارٍ كبيرةٍ».

وهذا كله يؤكّد أنّ هذه البلاد كانت بساتين وأنهاراً، فمنطقة الربع الخالي، هذه الصحراءُ الجرداءُ القاحلةُ كانت مُفعمةً بالبساتين والأنهار، وهذا شيءٌ ثابتٌ عند علماء الجيولوجيا، الذين وجدوا ما يؤكّد ذلك.

ثم سأله سؤالاً آخر فقال: «هل عندك دليلٌ على أنّ بلاد العرب ستعودُ بساتين وأنهاراً؟»، فقال: «هذا شيءٌ أيضاً معروفٌ عندنا»، فقال: «وما الدليلُ؟»، قال: «إنّ كتلَ الجليدِ الضخمة تتجهُ نحو الجنوب، وهذا الذي سبّبَ قبل أعوامٍ شتاءً قارساً جداً في أوربة وأمريكا، وإنّ اتجاهَ هذه الكتلِ الجليديةِ نحو الجنوب سوف يغيّرُ مناخَ الأرض، ويتغيّرُ مناخُ الأرض سوف تتغيّرُ خطوطُ المطر، ولا بدّ أن يأتي يومٌ تعودُ بلادُ العرب فيه كما كانت، مُروجاً وأنهاراً».

فقال هذا العالمُ المسلم لهذا العالمِ الجيولوجي: ما قولك في رجلٍ قال قبل ألفٍ وأربعمئة عام: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا».

إنّ دقّة الحديث في كلمة (تعودُ)، يعني أنّها كانت، وبهذه الكلمة يعني أنّها ستكون، وتعود؛ لقد كانت مُروجاً وأنهاراً، وستعود مُروجاً وأنهاراً كما كانت، هذا حديثٌ صحيحٌ، فبُهِتَ هذا العالمُ الأجنبيُّ، لأنّ هذه الحقائق عرفتُها في هذه السنوات العشر الأخيرة، فما بالُ هذا النبيِّ ﷺ عَرَفَ هذه الحقيقة التي تحتاجُ إلى بحثٍ طويلٍ، وإلى درسٍ طويلٍ، وإلى رحلاتٍ شاقّةٍ في أعماقِ الصحراءِ، وإلى تنقيبٍ، ودراسةٍ لطبيعةِ المناخِ في الأرضِ؟

إِنَّ مِنْ بَلَاغَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا». تُسْتَشْفَى مِنْ كَلِمَةِ (تَعُودَ)، فَلَوْ قَالَ: (حَتَّى تَصْبَحَ) لَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاضِي لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَوْ قَالَ: كَانَتْ، فَالْمُسْتَقْبَلُ لَمْ يَدْخُلْ، أَمَّا كَلِمَةُ (تَعُودَ) وَحَدَّثَهَا فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلُ.

المسح على رأس اليتيم:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟». فَقَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «ارْحَمِ الْيَتِيمَ، وَأَمْسَحْ رَأْسَهُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلِينُ قَلْبَكَ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ» (رواه أبو نعيم في "الحلية" وصححه الألباني). وفي رواية: «إِنْ أَرَدْتَ تَلِينَ قَلْبِكَ، فَأَطْعِمِ الْمَسَاكِينَ، وَأَمْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وحسنه الألباني).

وأكدت الدراسات العلمية وتطبيقاتها على الحيوان والإنسان أن الطفل الذي يلمس مقارنة بالطفل الذي لا يلمس، يزداد وزنه بمعدل ٤٧٪، وجهازه العصبي ينضج أسرع، ويكون أكثر نشاطاً، ويتشافى من الأمراض والالتهابات أسرع. وأثبت علم النفس أن للمسّات أثر عميق في نفسية وسلوك الإنسان، فهي الأساس لاعتبار الناس والاعتراف بوجودهم وإعطائهم قيمتهم.

وجه الإعجاز في الإرشاد النبوي إلى المسح على رأس اليتيم، يكمن في أمرين:

الأول: في المسح على رأس اليتيم: فمنطقة الرأس هي منطقة الاتصال المحيطي بالآخرين، ففيها الجهاز العصبي، فعندما يضع الشخص (الماسح) يده على رأس اليتيم يحدث اتصال بينهما، فهو عند المسح يقوم بإزالة تلك الشحنات السلبية التي يحملها ذهن اليتيم، وتكرار تلك العملية يهدأ ذهن اليتيم ويطمئن ويرتاح جسده، والبديع في تلك العملية أنه يحدث لكلا الشخصين (الماسح واليتيم) أثراً إيجابية في ذات الوقت.

الثاني: في الأثر على الماسح: في تخلصه من الأمراض القلبية مثل القسوة، فمن ابتلي بداء من الأخلاق الذميمة يكون تداركه بما يضاده من الدواء، فالتكبر يداوى

بالتواضع، والبخل بالسماحة، وقسوة القلب بالتعطف والرقّة. فالعلاقة هي علاقة تبادل (أخذ وعطاء) (قسوة ولين)، فكلما قسى قلب المرء عليه أن يلينّه بالمسح على رأس اليتيم، وكلما أراد حاجة، عليه أن يسعى في تلبية حاجات الآخرين.

لماذا حرم الإسلام مصافحة الرجال للنساء؟

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ». (رواه الطبراني، وصححه الألباني، والمخيط: الإبرة).

وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْيَدُ زَنَاها اللَّمَسُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الأرئوط، وأورده الألباني في "السلسلة الصحيحة").

وقد ثبت علمياً أن سطح الجلد عند الإنسان يحتوي على ملايين الخلايا التي تنقل الأحاسيس إلى الدماغ، فإذا لامست يد الرجل يد المرأة بدأت الإشارات الناتجة عن الملامسة تسري باتجاه الدماغ حيث يقوم بتحليلها وربطها مع صاحب أو صاحبة اليد. وعندما تتكرر هذه العملية فإن الدماغ يخزن هذه المعلومات بشكل يحرك عاطفة الرجل أو المرأة مما يترك تأثيراً وانفعالات نفسية تبقى مختزنة لفترات طويلة.

إن الانفعالات النفسية المتعلقة بمصافحة النساء للرجال وبالعكس قد تتطور وتثير الغرائز الكامنة لدى الجنسين مما يدفع لمزيد من الانفعالات العاطفية والتي قد تكون سبباً في تطور العلاقة بين الجنسين مما يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة. وعلى أقل تقدير قد تسبب المصافحة المتكررة بين الرجل والمرأة والاختلاط المتكرر بينهما إلى تشويش الذهن وتأثر عملية اتخاذ القرارات عند الطرفين.

تبرج المرأة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا». (رواه مسلم).

أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن تبرز المرأة وعريها يعد وبألاً عليها حيث أشارت الإحصائيات الحالية إلى انتشار مرض السرطان الخبيث في الأجزاء العارية من أجساد النساء ولا سيما الفتيات اللاتي يلبسن الملابس القصيرة.

فلقد نُشر في "المجلة الطبية البريطانية": أن السرطان الخبيث "الميلانوما الخبيثة" والذي كان من أندر أنواع السرطان أصبح الآن في تزايد وأن عدد الإصابات في الفتيات في مقتبل العمر يتضاعف حالياً حيث يُصنّف به في أرجلهن وأن السبب الرئيس لشيوع هذا السرطان الخبيث هو انتشار الأزياء القصيرة التي تعرض جسد النساء لأشعة الشمس فترات طويلة على مر السنة ولا تفيد الجوارب الشفافة أو النايلون في الوقاية منه. وقد ناشدت المجلة أطباء الأوبئة أن يشاركوا في جمع المعلومات عن هذا المرض وكأنه يقترب من كونه وباء.

وهذا المرض ينتج عن تعرض الجسم لأشعة الشمس والأشعة فوق البنفسجية فترات طويلة وهو ما توفره الملابس القصيرة أو ملابس البحر على الشواطئ ويلاحظ أنه يصيب كافة الأجساد وبنسب متفاوتة ويظهر أولاً كبقعة صغيرة سوداء وقد تكون متناهية الصغر وغالباً في القدم أو الساق وأحياناً بالعين ثم يبدأ في الانتشار في كل مكان واتجاه مع أنه يزيد وينمو في مكان ظهوره الأول فيهاجم العقد الليمفاوية بأعلى الفخذ ويغزو الدم ويستقر في الكبد ويدمرها.

وقد يستقر في كافة الأعضاء ومنها العظام والأحشاء بما فيها الكليتان ولربما يعقب غزو الكليتين البول الأسود نتيجة لتتهتك الكلى بالسرطان الخبيث الغازي. وقد ينتقل للجنين في بطن أمة ولا يمهل هذا المرض صاحبه طويلاً كما لا يمثل العلاج بالجراحة فرصة للنجاة كباقي أنواع السرطان حيث لا يستجيب هذا النوع من السرطان للعلاج بجلسات الأشعة.

من هنا تظهر حكمة التشريع الإسلامي في ارتداء ثياب العفة والاحتشام فهو خير وقاية من عذاب الدنيا المتمثل في هذا المرض فضلاً عن عذاب الآخرة.

الإعجاز العلمي في ارتداء الحجاب؛

أثبتت دراسة علمية حديثة أن المرأة التي ترتدي الحجاب وتحرص عليه، تكون في حالة نفسية أفضل (فيما يتعلق بنظرتها الإيجابية لنفسها) من تلك التي لا ترتدي الحجاب، ولكن لماذا؟

هذا السر تكشفه جامعة "Westminster" من خلال دراسة علمية نُشرت في المجلة البريطانية لعلم النفس، وذلك من خلال إجراء استقصاء على مئات الفتيات المحجبات وغير المحجبات، وتبين للباحثين أن الفتاة المحجبة تتمتع بقدر كبير من احترام الذات والإحساس بالأمان!

كما أظهرت الدراسة أن انشغال المرأة ذات الحجاب أقل بكثير فيما يتعلق بوزن الجسم والمرأة المحجبة أقل قلقاً فيما يتعلق بالمظهر الخارجي وأقل إنفاقاً على الأزياء! وقد أجريت دراسات كثيرة حول انتشار سرطان الجلد في الدول الغربية، وبخاصة بسبب تعرض النساء لكميات كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية الخطيرة القادمة من الشمس، ولذلك ينصح الأطباء بعدم كشف أجزاء من جسد المرأة وذلك لوقايته من هذا المرض الخطير.

في دراسة جديدة (٢٠١٥) تبين أن التعرض لأشعة الشمس أكثر ضرراً للمرأة البالغة من الأطفال، أي ينبغي على المرأة أن تبدأ بالحذر بعد سن البلوغ!! فتسارع للالتزام بالحجاب وعدم إظهار أي جزء من جسدها، وهذا إعجاز نبوي واضح يتجلى في القرن الحادي والعشرين!

الرضاع؛

قال رسول الله ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» (رواه البخاري ومسلم). هذا الحديث الكريم يبين أن الطفل الذي يرضع من امرأة غير أمه يصبح محرماً عليها، كذلك على بناتها اللواتي رضعن معه. أي كأنه ابنها وبناتها كأنهن أخواته.

عندما قام العلماء بتحليل حليب الأم لاحظوا وجود مواد لا توجد في الحليب العادي، وتختلف من امرأة لأخرى. عندما يتجرع الطفل هذه المواد يتكون لديه أجسام

مناعية بعد عدة رضعات فقط. وهذا يعني أن الطفل الذي رضع من امرأة عدة رضعات فإنه يكتسب بعض الصفات الوراثية المناعية من هذه الأم لتصبح بمثابة أم له. هذه الصفات الوراثية التي اكتسبها الرضيع من المرأة تشبه تلك التي اكتسبها أولادها الحقيقيين منها ليصبحوا وكأنهم أخوة له. لذلك يحرم زواج الإخوة بالرضاعة لأنهم يملكون نفس الصفات الوراثية وهذا قد يؤدي إلى أمراض وراثية خطيرة لذلك نجد الرسول الكريم ﷺ قد حرم زواج الأخوة بالرضاعة قبل أربعة عشر قرناً، واليوم جاء العلم الحديث ليؤكد صدق كلام هذا النبي الكريم ﷺ وصدق تحريمه.

تؤكد الهندسة الوراثية أن الرضاعة تنقل بعض الجينات من المرضعة إلى الرضيع. وهذه القرابة التي جعلها النبي ﷺ في السنة كقرابة النسب، وجعلها القرآن أيضاً كذلك، هذه القرابة سببها العلمي انتقل الجينات من حليب الأم المرضع إلى الرضيع، هذه الجينات تخرق خلايا الرضيع، وتندمج معها في سلسلة الجينات التي عند الرضيع، وتصل إلى مورثاته.

لقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجريت حديثاً وجود أجسام في لبن الأم المرضعة الذي يترتب على تعاطيه تكوين أجسام مناعية في جسم الرضيع بعد جرعات تتراوح من ثلاث إلى خمس جرعات. وهذه هي الجرعات المطلوبة لتكوين الأجسام المناعية في جسم الإنسان، حتى في حيوانات التجارب المولودة حديثاً والتي لم يكتمل نمو الجهاز المناعي عندها.

فعندما ترضع اللبن تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة من اللبن الذي ترضعه، وبالتالي تكون مشابهة لأخيها أو لأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية. ولقد وُجد أن تكون هذه الجسيمات المناعية يمكن أن يؤدي إلى أعراض مرضية عند الإخوة في حالة الزواج.

إن القرابة من الرضاعة تثبت وتنتقل في النسل. والسبب الوراثية ونقل الجينات، أي أن قرابة الرضاعة سببها انتقال جينات (عوامل وراثية) من حليب الأم واختراقها لخلايا الرضيع واندماجها مع سلسلة الجينات عند الرضيع يساعد على هذه النظرية أن

حليب الأم يحتوي على أكثر من نوع الخلايا ومعلوم أن المصدر الطبيعي للجينات البشرية هو نواة الخلايا DNA كما يحتمل أن الجهاز الوراثي عند الرضيع يتقبل الجينات الغريبة لأنه غير ناضج، حاله حال عدة أجهزة في الجسم، لا يتم نضجها إلا بعد أشهر وسنوات من الولادة وإذا صح تفسير قرابة الرضاعة بهذه النظرية فإن لها تطبيقات في غاية الأهمية والخطورة.

التسمية عند الذبح:

توصل فريق من كبار الباحثين وأساتذة الجامعات إلى اكتشاف علمي يبين أن هناك فرقاً كبيراً من حيث العقامة الجرثومية بين اللحم المكبّر عليه واللحم غير المكبّر عليه، أي الذي قيل عند ذبحه: (بسم الله، الله أكبر).

وقام فريق طبي يتألف من ٣٠ أستاذاً باختصاصات مختلفة في مجال الطب المخبري والجراثيم والفيروسات والعلوم الغذائية وصحة اللحوم والباثولوجيا التشريحية وصحة الحيوان والأمراض الهضمية وجهاز الهضم بأبحاث مخبرية جرثومية وتشريحية على مدى ثلاث سنوات لدراسة الفرق بين الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ومقارنتها مع الذبائح التي تذبح بنفس الطريقة ولكن بدون ذكر اسم الله عليها.

وأكدت الأبحاث أهمية وضرورة ذكر اسم الله (بسم الله الله أكبر) على ذبائح الأنعام والطيور لحظة ذبحها، وكانت النتائج المدهشة والمفاجئة والتي وصفها أعضاء الطاقم الطبي بأنها: معجزات تفوق الوصف والخيال.

وقال مسئول الإعلام عن هذا البحث: إن التجارب المخبرية أثبتت أن نسيج اللحم المذبوح بدون تسمية وتكبير من خلال الاختبارات النسيجية والزراعات الجرثومية مليء بمستعمرات الجراثيم، ومحتقن بالدماء؛ بينما كان اللحم المسمّى والمكبّر عليه خالياً تماماً من الجراثيم ومعقماً ولا يحتوي نسيجه على الدماء.

وقال إن هذا الاكتشاف الكبير يمثل ثورة علمية حقيقية في مجال صحة الإنسان وسلامته المرتبطة بصحة ما يتناوله من لحوم الأنعام والتي ثبت بشكل قاطع أنها تزكو وتظهر من الجراثيم بالتسمية والتكبير على الذبائح عند ذبحها^(١).

بَيَّتْ لَا تَمَرُ فِيهِ جِيَاعُ أَهْلِهِ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ بَيَّتْ لَا تَمَرُ فِيهِ جِيَاعُ أَهْلِهِ، يَا عَائِشَةُ بَيَّتْ لَا تَمَرُ فِيهِ جِيَاعُ أَهْلِهِ، أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ». قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. (رواه مسلم).

في هذا الحديث إشارة بيّنة ودلالة ظاهرة على العلاقة المتلازمة بين تناول التمر، المعروف بطعمه وحلاوته، وحصول الشبع الذي هو نقيض الجوع وخلافه.

وقد أفاض علماء الحديث وشراحه في تفسير هذا الحديث وتبيان مراميه وتوضيح معانيه. وعلى الرغم مما قيل في معنى الحديث وما اختلف حوله في خصوصه أو عموميه، إلا أنه يحوي إشارة واضحة إلى تلك العلاقة المباشرة بين تناول التمر وحصول الشبع.

في الحديث إثبات للجوع لمن لا يتناول التمر، وفي وصفهم بالجوع «جِيَاعُ أَهْلِهِ» دلالة صريحة على تحقق الجوع عند غياب هذا الطعام. مع أن هذا الحديث يُعدُّ من الأحاديث المختلف عليها من حيث المقصود والمراد به؛ إذ إن الكثيرين لا يتناولون التمر ولا يشعرون بالجوع، بل هم متخمون من فرط الشبع، الأمر الذي يفتح الباب لمعنى آخر غير المعنى الظاهر.

فالمعنى الذي يتفق مع الحقيقة العلمية لفسيولوجيا الجوع والشبع هي نفى الجوع ممن يتناول التمر وليس إثبات الجوع لمن لا يتناوله. فالأخذ بظاهر الحديث،

(١) وهل هذا الاكتشاف الكبير - إن صحَّ - ينطبق أيضًا على الحيوانات والطيور المريضة؟! تَبَتُّوا يَرْحَمُكُمُ

وهو تحقيق الجوع لمن لا يتناول التمر، لا يتساق مع الحقيقة العلمية والملاحظة الواقعية من أن الكثيرين لا يشعرون بالجوع على الرغم من عدم تناولهم للتمر، بل إن منطوق الحديث يحمل المعنى المخالف وهو نفي للجوع عن أهل البيت الذين يتناولون التمر.

ولعل ظاهر الحديث يتساق مع واقع المسلمين والناس آنذاك في عصر النبوة حيث كان التمر القوت الرئيس والغذاء الأساس لدى الناس وكان اعتمادهم عليه كغذاء أساسي كفيل بذرة خطر الجوع عنهم، وخاصة في جزيرة العرب حيث محدودية أنواع الطعام والشراب مقارنةً مع غيرها من البلاد.

وبالنظر إلى فيسيولوجيا الجوع والشبع، وكذا النظر في مكونات التمر ومحتوياته، يمكن أن نقف على أسرار الهدي النبوي في هذا الحديث الشريف وما انبني عليه من حِكَم وآيات. ففسيولوجيا الجوع والشبع تستند إلى قدرة الجسم على تحسس الحاجة إلى تناول الطعام والشراب، وكذا تحسس الاكتفاء منه.

إن الربط المباشر الوارد في الحديث الشريف بين تناول التمر وحصول الشبع، وهو نقيض الجوع وخلافه، يمثل دلالة علمية واضحة وإشارة بيّنة على سبق نبوي معجز في تقرير حقيقة علمية مفادها: أن التمر وما يحويه من مكونات ممثلة بالسكر يمثل غذاءً موائماً لدرء خطر الجوع وما ينبني عليه من نقص لسكر الدم وما يتبعه من تغيرات سلبية ضارة على صحة الجسم.

من أسرار تقديم اليمين:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التَّيْمَنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ فِي طُهُورِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَتَنَعُّلِهِ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (الترجل): تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه.

وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهُ، وَكُلْ يَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

وَعَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهَا حُلِبَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةٌ دَاجِنٌ وَهِيَ فِي دَارِ
 أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَشِيبَ لَبْنُهَا بِمَاءٍ مِنَ الْبُئْرِ الَّتِي فِي دَارِ أَنَسٍ، فَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 الْقَدَحَ فَشَرِبَ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا نَزَعَ الْقَدَحَ مِنْ فِيهِ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعَنْ يَمِينِهِ أَعْرَابِيٌّ
 فَقَالَ عُمَرُ - وَخَافَ أَنْ يُعْطِيَهُ الْأَعْرَابِيُّ - : «أَعْطِ أَبَا بَكْرٍ، يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَكَ». فَأَعْطَاهُ
 الْأَعْرَابِيَّ الَّذِي عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «الْأَيْمَنَ فَلَا يُؤْمَنَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(شِيبَ لَبْنُهَا بِمَاءٍ): أَي حُلِطَ لَبْنُهَا بِمَاءٍ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ
 بِيَمِينِهِ وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ». (رواه مسلم).

وَعَنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ:
 «كُلْ بِيَمِينِكَ». قَالَ: «لَا أَسْتَطِيعُ»، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ». مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ. قَالَ: فَمَا
 رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. (رواه مسلم).

(لَا اسْتَطَعْتَ): أَي دَعَا ﷺ عَلَيْهِ بِأَنْ اللَّهُ تَعَالَى يَصِيبَهُ بِأَمْرٍ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ رَفْعَ
 يَدِهِ الْيُمْنَى إِلَى فَمِهِ، فَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ ذَلِكَ أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فَلَمْ يَرْفَعْهَا إِلَى فَمِهِ
 بَعْدَ ذَلِكَ صَارَتْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ قَائِمَةٌ كَالْعَصَا، لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا لِأَنَّهُ اسْتَكْبَرَ عَلَى دِينِ
 اللَّهِ ﻋَﻠَﻴْهِ.

هذه الأحاديث توافق ما ثبت علمياً أن كل حركة في جسم الإنسان، تدور
 حسب نظام دقيق بحيث تبدأ الحركات من الجهة اليمنى، إلى الجهة اليسرى، ثم تتلاشى
 وتنتهي، وضرربوا لذلك أمثلة وهي:

١ - حركة الدم: تبدأ أول نقطة فيها، داخل جهاز الدورة الدموية، من القلب
 عندما تتقلص العضلات القلبية لتضخ الدم، فيبدأ سير الدم النقي من تجاويف البطن
 إلى الشريان الأهر، الذي يتجه بشكل مقوس من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى،
 بحيث يجعل جريان الدم مبتدئاً من اليمين ومنتهاً إلى اليسار، بعد أن تتشعب الأوعية

الدموية وتتفرع من الدقيق إلى الأدق، حتى تتلاشى حركة الدم، وتصبح غير منظورة بالعين المجردة.

٢- حركة الأمعاء: تبدأ من باب المعدة الإثني عشر، بحيث يكون اتجاه الحركة للمواد الغذائية، من اليمين إلى اليسار.

٣- حركة القولون في الأمعاء الغليظة: تبدأ من نقطة الجهة اليمنى باتجاه الناحية اليسرى، إذ تنقلص لدفع المواد المتبقية، من عملية الامتصاص، إلى الجهة اليسرى المقابلة، بعد أن تجمعت في الخزان الأعور الكبير، فتتحرك المواد، من الجهة اليمنى إلى اليسرى، وإلى القولون المستعرض المتوازي، وهكذا.

٤- حركات التنبيهات العصبية - العجبية الصنع - في المراكز العصبية، والأسلاك الحسية والحركية المتصلة بها: تبدأ دورتها من الجهة اليمنى، وتنتهي في الطرف الأيسر، عند أداء وظيفتها الطبيعية الفسيولوجية.

إن النبي ﷺ قد أرسله الله بهذا الدين العظيم، دين الفطرة، ومن تعاليمه: التيامن، وحيث إنه قد ثبت علمياً: أن الجسم البشري مفطور على التيامن، في حركة أجهزته، فإن تعاليم الدين، توافق الفطرة الخلقية، وهذا من معجزات النبي ﷺ، حيث إن ما جاء به من تعاليم، موافق لما ركبه الله في مخلوقاته، والله أعلم.

إن الحديث الشريف، قد أظهر هذه الظاهرة العلمية في الكيان البشري، التي لم تكتشف إلا بعد مرور قرون عديدة، منذ أن قالها النبي ﷺ.

التيامن والتياسر بين استجابات الدين وسلوك الجسيمات الذرية؛

أثبت علم الفيزياء الحديث أن جهة اليمين واليسار ليسا سواسية فالجسيمات الذرية التي تتكون منها كل ذرة في الكون تفرق بين اليمين واليسار.

لقد كان من المسلّم به خلال عصور طويلة أن المكان الفيزيائي يتمتع بما يسمى التناظر المكاني أو مبدأ انحفاظ التماثل حيث يعني ذلك أن الاتجاه إلى اليمين أو

الاتجاه إلى اليسار سيّان وأن الاختيار بين اليمين واليسار عندما تكون الظروف متطابقة هي مجرد مسألة إنسانية بحثة دون أن تكون موجودة في الطبيعة.

لقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أن التمييز بين الجهات اليمنى واليسرى هو واحد من الخصائص الطبيعية التي تحكم عالم الجسيمات الذرية والتي بالتالي تشكل منها كل ذرة في كون الله الفسيح.

لقد أحدث الاكتشاف صدمة كبيرة في أوساط الفيزياء بعدما تم التأكد من أن الجسيمات الذرية تفضل اتجاهات معينة دون غيرها وتميز بين اليمين واليسار ونال مكتشفو هذا المبدأ جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٥٧م وهما العالمان الصينيان (Yang) و (Lee) من جامعة كولومبيا في نيويورك.

إن النظرية العلمية التي قادت إلى هذا الاكتشاف الكبير اقترحت في البداية لتفسير بعض الظواهر الغريبة الناتجة عن تحليل الجسيمات الذرية تحت تأثير ما يسمى بـ (القوة النووية الضعيفة) حيث كان يصعب تفسير بعض الانبعاثات الذرية تحت تأثير هذه القوة من تجربة لأخرى مما حير العلماء كثيرا وبرزت هذه النظرية كأحد الحلول لهذا الإشكال ولكنه كان حلا غريباً لم يقتنع به أحد من الفيزيائيين حتى الكبار منهم وعلى رأسهم (Pauli) صاحب مبدأ الاستبعاد للإلكترونات الذي قال لهما: «حسناً، أنتمما مازلتما شاكّين وبإمكانكما أن تتحملا عندما يسخر منكم الجميع».

قام العالمان بتطوير النظرية رياضياً ثم جرى التحقق من صحتها عمليا في مختبرات جامعة كولومبيا على يد عالمة الصينية أيضا (Wu) حيث تم استخدام مادة (الكوبالت - ٦٠) التي تطلق جسيمات (بيتا) وتم تبريد المادة إلى درجة حرارة منخفضة جدا هي (٠,٠١) من الكالفن حتى يمكن رصد اتجاه مرور جسيمات بيتا أثناء انطلاقها.

بعدها جرى التحقق من اتجاه مرور هذه الجسيمات ثبت أنها فعلا تفضل الاتجاه إلى إحدى الجهتين دون الأخرى برغم تطابق الظروف وكأنها هذه الجسيمات تقرر الجهة

التي تحب أن تسلكها ذاتياً وباختيار محض ليس له ما يفسره سوى أن الجسيمات فضلت جهة دون أخرى.

وقد ثبت بعد ذلك في تجارب أخرى أن الجسيمات المضادة تفضل جهة معاكسة لما تفضله الجسيمات الاعتيادية. فمثلاً في حال (الإلكترون) فإنه يعتبر يميني في سلوكه بينما (البوزيترون) وهو الجسيم المضاد للإلكترون في الشحنة والمطابق له في كل الخصائص الأخرى، هذا الجسيم يعتبر يساري في سلوكه.

وأجريت التجربة كذلك عن ظاهرة تفكك (الميون) وهو جسيم ذري يتفكك إلى (إلكترون) و(نيوترينو) مما جعل النظرية تصبح محققة تماماً ويحصل صانعها على جائزة نوبل في الفيزياء ويصاب الجميع بالذهول فقد ثبت أن الطبيعة تميز بين اليمين واليسار وليساً متطابقين أو أن المسألة عشوائية كما كان يُظنّ من قبل.

إن الإسلام بما فيه من إشارات وتعاليم سواء بالقرآن الكريم أو السنة المطهرة قد سبق لذلك التمييز بين الاتجاهات وبين أن الشمال ليس كاليمين في مواضع عدة حيث إن كل فئة من الناس تستوجب تصنيفها لاتجاه محدد حسب ما تكنه بداخلها من إيمان أو كفر والعياذ بالله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ، بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ۖ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابَهُ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٌ (٢٦) يَلَيِّنَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةُ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ﴾ (الحاقة: ١٩ - ٢٩).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً (٣٥) جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ﴾ (الواقعة: ٣٦ - ٣٨). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۖ﴾ (الواقعة: ٤١ - ٤٣).

كما أن سنة المصطفى ﷺ وسيرته شددت على استحباب التيامن للمسلمين وتفضيله حيث إنه مما صح عن الرسول ﷺ أنه كان يحب التيامن ويقدمه في كل أموره وشؤونه الحياتية وشعائره من وضوء وغيره.

فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيْمَنُ فِي تَنْعُلِهِ وَتَرْجُلِهِ وَطُهُورِهِ وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ. (رواه البخاري). (تَنْعُلِهِ): أَيُّ لُبْسٍ نَعْلِهِ. (وَتَرْجُلِهِ) أَيُّ تَرْجِيلٍ شَعْرِهِ وَهُوَ تَسْرِيجُهُ وَدَهْنُهُ.

وَيَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وهو يحب التيامن إلى المؤمنين الذين يعمر الإيمان قلوبهم - أن الشيطان الذي يسكن الكفر والجحود في قلبه يستحب التياسر والميل ناحية استخدام الجهة اليسرى في شؤونه، فَقَالَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فُلْيَا كُلَّ بِيَمِينِهِ وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

فكأنما كل مخلوق يميل إلى تفضيل جهة معينة تبعاً لما يضره في داخله.

وسبحان الله فقد كانت نظرية (Yang) و (Lee) تحمل دلالات كبيرة جداً في هذا السياق، فقد بينت النظرية أن كل جسيم ذري يفضل أن يتجه إلى إحدى الجهتين إما يميناً أو يساراً تبعاً لنوع الشحنة التي يحملها.

وجه الإعجاز:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أشارت إلى التفريق بين جهة اليمين وجهة اليسار حتى عندما تبدو الجهتان متطابقتان في كل شيء وفضلت جهة اليمين على اليسار، وبعد مرور ما يقارب الأربعة عشر قرناً من الزمان يكتشف العالم باستخدام أفضل العقول وأجهزة التجارب عالية التطور أن جهة اليمين وجهة اليسار بالفعل ليستا متطابقتين في العالم الطبيعي بل هما مختلفتان بحيث إن الجسيمات داخل الذرة تفرق بين الجهتين وكل جسيم لديه جهة يجذبها على الأخرى بحسب الشحنة التي يحملها.

إن ذلك كله يدل على أن هذا الدين الحنيف وجميع تعاليمه المطهرة هي من عند خالق الكون الواحد الأحد الذي خلق كل شيء كبيراً كان أو صغيراً وأعطى كل شيء صفاته وسلوكه التي قدرها له منذ بداية الخلق، فسبحانه وتعالى عما يشركون.

الأقمار الصناعية تشهد نبوة محمد ﷺ :

عندما دخل اليمينيون في دين الله أفواجًا أرسل لهم النبي ﷺ معلمين يعلمونهم الدين كان منهم علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، ووبر بن يُحْنَس الخزاعي وغيرهم رحمهم الله. وقد أمر رسول الله ﷺ وبر بن يحنس الخزاعي الذي وجهه إلى صنعاء أن يبني لهم مسجدًا، عُرف بمسجد صنعاء، وحدد الرسول ﷺ أوصاف المسجد، فحدد موضعه في صنعاء، وحدد علامة واضحة هي جبل ضين الذي يبعد عن صنعاء حوالي (٣٠) كم وبتحديد جبل ضين حدد لهم زاوية الميل بين موضع المسجد والجبل كما حدده - أي الجبل - جهة القبلة المسجد.

ولما كان الرسول ﷺ - المعصوم من الخطأ - هو الذي حدد الصفات التي يكون عليها المسجد من حيث دقة الموقع، وزاوية الميل نحو الكعبة، وجهة المسجد بالنسبة للكعبة، فلاشك أن هذا التوجيه سيكون دقيقًا، لذلك كان أهل اليمن ولا يزالون يعتبرونه أفضل مساجد اليمن، لأنه بنى طبقًا لتوجيهات الرسول ﷺ ووصفه. وإذا كان من أهم صفات المسجد ضبط قبلته نحو الكعبة، فقد حدد الرسول ﷺ الأوصاف والمعالم التي جعلت المصلى في مسجد صنعاء وكأنه يراها وهذا من تمام بناء المسجد. وبهذا الوصف الدقيق من الرسول ﷺ يكون قد حدد خطأ مستقيمًا من موضع مسجد صنعاء إلى الكعبة في المسجد الحرام بمكة المكرمة.

الشروط المطلوبة لرسم خط بين مدينتين متباعدتين:

إن المسافة بين صنعاء ومكة هي (٨١٥ كم) تقريبًا فإذا أردنا رسم خط مستقيم بين مكة وصنعاء فلا بد مما يلي:

- وجود خريطة تعتمد على الصور الحقيقية لسطح الأرض المأخوذة بالطائرات أو الأقمار الصناعية وذلك لنتمكن من تحديد موقع المسجد، وموقع مكة تحديدًا دقيقًا.
- لابد من معرفة خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية لمعرفة زاوية الميل بين الموقعين بالنسبة للشمال المغناطيسي.

- لابد من معرفة مقدار ارتفاع مكة وصنعاء عن سطح البحر لتتمكن من معرفة درجة الانحناء الناتج عن السطح الكروي لسطح الأرض. فالخريطة المسطحة للأرض لا تمثل الحقيقة لأن الأرض كروية وليس مسطحة، ووضع الخرائط المسطحة - إذا كانت دقيقة - تُفقدنا المسافة أو الجهة بين أي موقعين متباعدين على سطح الأرض.

متى تمكن الإنسان من استيفاء هذه الشروط:

- لم يتمكن الإنسان من وضع الخرائط الدقيقة للأرض إلا في القرن العشرين الميلادي بعد أن صنع الطائرات والصواريخ بعيدة المدى التي تحمل الأقمار الصناعية وآلات التصوير الدقيقة، وغيرها من الأجهزة.
- ولم يتمكن الإنسان من وضع خطوط الطول والعرض الدقيقة للأرض إلا في القرن العشرين بعد أن تمكن من وضع الخرائط الدقيقة لسطح الأرض بأكمله، مشتملاً على البحار والجزر والقارات.
- ولم يتمكن من معرفة المرتفعات والمنخفضات على سطح الأرض إلا في القرن العشرين بعد أن امتلك الأجهزة الدقيقة التي تحدد له ارتفاع كل جبل وانخفاض كل وادي على سطح الأرض.

هل توفرت هذه الشروط في زمن الرسول ﷺ؟

الجواب لا. ويعرف ذلك كل عاقل فضلاً عن الباحثين والدارسين؛ فتأمل إلى أول خريطة للأرض وضعها الإدريسي في عام (١١٥٤م) بعد الهجرة النبوية بحوالي خمس قرون ونصف، لقد وضع اليمن جنوب شرق الجزيرة ووضع عُمان شمال شرق الجزيرة. وتأمل في الخريطة التي وضعها "جيوفاني لردو" بعده بثلاثة قرون وتأمل في خريطة الجزيرة العربية المأخوذة بالأقمار الصناعية لترى الفرق بين موقع مكة واليمن، فضلاً عن الفرق بين موقع مكة وصنعاء. علماً بأن الإدريسي و"جيوفاني لردو" من رواد البشرية في رسم خريطة الأرض!! بعد زمن النبي ﷺ بقرون.

إن الإنسان لم يتمكن من تحديد الإحداثيات لكل موقع في الأرض بدقة -
ليتمكن من رسم خط مستقيم بين مدينتين متباعدتين - إلا بعد صناعة الطائرات
وآلات التصوير الدقيقة، ووضع خطوط الطول والعرض، واكتشاف الأجهزة التي
تحدد ارتفاع المدن عن سطح البحر، وصناعة الصواريخ بعيدة المدى التي تتمكن من
حمل الأقمار الصناعية إلى خارج الغلاف الجوي. وكل هذه الشروط لم تتوفر للإنسان
الإنسان إلا بعد أربعة عشر قرناً من بعثة النبي ﷺ.

ملاحظة:

- أول قمر صناعي اطلق في تاريخ البشرية هو سبوتنك (Sputnik)
أطلقته روسيا في عام ١٩٥٧ م.
- وفي العام ١٩٥٨ م أطلقت الولايات المتحدة قمرها الصناعي الأول
الذي سمي بالمكتشف.

الرسول ﷺ يحدد إحداثيات، وقبة مسجد صنعاء:

وقبل أربعة عشر قرناً من الزمان حدد الرسول ﷺ إحداثيات مسجد صنعاء
فحدد الرسول ﷺ موقع المسجد ومكانه، وحدد الزاوية الصحيحة بالنسبة لمكة، كما
حدد القبلة الدقيقة للكعبة.

روى الطبراني في (المعجم الأوسط) عَنْ وَبَرِ بْنِ يُحْنَسَ الْخَزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ
لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا بَنَيْتَ مَسْجِدَ صَنْعَاءَ، فَاجْعَلْهُ عَنْ يَمِينِ جَبَلٍ، يُقَالُ لَهُ:
ضَيْنٌ» (قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢ / ١٢: «رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده
حسن»).

فقول الرسول ﷺ: «فَاجْعَلْهُ عَنْ يَمِينِ جَبَلٍ، يُقَالُ لَهُ: ضَيْنٌ» يحدد زاوية
ميل المسجد الدقيقة نحو الكعبة.

مسجد صنعاء وموقعه اليوم:

أولاً: لقد حافظ أهل اليمن قديماً وحديثاً على موقع المسجد الذي أمر به رسول
الله ﷺ أن يبني فيه وذلك بالحفاظ على معالم حدوده التي حدّها رسول الله ﷺ لبنائه

مثل الصخرة الملممة أحد حدّي المسجد وموقعه اليوم بين ساريتين من سواري المسجد تسمى أحدهما (المسمورة) والأخرى (المنقورة).

ثانياً: كل توسعة وقعت للمسجد لم يتأثر بها مسجدها القديم الذي حدّه رسول الله ﷺ بل كانت عن يمينه وشماله وأمامه ويفصل بينهما ساحة واسعة في الوسط وقد ذكر ذلك الرازي في كتابه "تاريخ صنعاء".

برنامج جوجل إرث (Google Earth):

إن برنامج جوجل إرث - والموجود على شبكة الإنترنت - يوفر لجميع مشتركي الشبكة الوصول إلى معظم المواقع على الأرض - دول أو مدن أو قرى - مع تعيين هذه المواقع وتقريبها وتوضيحها وذلك عبر صور ثلاثية الأبعاد التقطت من الأقمار الصناعية والطائرات وهي صور حقيقية لها وذلك بحسب ما ورد على موقع البرنامج على شبكة الإنترنت.

تطبيق حديث رسول الله ﷺ على برنامج جوجل إرث (Google Earth).

أولاً: قد ذكر رسول الله ﷺ وحدّد في الحديث موضعين (موقع مسجد صنعاء وجبل ضين) وهذين الموضعين هما من ضمن المواضع التي تم تغطيتها بالأقمار الصناعية في برنامج جوجل إرث.

ثانياً: لو أنّا أخرجنا خطاً مستقيماً من وسط المسجد - الموقع الذي حدده رسول الله ﷺ لبنائه - ثم انطلقنا به على استقامته حتى نمرّ به من قمّة جبل ضين ثم أرسلناه أيضاً على استقامته خطاً واحداً منطلقاً من قبلة مسجد صنعاء الذي وصفه الرسول ﷺ والمحدّد الآن بالمسمورة والمنقورة ماراً هذا الخط بقمة جبل ضين فإنّا سنجد أنه يصل إلى مكة أولاً ثم يستقرّ في جدار الكعبة متوسّطاً ما بين الركن والحجر الأسود.

فتكون النتيجة خط مستقيم من قبلة المسجد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه ماراً بقمة جبل ضين ليصل إلى وسط الكعبة المشرفة.

وجه الإعجاز في حديث النبي ﷺ:

لا يستطيع إنسان أن يرسم خطأ مستقيماً على السطح الكروي للأرض بين مدينتين متباعدتين إلا إذا توفرت له الخرائط الدقيقة المأخوذة بالطائرات والأقمار الصناعية وآلات التصوير الدقيقة، وعلم بخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية وعرف ارتفاع المدن عن سطح البحر، ولم يتيسر كل هذا للإنسان إلا بعد أربعة عشر قرناً من زمن الرسول ﷺ لكن الرسول ﷺ وقبل ألف وأربع مائة عام حدد خطأ مستقيماً بين مسجد صنعاء وجبل ضين والكعبة عندما حدد أوصاف المسجد الذي أمر ببنائه في صنعاء.

فلو أننا أخرجنا خطأ مستقيماً من وسط المسجد - الموقع الذي حدده ﷺ لبنائه - ثم انطلقنا به على استقامته حتى نمرّ به من قمة جبل ضين ثم أرسلناه أيضاً على استقامته خطأ واحداً منطلقاً من قبلة مسجد صنعاء الذي وصفه الرسول ﷺ والمحدد الآن بالمسمورة والمنقورة ماراً هذا الخط بقمة جبل ضين فإننا سنجد أنه يصل إلى مكة أولاً ثم يستقرّ في جدار الكعبة متوسطاً ما بين الركن والحجر الأسود فتكون النتيجة خط مستقيم من قبلة المسجد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه ماراً بقمة جبل ضين ليصل إلى وسط الكعبة المشرفة.

فحدد الموضع والمكان بقوله: «فمُر ببناء المسجد لهم في بستان باذان من الصخرة التي في أصل غمدان» - فيما كتبه ﷺ لوبر بن يحنس بأن يبني حائط باذان مسجداً ويجعله من الصخرة إلى موضع جدره^(١)، وحدد ﷺ زاوية ميل مسجد صنعاء من جبل ضين والكعبة بقوله ﷺ: «فَاجْعَلْهُ عَنْ يَمِينِ جَبَلٍ، يُقَالُ لَهُ: ضَيْنٌ»، وحدد الجهة الدقيقة للكعبة باستعمال معلم واضح لأهل صنعاء القديمة هو جبل ضين.

(١) نسب الباحث هذا الحديث للحافظ الرازي في كتابه "تاريخ صنعاء" دون أن يتأكد من صحته، بل إنه حتى لم يذكر رقم الصفحة في ذلك المرجع. والواضح من إشارة الباحث أن الرازي ذكره بدون إسناد.

وجاءت الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية تصور الأرض بمدنها وجبالها وبحارها فقدمت لنا صورة حقيقة للأماكن الثلاثة التي بينها رسول الله ﷺ مسجد صنعاء، جبل ضين، الكعبة - فإذا بها تقع على خط مستقيم رغم بعد المسافة وكروية الأرض وعدم توفر الشروط والوسائل العلمية زمن النبي ﷺ، وكل ذلك تم بعبارة سهلة وعلامة واضحة جلية وعمل متقن دقيق، وهو ﷺ لم يزر اليمن ولا رأى جبل ضين، ولا شاهد بستان باذان ولا الصخرة الململة (١) ولا يعلم الناس في زمنه المسافة التي تفصل بين مكة وصنعاء.

كل ما سبق يشهد أن ما قاله النبي ﷺ ليس في مقدور بشر في عصره وحتى بعد عصره بقرون طويلة وإنما هو الوحي والعلم الإلهي.

الإعجاز في حديث عريض القفا:

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ أَهْمَا الْخَيْطَانِ». قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ». ثُمَّ قَالَ: «لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ» (رواه البخاري).

عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ، قَالَ: أَخَذَ عَدِيُّ عِقَالًا أَبْيَضَ، وَعِقَالًا أَسْوَدَ حَتَّى كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبِينَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: جَعَلْتُ تَحْتَ وَسَادِي عِقَالَيْنِ، قَالَ: «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضُ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧). قَالَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجْعَلُ تَحْتَ وَسَادَتِي عِقَالَيْنِ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ أَعْرِفُ اللَّيْلَ مِنْ

(١) انظر الهامش السابق.

النَّهَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ». (رواهُ مُسْلِمٌ).

وفي رواية: فَضَحِكَ فَقَالَ: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

معنى الحديث:

(عِقَالٍ): أَي حَبَلٍ. فِي قَوْلِهِ "إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ" قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا يُرِيدُ أَنَّ نَوْمَكَ لكَثِيرٌ، وَكَتَنَى بِالْوِسَادَةِ عَنِ النَّوْمِ لِأَنَّ النَّائِمَ يَتَوَسَّدُ، أَوْ أَرَادَ أَنَّ لَيْلَكَ لَطَوِيلٌ إِذَا كُنْتَ لَا تُمْسِكُ عَنِ الْأَكْلِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْعِقَالُ، وَالْقَوْلُ الْآخَرُ أَنَّهُ كَتَنَى بِالْوِسَادَةِ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَضَعُهُ مِنْ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ عَلَى الْوِسَادَةِ إِذَا نَامَ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فَلَانٌ عَرِيضٌ الْقَفَا إِذَا كَانَ فِيهِ غَبَاوَةٌ وَغَفْلَةٌ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى "إِنَّكَ عَرِيضُ الْقَفَا" وَجَزَمَ الزَّخَّشَرِيُّ بِالتَّوِيلِ الثَّانِي فَقَالَ: إِنَّمَا عَرَّضَ النَّبِيُّ ﷺ قَفَا عَدِيٍّ لِأَنَّهُ غَفَلَ عَنِ الْبَيَانِ، وَعَرَّضَ الْقَفَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى قِلَّةِ الْفَطَنِ، وَأَنْشَدَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا.

وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ الْقُرْطُبِيُّ فَقَالَ: «حَمَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى الذَّمِّ لَهُ عَلَى ذَلِكَ الْفَهْمِ وَكَأَنَّهُمْ فَهِمُوا أَنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى الْجَهْلِ وَالْجَفَاءِ وَعَدَمِ الْفِقْهِ، وَعَضَّدُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِ "إِنَّكَ عَرِيضُ الْقَفَا" وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوهُ لِأَنَّ مَنْ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى حَقِيقَتِهِ اللَّسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ إِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ دَلِيلُ التَّجَوُّزِ لَمْ يَسْتَحِقَّ ذَمًّا وَلَا يُنْسَبُ إِلَى جَهْلٍ، وَإِنَّمَا عَنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ وَسَادَكَ إِنْ كَانَ يُعْطَى الْخَيْطَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرَادَ اللَّهُ فَهُوَ إِذَا عَرِيضٌ وَاسِعٌ، وَلِهَذَا قَالَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»، فَكَأَنَّهُ قَالَ: فَكَيْفَ يَدْخُلَانِ تَحْتَ وَسَادَتِكَ؟ وَقَوْلُهُ "إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا" أَيُّ إِنَّ الْوِسَادَ الَّذِي يُعْطَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَرْقُدُ عَلَيْهِ إِلَّا قَفَا عَرِيضٌ لِلْمُنَاسَبَةِ.

قال الحافظ ابن حجر: وَتَرَجَّمَ عَلَيْهِ ابْنُ حَبَّانَ " ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تَتَفَاوَتْ لُغَاتُهَا " وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ عَدِيًّا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ فِي لُغَتِهِ أَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَبَيَاضَ النَّهَارِ يُعَبَّرُ عَنْهُمَا بِالْحَيْطِ الْأَسْوَدِ وَالْحَيْطِ الْأَبْيَضِ. وَسَاقَ هَذَا الْحَدِيثَ (١).

الحقائق العلمية:

- مركز الإبصار يقع في القفا من القشرة الدماغية.
- أعضاء الإحساس ممثلة بمساحة على القشرة الدماغية، وتمثيل العين هنا فقط للإحساس (كاللمس) أما تمثيل العين فيما يخص النظر فهو في القفا.
- هذه المساحة من القشرة الدماغية تتناسب مع المهارة المطلوبة.
- الرؤية تُقدَّرُ بالزاوية التي تقابل الجسم المرئي على الشبكية.
- خلايا الشبكية نوعان (قضبانية ومخروطية) قضبانية الشكل هي وحدها المسؤولة عن الرؤية الليلية ولا تستطيع أن ترى سوى الأبيض والأسود. أما المخروطية فهي المسؤولة عن رؤية الألوان ولكنها لا ترى في الليل على الإطلاق.
- تبدأ الرؤية عندما تسقط أشعة الضوء المنكسرة من الجسم المرئي فتُكوِّنُ صورة على شبكية العين فتقوم خلايا الشبكية (قضبانية ومخروطية) بتحويل هذه الصورة إلى موجات أو إشارات عصبية التي تنقل عن طريق عصب العين إلى القشرة الدماغية (مركز النظر) الموجودة في القفا حيث يقوم هذا المركز بتحويل هذه الإشارات مرة أخرى إلى صورة تعكس تماما الجسم المرئي بكل تفاصيله الدقيقة.

(١) انظر: "فتح الباري" لابن حجر (٤/ ١٣٣).

في كل شبكية عين ١٠٥ مليون خلية منها ٥ مليون فقط مخروطية الشكل. أما عدد ألياف عصب العين فهو واحد مليون فقط التي تنقل إلى مليون خلية في القشرة الدماغية (مركز النظر) مع العلم أن القشرة الدماغية بكاملها تتكون من ٢٠ بليون خلية تنتشر على حوالي ٢ متر مربع .

مركز النظر يقوم بوظائف كثيرة إلى جانب حدة النظر منها تحديد شكل الجسم المرئي واللون والبعد والموقع والاسم وكذلك التنسيق مع المراكز الدماغية الأخرى وهلم جرا. ولذلك فإن مساحة مركز النظر لابد أن تكون أعرض من ناتج العملية الحسابية للمعطيات السابقة.

الاستدلال:

أولاً: الحديث قال: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا» (ولم يقل كبير القفا لأن المساحة وليس الحجم هي الأهم وفي ذلك إعجاز).

ثانياً: الحديث قال: «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ» (ولم يقل مثل الخيط الأحمر من الخيط الأصفر ولو قال ذلك لما كان هنا إعجاز لأنه لا يمكن أن يراهما ولو كان قفاه بعرض السماء والأرض وفي ذلك إعجاز أيضاً).

ثالثاً: لزيادة الرؤية في النهار فإنه لا يحتاج لعرض القفا كما يحتاجه للرؤية الليلية حيث إن كل خلية مخروطية يقابلها ٢٠ خلية قضيبيية (الرؤية الليلية). فهذا فإننا نجد أن بعض الكائنات البحرية (مثل الأخطبوط) فإن مركز النظر يحتل لديها أكثر من نصف مساحة القشرة الدماغية لأنها تعيش في ظلام دامس.

رابعاً: ما هي المساحة اللازمة التي تمكننا من رؤية الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ وهل يمكن أن نخمن؟ يبدو أن ذلك بالإمكان. اللفظ الثاني للحديث يقول: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ» وهو يتكلم أيضاً عن مساحة.

فمتوسط الوسادة هو ٩٠ سم إلى متر في ٤٠ سم إلى ٥٠ سم وبعملية حسابية بسيطة فإن ذلك يساوي حوالي ١٨ - ٢٥٪ من القشرة الدماغية وهذه النسبة ربما تكون

كافية ذلك أن الأخطبوط الذي يرى في قعر البحار مع تلکم الظلمات فمركز النظر لديه يشكل حوالي ٥٠٪ من القشرة الدماغية.

الإعجاز التشريعي في أكل لحم الجمل:

عندما يُعرض الإنسان عن أوامر ربه تبدأ المشاكل، وهذا ما حدث عندما أعرض الناس عن أكل لحم الجمل. فبدأت هذه الجمال تفتك بالبيئة والموارد الطبيعية، فقد ذكرت دراسة أجرتها منظمة أسترالية معنية بشؤون البيئة أن الجمال البرية تعيش فساداً في القارة وتدمر موارد المياه والمحميات الطبيعية.

وأوصى "مركز أبحاث معرفة الصحراء التعاوني"، في العاصمة الأسترالية، باستهلاك لحوم الجمال، كوسيلة لتقليص أعداد الجمال البرية التي تصل أعدادها إلى مليون رأس، تتلف ٣,٣ مليون كيلومتراً مربعاً من الأراضي في قلب أستراليا.

وتقوم أضخم "مملكة" للجمال في ثلاث ولايات والمناطق الشرقية بأستراليا، وتلك الأعداد تتنامى بحوالي ٨٠ ألف رأس سنوياً. ونظراً لأن الجمال حيوانات حذرة ومراوغة، ولأن المناطق التي تستوطنها خالية من السكان. فمعظم الناس يجهل أعدادها ومدى الضرر الذي تسببه.

وتقدر الدراسة تكلفة الأضرار التي تحدثها الجمال بـ ١٥ مليون دولار سنوياً في منطقة تغطي ثلث القارة الأسترالية، بالإضافة إلى ملايين الدولارات التي يفقدها قطاع الرعي سنوياً جراء تضرر موارد المياه. وأوصى "موري ماكجريجور" باستهلاك لحوم الجمال كوسيلة لخفض الأعداد الهائلة من تلك الحيوانات قائلاً: «لحومها لذيذة مثل لحم البقر كما أنها غذاء صحي».

وحذر الباحث جلين إيدواردز، من وزارة البيئة والموارد الطبيعية في المناطق الشمالية، ومُعدّ الدراسة، من الأضرار غير الملحوظة التي توقعها الجمال بالموارد الطبيعية للبلاد. وتطرق إلى التأثير المدمر لمليون رأس من الجمال البرية، تتضاعف كل تسعة أعوام.

إن الله تعالى عندما شرع لنا أكل لحم الجمل إنما يريد لنا وللبيئة الخير، لأن هذه الجمال ليست مثل بقية الحيوانات (النمر مثلاً) فالجمل خُلق من أجل أن نأكله، ولما أعرض الناس في أستراليا عن أكله تزايدت أعداده بشكل كبير مما أدى إلى مخاوف تدمير البيئة هناك.

بينما خلق الله النمر والفهد والدب. وغيرها من المخلوقات لتكون جزءاً من النظام البيئي، ولما بدأ الإنسان يصطادها بوحشية بدأت تنقرض شيئاً فشيئاً. وهنا نستطيع أن نقول إن الله تعالى خلق الأرض بنظام متوازن، وعندما خالف الإنسان هذا النظام رأينا التلوث والأعاصير والزلازل والاحتباس الحراري وذوبان الجليد، وبدأت الأوبئة ولا توجد طريقة لعلاج ذلك إلا بالعودة إلى تعاليم الله تعالى.

أثر ماء الرجل وماء المرأة في خلق الجنين؛

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيَّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا يِاذِنِ اللَّهُ، وَإِذَا عَلَا مَنِيَّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آثْنَا يِاذِنِ اللَّهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

هذا الحديث يُثَبِّتُ أن للمرأة ماءً كما أن للرجل ماءً، وأن كلاهما يشتركان في تكوين الجنين، فمني الرجل ومني المرأة يشتركان في تخليق الجنين وفي صفاته ومنها الإذكاء والتأنيث، وهذا ما كشفه الطب الحديث وصوّرته آلات التصوير الدقيقة من أن الماء الذي يحمل البويضة لونه أصفر. كما ثبت علمياً أن الحَيِّينَ المنوي للرجل وبويضة المرأة هما الناقلان للصفات الوراثية عن طريق المورثات الموجودة في الصبغيات.

أصل الجسد البشري؛

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» (رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني).

إن العلم الحديث قد أثبت أن جسم الإنسان مكون من عناصر الأرض، وقد وجد بالتحليل أن جسم الإنسان يتكون من نفس مركبات الأرض وهي: (ماء - سكر - بروتينات - دسم - خمائر - فيتامينات - هرمونات - كلور - كبريت - فسفور - مغنسيوم - كلّس (جير) - بوتاسيوم - صوديوم - حديد - نحاس - يود - ومعادن أخرى).

وهذه المعادن تتركب مع بعضها لتكون العظام والعضلات، وعدسة العين، وشعرة الرأس، والضرس، والدم، والغدد اللعابية، وأشياء أخرى في جسمك.

الفروق الفطرية بين الناس ترجع إلى تكوينهم البدني؛

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «التَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتَّهُوا» (رواه البخاري ومسلم).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» (رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني).

هذان الحديثان يشيران إلى الفروق الفطرية الوراثية، كالألوان، والطباع، والاستعدادات المزاجية، والانفعالية، الفروق الفطرية فروق في التكوين الفطرية.

وهذا يلتقي مع ما أثبتته الدراسات الحديثة، من وجود فروق تشريحية في بشرة الفطرية تسبب اختلاف ألوانهم، كما أثبتت أيضاً انتقال الألوان الفطرية إلى النسل، وفقاً لقوانين الوراثة التي توصل إليها (مندل Mendel).

والدراسات الحديثة، مثل دراسات (إيفان بافلوف Ivan Pavlov) و(كلفن هول Calvin hall) على الحيوانات، أثبتت أن الفروق في الاستعدادات المزاجية والانفعالية، ترجع إلى فروق في التكوين البدني والتشريحي، لهذه الحيوانات.

ونحن نلاحظ أيضًا وجود مثل هذه الفروق، في الاستعدادات المزاجية، والانفعالية الفروق الفطرية فمن الناس من هو سريع الانفعال، شديد التهيج، ومنهم من هو كثير الهدوء، بطيء الانفعال، ولا شك أن جزءًا كبيرًا من هذه الفروق، يرجع إلى فروق في التكوين البدني، وفي طبيعة تكوين الجهازين العصبي، والغدي.

أثر الأهر الوراثي، وما يستحب أن يتخير لنطفه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرِي بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ» (رواه البخاري ومسلم).
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ وَأَنْكِحُوا الْأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا الْيَهُمَ» (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

هذان الحديثان يتفقان مع ما كشفه علم الوراثة من أن الأب والأم يشتركان في تكوين الجنين بالمنصفة، فبويضة المرأة فيها (٢٣) كروموسوم، والحيوان المنوي فيه العدد نفسه من الكروموسومات، وهذه الكروموسومات تحمل المورثات، التي تكسب الجنين صفاته الخلقية والخلقية؛ فلذا حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تخير الزوجة، لما لها من الأهمية في النسل والذرية.

مدى فعالية وسائل منع الحمل:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْعَزْلِ فَقَالَ: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ». (رواه مسلم).
وفي رواية: «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ» (رواه البخاري ومسلم).

وهذا يتفق مع ما كشفه العلم الحديث، من إمكانية حدوث الحمل رغم موانع الحمل المختلفة، إنه إعجاز كامل، لا يتصوره إلا من درس وسائل منع الحمل، ونسبة النجاح فيها، فمن وسائل منع الحمل وسائل قديمة معروفة مثل (العزل)، ومنها وسائل حديثة مثل حبوب منع الحمل، واللولب الذي يدخل إلى الرحم، والموانع الميكانيكية لدى المرأة والرجل، والمراهم، واللبوس المهبل، (التحاميل)، وأخيرًا: عملية التعقيم

بقطع قناتي الرحم، وربطهما، حتى لا تتمكن الحيوانات المنوية من الوصول إلى البويضة.

إن إعجاز حديث المصطفى ﷺ في أن جميع وسائل منع الحمل، لا تستطيع منع خلق الولد إذا أَرَادَهُ اللهُ ﷻ، إن العزل وسيلة شائعة منذ أقدم العصور، ونسبة الفشل بهذه الطريقة تبلغ اثنين وعشرين بالمائة. ونحن نعلم الآن أن لكل وسيلة من وسائل منع الحمل، نسبة تفشل فيها، فرغم هذه الموانع، يحصل الحمل إذا قدر الله ذلك، بل إن إحدى النساء قالت إنها أجرت عملية تعقيم بقطع قناتي الرحم وربطهما، في لندن، ثم لم تلبث بضعة أشهر إلا وهي حامل، وذلك مقررٌ في الكتب والمجلات الطبية، وتصل نسبة فشل هذه العملية (٥٥ بالمائة) إذا كانت العملية عن طريق المهبل، ولكنها تهبط إلى واحد بالمائة فقط، إذا أجريت العملية عن طريق فتح البطن، وبواسطة جراح ماهر.

وسجل كثير من الباحثين نسبة فشل تصل إلى (٧, ٣ بالمائة) مع جراحين مَهَرَةٍ، وقد أجريت لامرأة عمليات تعقيم متعددة، ومع ذلك حملت حملاً طبيعياً، بل لقد سُجِّلَت حالة حمل بعد عملية استئصال للرحم. وعليه فإن الحديث النبوي الشريف، إعجاز كامل في تقرير هذه الحقيقة العلمية.

إن من علامات حكمة رسول الله ﷺ في هذا الموضوع: أن العزل لا يفيد في منع الحمل، ولكن أهم من ذلك الحالات النادرة جداً، التي يستمر فيها الحمل، بالرغم من عمليات التعقيم بربط البوقين، والتوسيع، وكحت الرحم.

تقديم السمع على البصر:

كان النبي ﷺ إِذَا سَجَدَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَلِيكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (رواه مسلم). السمع والبصر في هذا الحديث المراد به العين والأذن، وهذا الحديث فيه إعجاز علمي من جهة ترتيبه السمع قبل البصر.

نمو البصر:

يغطي العدسة البصرية محفظة من الطبقة المتوسطة (الميزودرم)، وتسمى عندئذ (المحفظة العدسية الوعائية)؛ لأنه تتخللها الأوعية الدموية التي تضمّر في الشهر السابع، وتشق هذه المحفظة في وسطها، مكوّنة فتحة وفرجة، تعرف باسم (حدقة العين) أو (البؤبؤ).

ويكتمل نمو الجفون في الشهر الثالث، ويلتصق الجفنان منذ ذلك الوقت، إذ لا حاجة للجنين في الرؤية في ذلك الظلام الدامس، ولحماية العين مما يحيط بها من السائل الأمنيوسي (الرهل). وفي الشهر السابع تنفتق الجفون مرة أخرى، استعدادًا لخروج الجنين إلى الدنيا.

نمو السمع:

يكتمل نمو السمع منذ الشهر الرابع في الجنين، ومنذ ذلك الوقت المبكر، يسمع الجنين الأصوات الخارجية، وقرقرة أمعاء أمه، أما البصر فيتأخر في النمو، وعندما يولد الطفل، يستطيع أن يبصر الأشياء، ولكن إدراكه للمبصرات ضعيف وضئيل، أما إدراكه للسمعيات، فجيد منذ الولادة، بل وقبل الولادة، وذلك مما يفسر تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم وفي الحديث.

فَذَكِّرْ الرُّسُولَ شَقَّ السَّمْعِ قَبْلَ شَقِّ الْبَصَرِ، إِنَّمَا يَتَّفِقُ مَعَ مَعْطِيَاتِ عِلْمِ الْأَجَنَةِ، الَّتِي تَبَيَّنَ أَنَّ تَكْوِينَ السَّمْعِ فِي الْجَنِينِ يَسْبِقُ تَكْوِينَ الْبَصَرِ.

تورث السمع والبصر:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يُحَوِّلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوُنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا

تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

(وَاجْعَلْهُ): أَيِ الْمَذْكُورِ مِنَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْقُوَّةِ. (الْوَارِثَ): أَيِ الْبَاقِي (مِنَّا) أَيِ بَأْنُ يَبْقَى إِلَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى اجْعَلْ تَمَتُّعَنَا بِهَا بَاقِيًا مَأْثُورًا فِيمَنْ بَعْدَنَا.

الاستدلال:

هذا الحديث سبق ما كشفه علم الجينات والوراثة فلو أخذنا مشيخة وكبرناها، ثم كبرنا الجزء العلوي منها، لرأينا بداخله سلماً لولياً، وفي كل سلمة تقدير صفة من صفات الإنسان، مثل: لون العين، الشعر، شكل الأنف، شكل الأذن، ...، وعندما تلتقي مشيخة الرجل مع مشيخة المرأة يحدث اتحاد، وفي مشيخة الرجل خصائص أسلافه، وفي مشيخة المرأة خصائص أسلافها، فمثلاً يكون في أسلاف الأم صفة عين قوية، وصفة عين ضعيفة، يعني: الجزئية التي ستورث صفات العين فيها مُورَث قوي، تكون نتيجته عين قوية، وفيها مُورَث ضعيف تكون نتيجته عين ضعيفة، وكذلك الجزئية التي ستورث صفة السمع، فيها مُورَث قوي، يعطي سمعاً قوياً، وفيها مُورَث ضعيف، يعطي سمعاً ضعيفاً.

فإذا اتحدت هذه المشائج التي تحمل مُورثات الصفات، سيظهر أي الصفات ستتغلب، الضعيفة، أم القوية، فإذا تغلبت الصفة القوية، ورثها الولد، فإن كانت قوية في البصر، ورث بصرًا قوياً، وإن كانت في السمع، ورث سمعاً قوياً، وإن تغلبت الصفة الضعيفة، ورثها الولد سواء كانت في السمع، أو في البصر، أو غيرها.

وهذه القضية لا يعرف لها الأطباء قانوناً محدداً، ولذا فهم يقولون: صفات سائدة، وصفات متنحية، تتنحى صفة، وتسود صفة، وقد تكون السائدة ضعيفة، وقد تكون قوية.

ولذا نعلم معنى الدعاء الذي نردده: «وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَفُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا»: الذي يُورث في أبنائنا.

علاقة الناصية بسلوك الإنسان:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضِيقُ حُكْمِكَ، عَذْلُ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسِكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِيعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُرْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُهُمْ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» (رواه مسلم).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً أَوْ خَادِمًا أَوْ دَابَّةً فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا وَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ». (رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني).

هذه الأحاديث تؤكد أن الناصية هي مركز التوجيه والضبط؛ وهذا يتفق مع ما كشفه تشريح المخ الحديث، من أن مقدمة المخ، أو الفص الأمامي منه، والذي يقع خلف الجبهة، هو الخاص بعلاقة الناصية والشخصية.

وقد كان الظن لسنوات عديدة أن الأجزاء الأمامية، أو الجبهية من المخ - والتي تسمى الفصوص، أو الفلقات الجبهية - هي مناطق صامتة من المخ، وأن دورها ضئيل في التحكم في وظائف الجسد، وكان سبب وجود هذه الأفكار، هو أنه عند قطع أو بتر الألياف العصبية الداخلية والخارجية من الفلقات الجبهية، فإنه لم يكن يلاحظ تغيرٌ مذكور في نشاطات الحيوانات.

وقد لوحظت تأثيرات مشابهة، على الناس الذين تعرضت فلقاتهم الجبهية لتدمير أو بتر للألياف المرتبطة بها، خلال الحوادث.

وزاد في ترسيخ فكرة أن الفلقات الجبهية صامته أن استشارة الأجزاء الداخلية فيها لا يترتب عليها أي حركة في جسم الناصية.

وقد عُرف خلال الخمسين عامًا الأخيرة أن الفلقات الأمامية تختص ببعض الوظائف العقلية في الناصية والحيوان.

وقد بيّنت دراسات رسوم المخ الإلكترونية، ودراسات وظائف الأعضاء الكهربائية، أن من تعرضت فلقاتهم الجبهية للتلف، فإنهم غالبًا ما يعانون من تناقص في قدراتهم العقلية، وقد يعانون من هبوط في المعايير الأخلاقية، ويبدى المرضى علامات من الابتهاج، والرضا عن النفس، وكثيرًا ما يُبدون أمارات تبجح، وتقلص قدراتهم على التركيز، والمبادرة والتحمل، وتتناقص بدرجة كبيرة قدرة المريض على حل المشاكل، وبخاصة التي تحتاج إلى قدرات عقلية خاصة، وتتأثر قدرة المريض على الحكم على موقفه، وينحصر قلقه على الحاضر، وعلى نفسه.

ويجاز فإنه من المعلوم الآن أن الفلقات الأمامية، هامة جدًا للعقل؛ لأنها ترتبط بالعمليات العقلية العليا، فنحن نقوم بعمل الخطط داخل هذه الفلقات. وهكذا فإنها تؤثر في أفعال ووظائف أجزاء المخ الأخرى، مثل أفكارنا، ومشاعرنا، وأحاسيسنا.

ولعله للأسباب السابقة أمرنا الله بالسجود، أي بوضع ناصيتنا (جبهتنا) على الأرض...، وهذا الأمر بإجراء السجود، يعني أن علينا أن نضع مركز إرادتنا وأخذ القرار على الأرض؛ لإظهار الخضوع الكامل لله تعالى.

صلاح القلب صلاح للجسد:

قال عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (رواه البخاري ومسلم).

في هذا الحديث إعجاز طبي، إذ أن أي مرض يصيب القلب، يؤثر دون ريب على سائر الجسد، فالقلب هو الذي يضخ الدم الفاسد (غير المؤكسد) إلى الرئتين، حيث يُطرد ثاني أكسيد الكربون، ويتحد الأوكسجين بصبغة الدم (الهيموجلوبين)، الموجودة في كرات الدم الحمراء، ثم يعود الدم المنقى (المؤكسد) من الرئتين إلى البطن الأيسر، فيضخه عبر الأورطي (الأبهر) إلى كل أجزاء الجسم.

فإذا ضعفت هذه الدورة، نتيجة لأي مرض يصيب القلب، فإن الأنسجة لا تجد حاجتها من الأوكسجين، والأوكسجين يستخدم لإحراق السكريات، والدهون؛ لإطلاق الطاقة، ولولاه لتوقفت حركة الخلايا والأنسجة، وأدى ذلك إلى موتها وهلاكها، ففساد هذه المضخة الموضوعة في الجانب الأيسر من القفص الصدري، يؤدي إلى فساد الجسد كله.

قال عليه السلام: هذا الكلام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وقبل أن يعرف الناس شيئاً عن الدورة الدموية في الإنسان، وعن دور القلب الهام في حياة الإنسان. إن صحة الجسد وسقمه ترتبط بصحة وسقم القلب الحسي، وأما القلب المعنوي، فيرتبط به الأخلاق والشمائل، وهناك جانب آخر، وهو أن الجسد يتأثر أيضاً من حيث الصحة والسقم بالقلب المعنوي، وهذا أمر مُشاهد، فإننا نرى الإنسان المهموم الحزين، نحيل الجسم متعب البدن، بخلاف المعافى.

ظاهرة الخسوف والكسوف:

عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه قال: «انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ - أَحَدُ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ عليه السلام - فَقَالَ النَّاسُ: «انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلَ» (رواه البخاري ومسلم).

فلو أن ساحراً أو كذاباً أو مشعوذاً حدث معه هذا الموقف لاستغله واعتبره دليلاً على صدقه، ولكن المعصوم ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

الاستدلال:

هذا الحديث يلتقي مع التفسيرات العلمية لظاهرة الخسوف، ويرفض كل تصور يخالف ذلك التصور العلمي، فلظاهرة الخسوف تفسيرات علمية، تلتقي مع قول الرسول ﷺ، الذي حارب الخرافات، وقضى على كل التفسيرات التي غلفتها الأساطير قبل نزول القرآن.

والذي يحدث علمياً: أن القمر حين يكون بدرًا - ويعزز ذلك وجوده على دائرة البرج تماماً - فإن الأرض تحجب الشمس عنه، لأنها تلقي ظلالاً وراءها بسبب تسلط أشعة الشمس عليها، ويبلغ عرض منطقة الظل التي يوجد القمر بها خمسة آلاف وسبع مائة ميل، في حين قطر القمر يبلغ ألفين ومائة وستين ميلاً فقط، ولذلك يقطع القمر منطقة الظل هذه، في ثلاثين ساعة وأربعين دقيقة.

ويحدث الخسوف مرتين في السنة، أو مرة على الأقل، تتكرر كل مائتين وثلاثة وعشرين شهراً قمرياً، أي كل ثمان عشرة سنة وأحد عشر يوماً وثلث، وتسمى هذه الدورة في الفلك: ساروس (SAROS)، أما الخسوف الكلي فلا يحدث للقمر إلا إذا دخل القمر كله شيئاً فشيئاً في ظل الأرض المنحني، وعندئذ يحجب كل ضوء الشمس عنه، فيبدو شبه معتم، إذ أن القمر أثناء الخسوف يكون كالمخنوق، فينعكس منه ضوء نحاسي أحمر باهت، وسبب هذه الحمرة أن ضوء الشمس حين يمر بغلاف الأرض، تنكسر أشعته خلاله، ويحول التراب الجوي للأرض دون مرور اللون الأزرق، كما لا يسمح إلا للون الأحمر بالمرور، ومن هنا اكتسب القمر اللون الأحمر الباهت عند الخسوف، كما تكتسب الشمس نفس هذا اللون، ولكن بدرجة فاقعة عند الأصيل والغروب، وقد يكون اللون معتماً أو أحمر قانئاً، فهذا يتوقف على الأحوال الجوية السائدة في الغلاف الغازي المحيط بالأرض حينذاك، على سكون العواصف أو نشاطها وإثارها للأتربة.

وقد رفض الدين الإسلامي كل تصور يخالف ذلك التصور العلمي، وقد رأينا كيف رفض رسول الله ﷺ أي تصور يصدر عن الخرافات بشأن ظاهرة الخسوف، وهذا خير دليل على أن الإسلام يدعوا إلى النظرة العلمية، ونبذ الخزعبلات والخرافة.

إن النبي ﷺ قد وضع حدًا لسخافات واعتقادات المنجمين، ولاعتقادات العامة في أسباب الكسوف وغيرها، لكنه لم يذكر تفصيلات الخسوف في الموضع الذي ذكر فيه الحديث.

يُظْهِرُ فِيهِمُ السَّمْنَ؛

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ عِمْرَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً. «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»^(١) وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفَوْنَ وَيُظْهِرُ فِيهِمُ السَّمْنَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

ومعنى الحديث أن خير الأجيال والقرون من عاشوا مع النبي ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وبعد هذا تظهر أجيال وقرون في دينها نقص ومن مظاهر ذلك أنهم يشهدون ولا يُسْتَشْهَدُونَ ولا يوفون بنذورهم ويخونون الأمانة، وأيضًا يَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمْنَ فهم يكثرون الطعام فيصبح الكثيرون منهم أجسامهم بدينة.

وحاليا أصبحت السمنة مشكلة في تزايد مستمر وتفاقم، لآلاف السنين كانت السمنة شيئًا من النادر رؤيته. وفي القرن العشرين انتشرت السمنة إلى الحد الذي جعل منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٩٧ تعتبر السمنة وباءً عالميًا. وفي عام ٢٠٠٥ أظهرت

(١) قَدْ تَأَوَّلَ الْعُلَمَاءُ هَذَا تَأْوِيلَاتٍ أَصَحُّهَا: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى مَنْ مَعَهُ شَهَادَةٌ لِأَدَمِيِّ عَالَمٍ بِهَا فَيَأْتِي فَيَشْهَدُ بِهَا قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى شَاهِدِ الزُّورِ فَيَشْهَدُ بِهَا لَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَنْتَسِبُ شَاهِدًا وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَشْهَدُ لِقَوْمٍ بِالْجَنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ مِنْ غَيْرِ تَوْقُفٍ، وَهَذَا ضَعِيفٌ. [انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ١٧)].

تقديرات منظمة الصحة العالمية أن هناك على الأقل ٤٠٠ مليون إنسان تحطّوا مرحلة الطفولة يعانون من السمّنة، ومعدلات السمّنة أكثر في النساء من الرجال.

وفي عام ٢٠٠٨ قالت منظمة الصحة العالمية إن هناك ١,٥ بليون إنسان فوق سن العشرين يعاني من زيادة الوزن. وهكذا نرى أن السمّنة قد ظهرت في البشر في القرن العشرين الميلادي كما أخبر رسول الله ﷺ منذ أكثر من ١٤٠٠ عام. واليوم معدلات السمّنة في بعض الدول العربية تقارب أو تتجاوز معدلات الولايات المتحدة. والسؤال هو: كيف علم النبي ﷺ أن الناس من بعده سيظهر فيهم السّمْنُ؟

علاقة الصلاة في الصغر وآلام أسفل الظهر:

نصّ النظرية: إذا بدأ الإنسان في تليين أسفل ظهره في سن مبكرة، واستمر في هذا التمرين وحافظ عليه أثناء الكبر فإنّ فرصته في الإصابة بالآلام الشديدة والانزلاقات الغضروفية في أسفل الظهر ستتقلص بشكل كبير.

ملخص الدراسة:

آلام أسفل الظهر من المشاكل الشائعة في البالغين غالباً ما تظهر بسبب فقدان الليونة من الرباط الطولي الخلفي في الظهر وكذلك النسيج الليفي الذي يشكل الطبقات الخارجية من القرص الغضروفي عندما تفقد هذه الأنسجة القدرة على التمعط فإنّها تتمزق عند حصول حركة خاطئة تساعد على تهتكها. والحركة التي تضع ضغطاً على هذه الأنسجة هي ثني الظهر للأمام والرّكَب مفرودة. هذا التمزق نادر جداً في الأطفال لأن أنسجتهم مرنة وتتمعّط^(١) عند الانحناء.

الفرضية:

إذا حافظنا على ميزة مرونة الرباط والغضاريف الموجودة في الأطفال، فهل سيقبل هذا من نسبة الإصابة بآلام أسفل الظهر والانزلاقات الغضروفية في الكبار؟

(١) تمعّط الشّيء: امتدَّ وطال.

البحث الميداني:

أُجري بحثٌ ميدانيٌّ على ١٨٨ من البالغين وقد تم سؤالهم إذا كانوا يشتكون من آلام أسفل الظهر أو عرق النساء وعن شدة الألم إن وجد، ثم سُئلوا عن صلاتهم متى انتظموا فيها ولم يقطعوها؟

لقد اثبتت النتائج بشكل قاطع وملحوظ صحّة هذه الفرضية واكتسب الطب هذه النظرية، حيث أن ٦, ٢٪ فقط ممن يصلون قبل سن العاشرة قد عانوا من آلام قوية أسفل الظهر، بينما ٧٠٪ ممن لا يصلون إطلاقاً يعانون من آلام قوية.

قُبلت هذه الدراسة ونوقشت في "المؤتمر القطري العالمي الثاني للأطفال" في الدوحة في إبريل سنة ٢٠٠٠م، وفي "المؤتمر الدولي السادس لجراحة الظهر"، والذي عقد في أنقرة من الرابع الى السابع من سبتمبر عام ٢٠٠٢م، وذلك بإشراف نخبة من أطباء الظهر العالميين، كما نُشرت في مجلّة "الظهر" الأوروبية.

من دون العبادات يأمر الإسلام أطفال المسلمين بالصلاة في سنٍّ مبكرة هي السابعة وعلى أقصى تقدير العاشرة. طريقة الصلاة وفي الركوع بالذات يتعرض الرباط والغضاريف لعملية تليين على الأقل سبعة عشر مرة يومياً وذلك أثناء تأدية الصلوات الخمس. ولهذا فإن أطفال المسلمين لا شعورياً يحافظون على ليونة ومطاطية هذه الأنسجة منذ عمر مبكرة وهذا يمنع تيبّسها في الكبر وبالتالي يمنع تمزقها.

الأربطة الطولية خلف الفقرات والأنسجة الليفية في الغضاريف تحافظ على بقاء الغضروف في مكانه الآمن بين الفقرات وتمنع انزلاقه. أما إذا تمزّقت هذه الأنسجة نتيجة لحركة خاطئة فإن جزءاً من الغضروف (وهي النواة الداخلية) تنزلق إلى الخلف حيث يوجد النخاع الشوكي والتفرعات العصبية، وكل هذا يكون مصحوباً بالآلم مبرحة. وإذا تطورت المشكلة فإنها تصل إلى ضعف تدريجي في الأعصاب. هذا التأثير على الأعصاب هو ما يعرف بعرق النساء، وهو يتفاوت بين التئيل والألم والشلل. أما مساوئ الحركة الخاطئة فهي معروفة ولهذا نجد أن وقاية الظهر تتركز على تجنب هذه الحركة.

من الناحية الأخرى نحن نعرف أن الأربطة المرنة تستطيع أن تستوعب مقداراً أكبر من الحركة، فنجد لاعب الجمباز يستطيع أن يفتح رجله بسهولة لأنه قام بتمغيط أربطة الوركين من عمر مبكر، ولاعب الجمباز الذي يبدأ بالتمرين في سن مبكرة يكون أكثر تفوقاً من أقرانه الذين يمارسون هذه اللعبة في سن متأخرة. أمّا إذا فتحنا بالقوة رجلي إنسان بالغ لم يسبق تدريبه، فإننا على الغالب سنسبب له تمزقات في أربطته وربما عضلاته.

يتمتع الأطفال بلياقة كبيرة مقارنةً بالبالغين، وسبب هذه اللياقة هو أن أنسجتهم مرنة. وإذا ما حافظنا على هذه الخاصية من الطفولة فإنّه من المنطقي أن تظلّ هذه الأنسجة مرنة فتقاوم الحركات الشديدة. أما إذا أهملت أو بمعنى أصحّ إذا حرمت من التمرين المستمر فإنها ستتيّس عند الكبر، فإذا تعرضت لشدّ قويّ بسبب حركات شديدة فإنها قد تتمزق وهذا يسبب آلام مبرحة.

وهذه المعلومات متناسقة مع أن الصلاة هي الفرض الوحيد المطلوب تطبيقه بحزم على أطفال المسلمين الصغار، ففي الحديث الشريف: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

إذا بدأ الأولاد بالركوع مرات عديدة كل يوم ابتداءً من السن السابعة وعلى الأكثر السن العاشرة، فإن الأربطة الطولية خلف الفقرات وألياف الغضروف الخلفية تحافظ على ليونتها فيصعب تمزقها في الكبر ويبقى الغضروف أمناً بين الفقرات، وهكذا تتقلص مشكلة صعبة تعاني منها فئة كبيرة من الناس.

سبحان الله جاءت هذه المعلومات الدقيقة والبالغة الأهمية والمعقدة الفائدة على لسان النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. فهذه أول دراسة تُظهر الأهمية العلمية للصلاة المبكرة وظهر هذا الفرق الكبير بين الذين يحافظون على ليونة ظهورهم من سن مبكرة وغيرهم ممن حُرِموا من هذه النعمة في طفولتهم. أمّا من بدأ الصلاة متأخراً فوضعه غير مطمئن إطلاقاً وهو غير آمن.

نتيجةً لهذا الاكتشاف العلمي تبلورت معجزتان إسلاميتان جديدتان ظلتا مخفيّتين لأكثر من ألف وأربع مائة سنة وهما تصميم الإسلام على الانتظام في الصلاة قبل سنّ العاشرة، وكذلك الركوع في الصلاة فهو معجزة إسلامية أخرى.

الصلاة والوقاية من مرض دوالي الساقين:

إن دوالي الساقين هو خلل شائع في أوردة الساقين، يتمثل في ظهور أوردة غليظة ومتعرجة وممتلئة بالدماء المتغيرة اللون على طول الطرفين السفليين، ومن المؤلم أنها تصيب ما يقرب من عشرة إلى عشرين بالمائة من الجنس البشري. والصلاة تعد عاملاً مؤثراً في الوقاية من دوالي الساقين عن طريق ثلاثة أسباب:

الأول: أوضاعها المتميزة المؤدية إلى أقل ضغط واقع على الجدران الضعيفة لأوردة الساقين السطحية.

الثاني: تنشيطها لعمل المضخة الوريدية الجانبية، ومن ثم زيادة خفض الضغط على الأوردة المذكورة.

الثالث: تقوية الجدران الضعيفة عن طريق رفع كفاءة البناء الغذائي بها، ضمن دفعها لكفاءة التمثيل الغذائي بالجسم عموماً.